الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

مركز البابطين للترجمة
ALBABTAIN TRANSLATION CENTER

روبرت دارنتون

الكتاب

بين الأمس واليوم والغد

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
THE CASE FOR BOOKS: Past, Present, and Future
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Public Affairs
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.
Copyright © 2009 by Robert Darnton
All rights reserved
Arabic Copyright © 2009 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الكتاب

بين الأمس واليوم والغد

تأليف

روبرت دارنتون

ترجمة

غسان شبارو

مركز البابطين للترجمة
ALBABTAIN TRANSLATION CENTER

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9953-87-830-0

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

مركز البابطين للترجمة

الكويت، الصالحية، شارع صلاح الدين، عمارة البابطين رقم 3

ص.ب: 599 الصفاة رمز 13006، هـ 22412730 (00965)

البريد الإلكتروني: tr2@albabtainprize.org

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

إن مركز البابطين للترجمة والدار العربية للعلوم ناشرون غير مسؤولتين عن آراء وأفكار المؤلف. وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء الكاتب وليس بالضرورة أن تعبر عن آراء المركز والدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الناشرين**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

مركز البابطين للترجمة(*)

"مركز البابطين للترجمة" مشروع ثقافي عربي مقرّه دولة الكويت، يهتم بالترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية وبالعكس، ويرعاه ويموّله الشاعر عبد العزيز سعود البابطين في سياق اهتماماته الثقافية وضمن مشروعاته المتعدّدة العاملة في هذا المجال.

يقدّم المركز هذا الإصدار بالتعاون مع "الدار العربية للعلوم ناشرون" في إطار سلسلة الكتب الدورية المترجمة إلى العربية ومساهمةً منه في رفد الثقافة العربية بما هو جديد ومفيد، وإيماناً بأهمية الترجمة في التنمية المعرفية وتعزيز التفاعل بين الأمم والحضارات.

وإذ يحرص "مركز البابطين للترجمة" على اختيار هذه الكتب وفق معايير موضوعية تحقّق الغايات النبيلة التي أُنشئ لأجلها، وتراعي الدقّة والإضافة العلمية الحقيقية، فمن نافل القول إن أي آراء أو فرضيات واردة في هذه الكتب وتم نقلها التزاماً بمبدأ الأمانة في النقل، إنما تعبّر حصراً عن وجهة نظر كاتبها ولا تلزم المركز والقائمين عليه، بأي موقف في أي حال من الأحوال. والله الموفّق.

(*) للتواصل مع المركز tr2@albabtainprize.org

المحتويات

مقدمة 9

الباب الأول

المستقبل

الفصل الأول: غوغل ومستقبل الكتاب 23

الفصل الثاني: واقع المعلومات 41

الفصل الثالث: مستقبل المكتبات 63

الفصل الرابع: مفقود وموجود في الفضاء السيبراني 79

الباب الثاني

الحاضر

الفصل الخامس: الكتاب الإلكتروني والكتاب التقليدي 87

الفصل السادس: مشروع غيتنبرغ الإلكتروني 99

الفصل السابع: الولوج المجّاني 123

الباب الثالث

الماضي

الفصل الثامن: أنشودة شكرٍ للورق 129

الفصل التاسع: أهمية أن تكون ببليوغرافياً 151

الفصل العاشر: خفايا القراءة 169

الفصل الحادي عشر: ما هو تاريخ الكتاب؟ 189

مراجع 223

مقدمة

إنـــه كتاب عن الكتب، واعتذار من الكلمة، ماضياً وحاضراً ومـــستقبلاً. وهو كذلك إثبات لموقع الكتاب في البيئة الرقمية التي تحـــولت اليوم إلى واقع حاسم في حياة الملايين من البشر. وفي منأى عن استهجاني أساليب التواصل الإلكترونية، أودّ استكشاف إمكان تراصـــفها إلى جانب القوة التي أطلقها يوهان غيتبرغ قبل أكثر من خمـــسة قـــرون. مـــا هي الأرضية المشتركة التي تجمع بين الكتاب التقلـــيدي والكـــتاب الإلكتروني؟ ما هي المزايا المشتركة التي تجمع المكتبات والإنترنت؟ قد تبدو هذه الأسئلة جوفاء وتجريدية، ولكنها تـــتخذ شكلاً صلباً عبر القرارات التي يتخذها الفاعلون في صناعة التواصـــل والاتصال يومياً - مسؤولو المواقع، مهندسو الكمبيوتر، الممولـــون، المحامون، الناشرون، مسؤولو المكتبات، إضافة إلى كمٍّ كبير من القراء العاديين.

وبما أنني كنت أحد العاملين في هذا المجال، أُقدم هذه المجموعة من المقـــالات علّها توفر خدمة لأي شخص يحاول تلمُّس طريقه عبر بيئة المعلـــومات. ولقد قادني طريقي عبر العديد من القطاعات الغريبة. فبعد وظـــيفة قـــصيرة كمراســـل ومسؤول عن الأخبار الجرمية في جريدتي نـــيوآرك ســـتار ونيويورك تايمز، انتقلتُ للتعليم الجامعي حيث قضيت معظـــم أوقاتي في أجواء القرن الثامن عشر، أُدرِّس موضوعاً أصبح اسمه

تاريخ الكتب. ولقد قادتني أبحاثي حول النشر في عصر التنوير إلى فرصة متابعة الناشرين أثناء عملهم في عصرنا هذا، وذلك عندما قضيت أربع سنوات في هيئة تحرير دار جامعة برينستون، لتليها خمس عشرة سنة كقيِّم على دار جامعة أُكسفورد (الولايات المتحدة). ولقد وفَّر لي مركز دار جامعة أُكسفورد على شارع ماديسون اتصالاً مباشراً بمهنة النشر إضافة إلى الجانب الأكاديمي منها. كما أن صيفاً قضيته كباحث مقيم في شبكة CBS فتح لي أُفقاً جديداً من مكاتبها في ناطحة السحاب على الجادة السادسة. ولقد أعادني انتخابي في مجلس أمناء مكتبة نيويورك العامة إلى قلب عالم الكتب عند تقاطع الجادة الخامسة والشارع الثاني والأربعين. ولكنني كنت عندها أنشر كتباً مهنية لدى دار نورتن القريبة، إضافة إلى مقالات في مجلة نيويورك لمراجعات الكتب. ولا أعتقد أنه كان بإمكاني اتباع رحلة ملهمة في عالم الكتاب المعاصر أفضل من هذه، حتى ولو قمت بالتخطيط لها. ولكنها تّمت كلها ارتجالاً ومع الكثير من الحظ الجيد.

وخلال طريقي هذا ساعدتُ في إطلاق مشروعيّ نشر من تصميمي: "التنوير الإلكتروني Electronic Enlightenment"، وهو قاعدة بيانات رقمية مكونة من المراسلات بين ڤولتير وروسّو وفرانكلين وجفرسون (وهي تباع اليوم عبر مؤسسة ڤولتير في أُكسفورد كرزمة اشتراك تختلف محتوياتها قليلاً عن تصوّري الأساسي)، ومشروع غيتنبرغ الإلكتروني Gutenberg-e، وهو مجموعة من الرسائل العلمية من أطروحات فازت بجوائز عبر التاريخ (وقد بيعت عبر اشتراكات من الناشر، دار جامعة كولمبيا). ولقد قدَّمت مؤسسة أندرو ميلون التمويل اللازم للمشروعين، وساعدتني في تعلُّم ضرورة وجود خطط تجارية، وإمكانية التسويق للصالح العام عبر مبادرات من القطاع الخاص.

وأخيراً قررت الشروع بكتابة كتاب إلكتروني عن النشر وصناعة الكتاب في أوروبا القرن الثامن عشر. ولكن، وقبل تحضير الموقع على الإنترنت، تلقيت مخابرة هاتفية من عمدة جامعة هارڤارد: هل أقبل ترشيحي لمنصب المدير الجديد لمكتبة جامعة هارڤارد؟ لم أتردّد طويلاً قبل الإجابة بنعم. فلقد سنحت لي الفرصة لمقاربة عملية للمسائل التي درستها كظواهر تاريخية. كما أن هذا المركز لن يرتّب عليّ حملاً إدارياً ثقيلاً، بل على العكس، فلقد كان منتظراً مني متابعة أبحاثي والاستمرار في التعليم كأستاذ جامعي، على أن يتولى إدارة المكتبات (يتراوح عددها بين 40 و104 مكتبة، طبقاً للتعريف المستخدم للمكتبة) مدراء المكتبات، الذين يُعتبرون بشكل عام الأفضل في المهنة. ولكن، وإثر التحاقي بوظيفتي الجديدة في شهر تموز/يوليو 2007، اكتشفت أن هارڤارد كانت تجري اتصالات سرّية مع غوغل حول مشروع قَطَع أنفاسي عليّ. كانت غوغل تزمع رقمنة(*) ملايين الكتب، انطلاقاً من تلك التي في مكتبة هارڤارد وثلاث مكتبات جامعية أخرى، على أن تسوّق النسخ الرقمية وتبني قاعدة بيانات لها لتتحول إلى أكبر مكتبة في العالم، أكبر بكثير من أي مكتبة منذ مكتبة الإسكندرية.

نشأ باحثُ كتب غوغل Google Book Search كما أصبح اسمه، من محاولة لفض دعوى قضائية ضد غوغل في أيلول/سبتمبر وتشرين الأول/أكتوبر 2005، أقامتها مجموعة من المؤلفين والناشرين، الذين ادعوا أنه عبر رقمنة الكتب من مكتبات بحثية ونشر مقتطفات منها على الويب كانت غوغل تخرق حقوق الملكية. لم تكن هارڤارد طرفاً في الدعوى، ولكن كان يجب إعلامها بالمفاوضات الجارية لإيجاد تسوية، لأن باحث كتب غوغل غير قادر على الانطلاق، إذا لم ينل دعم

(*) تحويل نص ورقي إلى مضمون رقمي.

المكتبات، لتأمين الكتب المناسبة للرقمنة. لذلك قضيت قسماً كبيراً من السنتين الأولين في هارفارد محاطاً بالمحامين ومكافحاً لفهم نتائج التسوية خلال إخراجها للنور. كل شيء كان يجب أن يبقى سرياً، طبقاً لاتفاقية "عدم البوح"، إلى أن أُعلنت التسوية في 28 تشرين الأول/أكتوبر 2008. في ذاك الوقت كنت قد راكمت معرفةً حول النزاعات القضائية وعالم غوغل الغريب، حيث يجلس مهندسون يافعون على كرات مطاطية ممتلئة هواءً يحلمون بمعادلات حسابية قادرة على إدارة البحث عن أي شيء. (خلال إحدى زياراتي إلى مكاتب غوغل، سألت أحد مسؤوليها كيف يصف الهرمية الإدارية للشركة. "سهل"، أجاب. "في البداية هناك المهندسون، ثم المحامون، ثم الطباخون").

رغم انبهاري برؤية مكتبة رقمية عملاقة، كانت لديّ شكوك حول السماح بوضع مجموعات كتب هارفارد التي تشكّلت عبر جهود جبارة وأكلاف مرتفعة منذ العام 1638، في مهبّ المضاربات التجارية. لم أُمانع مشروع غوغل لتوفير الكتب ذات الملكية العامة مجاناً عبر الإنترنت، ولكن غوغل كانت تخطط لبيع اشتراكات للوصول إلى قاعدة بيانات كتبها المرقمنة المؤلفة من كتب تحميها حقوق الملكية، على أن يشاركها المدعون عليها في العائدات المالية. وكلما ازداد تعمّقي في موضوع غوغل، كانت تتوضح لي نواياها بحصرية العمل عبر السيطرة على الأسواق، بدل العمل لتكون نصيراً للمكتبات التي لا تهدف سوى إلى الحفاظ على المعرفة ونشرها. ولقد حاولتُ شرح القضايا التي يثيرها باحث كتب غوغل عبر مقالتين نُشرتا في مجلة نيويورك لمراجعات الكتب، وأعدتُ نشرهما في هذا الكتاب. ومنذ ذلك الحين تطوَّر نقاش عام ما زال قائماً حتى اليوم وسيستمر، حتى معرفة مصير التسوية في المحكمة التي ستبدأ مداولاتها في 7 تشرين الأول/أكتوبر 2009.

أمـــا المسألة الأخرى التي استحوذت عليَّ خلال سنتيّ الأولين في هارڤـــارد، فكانت نموذجاً محلياً من التحرك العام الذي يدعى "الولوج المجاني". وبمساعدة من مهندس الكمبيوتر ستيوارت شايبر، الملتزم فكرة الولـــوج المجـــاني، وبدعم من عميد هارڤارد ستيڤن هايمن، دافعت عن تـــوجّه أمـــام هيئة الفنون والعلوم التعليمية لجعل جميع مقالات أعضاء الهيـــئة متاحة مجاناً على الشبكة. هذا التوجه تمَّ تحقيقه بالإجماع في 12 شـــباط/فبرايـــر 2008. ومنذ ذلك الوقت تمَّ اعتماد توجهات مماثلة في كلـــية الحقوق، وكلية كنيدي للإدارة الحكومية، وكلية التعليم. ومن المنتظر أن تحذو الكليات الأخرى المكوِّنة لجامعة هارڤارد حذو زميلاتها الأخـــريات، لـــتكوين "نموذج هارڤارد" للولوج المجاني، هذا الموضوع الـــذي تحـــوّل إلى حوار مستمر داخل المجتمع الأكاديمي. وما يميّز هذا الـــنموذج عـــن غـــيره من سياسات الولوج المجاني الأخرى، أسلوبه الإلزامـــي. فأعـــضاء الهيئة التعليمية ملزمون تحرير رخص غير حصرية لهارڤـــارد، مما يؤمّن حرية الوصول إلى إصداراتهم الأكاديمية من مخزن خاص تديره المكتبة عبر مكتب الاتصالات التعليمية، ويمكنهم الانضمام عبر الحصول على وثيقة تنازل تُمنح أوتوماتيكياً، ولكن عليهم الالتزام بإيصال نتائج أبحاثهم بشفافية إلى كل من يحمل تصريحاً بالولوج.

يـــشكل مـــبدأ الانفتاح الأساس لعدد من المشاريع الأخرى التي ســـتبحث في المقـــالات التالية. ولا أتوقع من القراء اهتماماً خاصاً بما يجري في هارڤارد، ولكن يبدو أن مكتبة هارڤارد توفر المكان الأنسب للتعامل مع المشاكل الناشئة في جميع أرجاء المجتمع التعليمي - مشاكل تـــسديد الأكـــلاف المفـــرطة للمجلات، والحفاظ على النصوص التي "ولـــدت رقمـــياً"، والدفاع عن الاستخدام المحق في تخصيص نصوص للطلاب، وإضافة مواقع الويب والبريد الإلكتروني إلى المصادر المحفوظة

للبحث المستقبلي. ولكن هناك مشاكل عملية أيضاً: كيف السبيل إلى المحافظة على اقتناء كتب مطبوعة والتقدم على الجبهة الرقمية في الوقت عينه؟ وكيف السبيل إلى تطوير نموذج تجاري جديد يحرِّر المجلات الأكاديمية من مضاربات الناشرين التجارية؟ وكيف السبيل إلى قوننة الأبحاث العلمية الإلكترونية في نظر المحافظين غير المستعدين للاعتراف سوى بالكتاب الورقي؟ فالأسئلة مفتوحة على كامل مستقبل التواصل والاتصالات. وآمل أن تكون موضع اهتمام نطاق واسع من القراء، حتى ولو عرضتها كما بدت لي من زاويتي الصغيرة في الحرم الجامعي.

أعتقد أنه يجب دراسة الماضي ومقاربته عند محاولة استشراف المستقبل أثناء مقارعة المشاكل الآنية. لذلك وضعتُ هذه المجموعة من المقالات في ثلاثة أبواب، عبر العودة إلى الماضي، بعيداً عن تخمين مستقبل عالم الكتاب الذي سيسود بعد خمس أو عشر سنوات من النقاش حول مسائل مستجدة أو عائدة لعصور معلومات قديمة ذات أنظمة تواصل خاصة لها. ولا أقصد أني أردت لهذه المقالات أن تناسب قوالب محددة سابقة التجهيز، ولكنها كُتبت في مناسبات محددة استدعت الرد المباشر والسريع.

وهنا أودّ إبداء رأيٍ في المقالة التي يمكن استخدامها لتفحُّص موضوع ما، تماماً كما يثقب خبير المعادن مادة ما ليحلل مكوناتها. أما مقالات المراجعات فمفيدة بشكل خاص في هذا المجال، في حين يضم القسم الأخير من الكتاب ثلاث مقالات مراجعات كتبتها لتفحُّص عدة أوجه من تاريخ الكتاب: الأبحاث، المادة الأساسية للأدب من القرن الخامس عشر حتى القرن الحادي والعشرين، ثبت المراجع، الأداة الأساسية لاستيعاب تأثير النصوص، والقراءة، العنصر الأهم والخفي في عملية التواصل. فالتواصل بحدِّ ذاته – فكرة المراحل التبادلية لإنتاج

الكتاب وقراءته – هو موضوع الفصل الأخير من الكتاب، الذي يحاول تحديد تاريخ الكتاب بشكل عام وتصوير نهجه، عبر الرجوع إلى الأبحاث في الأرشيف. فلديّ اعتقاد راسخ أن تاريخ الكتاب هو من أهم حقول الإنسانيات. فهل يعبِّر نجاحه عن افتتان بعالم خسرناه حوّلت فيه الإنترنت آلة الطباعة إلى ركام مهجور؟

ربما، ولكن دراسة موضوع الكتاب يجب أن لا تبقى محصورة بتقنية محددة. وبالعودة إلى أبعاد موضوعي التاريخية، آمل مساعدة القارئ للحصول على فكرة موسعة عن المشاكل الآنية. ورغم أن دراسة التاريخ، في نظري، لا تحتمل دروساً يمكن تطبيقها مباشرة على الأوضاع الحالية، فإن الانغماس في الماضي يمكن له أن يقدّم انطباعاً عن الأحداث الحالية والمستقبلية. فالناس تشعر اليوم أن الأرض تتحرك تحت أقدامها، لتنقلها نحو مرحلة جديدة تقررها التطورات التقنية. ونشعر بالتغيير عبر نماذج التصرفات. إن جيلاً "وُلِدَ في العصر الرقمي" هو في "تواصل مستمر"، حيث يتحادث باستمرار على الهواتف النقالة، ويتعامل مع الرسائل القصيرة، ويتصل بشبكة فعلية أو مع حقائق ظاهرية. فالشباب الذين تعبر بهم في الشارع أو تجلس إلى جانبهم في الحافلة هم أمامك زمنياً وليسوا كذلك. إنهم يهزّون أكتافهم وينقرون بأقدامهم على وقع الموسيقى التي يمكنهم سماعها وحدهم داخل شرنقة من الأنظمة الرقمية. ويَظهرون وكأنهم في اتصال مختلف عن الأكبر سناً منهم، الذين يأتي توجههم صوب الميكانيكا من منطقة لاوعي مختلفة. فالجيل القديم تعلّم ضبط المؤشرات بواسطة المقابض، أما جيل الشباب فقد نشأ على التنقل السريع. والفرق بين الضبط والتنقل قد يبدو تافهاً، ولكنه ينشأ من ردات الفعل المتموضعة عميقاً في الذاكرة الحركية. ونحن نتلمس طريقنا في هذا العالم عبر "المعرفة الحسّية" التي يدعوها

الألمـــان Fingerspitzengefühl. فإذا كنت معتاداً تحريك قلمك بواسطة السبابة، لاحظ كيف يستخدم الشباب سباباتهم على هواتفهم الخلوية، وعندها ستكتشف كيف تغلغلت التكنولوجيا في أرواحهم وأجسادهم.

هـــل يعـــني التغـــيير الذي حدث في "المعرفة الحسّية" أن القراء سيتوقفون عن تقليب صفحات الكتب"؟ لا يبدو أن أدوات القراءة قد احتلت مكاناً في المشهد المعلوماتي. ولكن الوسيلة الأقدم، الكودكس(*) Codex، ما زالت مستمرة في السيطرة على قطاع المادة المقروءة. وفي الواقـــع أن نصيب الكتاب من السوق ما زال إلى ارتفاع. وبناء على دليل الكتب المطبوعة الذي تصدره بوكرز Bowkers، فإن 700,000 إصدار جديد طُبع في العالم في العام 1998، و859,000 في 2003، و976,000 في 2007. ورغم الانحدار الاقتصادي الطارئ، فإن مليون كتاب جديد سيصدر سنوياً قريباً.

إن اســـتمرار سيطرة الكتاب لا زال يجسّد قاعدة عامة في تاريخ التواصـــل: إن وســـيلة واحدة لا تلغي أخرى، وعلى الأقل في المدى القـــريب. لقد استمر إصدار المخطوطات طويلاً بعد اختراع غيتنبرغ، ولم تمـــحُ الصحف الكتاب المطبوع، ولم يحل الراديو مكان الصحيفة، ولم يلـــغِ التلفزيون الراديو، ولم تحوِّل شبكة الإنترنت مستخدميها عن التلفزيون. فهل يقدّم تطور التكنولوجيا رسالة تأكيد الاستمرارية رغم تكاثر الاختراعات الحديثة؟

كلا، إن الانفجار الذي حصل في وسائل التواصل الإلكتروني هو ثورة مماثلة لاختراع آلة الطباعة ذات الحروف المتحركة، ولا زلنا نعاني في استيعابها كما حصل مع قراء القرن الخامس عشر، عندما تعرفوا إلى الحـــروف المطـــبوعة. أدناه، مثلاً، رسالة من الأديب الإيطالي نيكولو

(*) الكتاب بشكله الأول بعد أفول اللفافات والمخطوطات.

بـــيروتي موجهة إلى فرانسيسكو غوارنريو، كتبها في العام 1471، أي أقل من عشرين عاماً بعد اختراع غيتنبرغ.

"عزيـــزي فرانسيسكو، لقد واظبتُ مؤخراً على الثناء على العصر الذي نعيشه، بسبب الهدية الإلهية العظيمة لأسلوب الكتابة الجديد الذي وَصَلنا من ألمانيا. وفي الحقيقة، لقد تعرفت على رجل واحد اســتطاع في شـــهر واحد طباعة ما يستطيع عدة أشخاص كتابته يدوياً خلال سنة... ولهذا السبب نَمَتْ لديّ آمال أنه خلال وقت قـــصير ســـتتوفر بين أيدينا كميات كافية من الكتب تؤمِّن جميع الكـــتب للقـــراء بغـــض النظـــر عن الأعذار المعتادة كعدم توفر الإمكانات أو ندرتها... ولكن، تباً لأفكار الإنسان، ذلك أني أرى أن الأمور قد اختلفت عما رجوته. فاليوم أصبح لدى أي شخص الحرية لطباعة ما يشاء، وهم في معظم الأحيان يغضّون الطرف عن الأفـــضل مـــتوجهين لطباعة ما يسلّي، أي ما يجب إغفاله، أو من الأفضل إزالته من جميع الكتب. حتى إن بعضهم عندما يطبع كتاباً مـــا يقوم بتحريفه وإفساده لدرجة أنّ من الأفضل إتلافه بدلاً من توزيع ألف نسخة مشوهة منه عبر العالم".

تبدو رسالة بيروتي وكأن كاتبها أحد منتقدي باحث كتب غوغل الـــيوم، بمن فيهم أنا شخصياً، الذين يأسفون للنصوص المبتورة وثبت المراجع غير الدقيقة في "نموذج الكتابة الحديث" الذي يوفره لنا الإنترنت الـــيوم. ومهمـــا كان شكل المستقبل، فلا بد من أن يكون رقمياً. وما الحاضر سوى مرحلة عبور، عندها ستتعايش وسيلتيّ التواصل الطباعية والـــرقمية وتنقرض بعض الوسائل الأخرى. فنحن نشهد اليوم انقراض وسائل نعرفها: الآلة الكاتبة، التي انتقلت إلى المتاحف، والرسالة المكتوبة يدوياً، البعيدة عن إدراك الأجيال الشابة أصحاب الخطوط التي لا تُقرأ،

والصحيفة اليومية التي اختفت من العديد من المدن (الأميركية)، ومخزن الكتب المحلي الذي حلّت محله مراكز تجارية تتكوّن من منظومات لبيع الكتب تهددها مواقع إنترنت مثل أمازون التي تؤمّن الكتب إلى عناوين طالبيها مباشرة. والمكتبة؟

قد تظهر وكأنها أكثر المؤسسات المهجورة. رغم أن ماضيها حافظ على الكثير لمستقبلها، ذلك أن المكتبات لم تكن يوماً مستودعات للكتب. فهي كانت دائماً وستبقى مراكز للمعرفة يكرّسها مركزها الوسيط في عالم المعرفة ساحة توفيقية مثالية بين وسيلتي التواصل الطباعية والرقمية، إذ يمكن للكتاب استيعاب الوسيلتين. وإذا كان مطبوعاً على الورق أو مخزّناً في "سيرفر" فهو يضم معرفة، ويستمد قوته ومركزه من سلطة أهم وأكبر من التكنولوجيا التي كوّنته. وهو يُدين ببعض قوته إلى مؤلفيه، رغم أنه استحق الاحترام طويلاً قبل نشوء جماعات المؤلفين في القرن الثامن عشر. وكما يصرّ مؤرخو الكتاب، فإن المؤلفين يكتبون النصوص، ولكن الكتب يصنعها الأخصائيون، وهؤلاء يمارسون أعمالاً تمتد أبعد من صناعة وتوزيع مُنتج ما. والناشرون هم حرّاس يضبطون تدفق المعرفة. فمن التشكيلة الواسعة من العناوين المعروضة للنشر، يختارون ما يعتقدونه قابلاً للانتشار أو يجب أن يُنشر، بناءً على خبرتهم العملية وقناعاتهم الشخصية. وتقرّر حكمة الناشرين المعزّزة بخبراتهم الطويلة في سوق الأفكار ما يجب أن يصل إلى القراء، وعلى القراء الاعتماد عليهم اليوم أكثر من أي وقت مضى في عصر تسوده تخمة في المعلومات. وعبر اختيار النصوص وتحريرها وتصميمها لتصبح مناسبة للقراءة، فإن المختصين في الكتاب يقدمون خدمات ستبقى، مهما تغيرت التقنيات.

ويسرّني أن أقدم هذه المقالات بشكل كتاب مطبوع على الورق، كما يسعدني أن ناشري، Public Affairs، سيجعله في متناول الراغبين على الإنترنت ومسجّلاً سمعياً. ولقد نُشرت معظم هذه المقالات في مجلة نيويورك لمراجعة الكتب، حيث صحَّح محرري روبرت سيلفرز نصوصي وهذّب أفكاري طوال أربعين عاماً. وأودّ أن أقدِّم شكري له ولبيتر أوسنوس وكلايف بريدل في العلاقات العامة، الذي كانت خبرته حاسمة في تحويل هذه المقالات إلى كتاب.

الباب الأول

المستقبل

الفصل الأول

غوغل ومستقبل الكتاب

دأبت غوغل خلال السنوات الأربع الأخيرة على رقمنة ملايين الكتب، بما فيها إصدارات تحميها حقوق النشر، وذلك من مجموعات مكتبات أبحاث رئيسية، لتوفر نصوصها للبحث على شبكة الويب. هذا المشروع الذي عُرف تحت اسم "باحث كتب غوغل" أطلق قضية قانونية تقدَّم بها مجموعة من المؤلفين والناشرين الذين ادعوا أن غوغل خرقت حقوق نشر كتبهم. وبعد مفاوضات مطوّلة، اتفقت مجموعة المبدعين على تسوية مع غوغل، والتي قد يكون لها تأثير عميق على عالم الكتاب في المستقبل المنظور. ولكن، كيف سيكون المستقبل؟

لا أحد يعرف تماماً، ذلك أن التسوية تبلغ حداً كبيراً من التعقيد لدرجة يصعب تقدير حدودها الاقتصادية والقانونية عبر تعقيدات التضاريس الناشئة. ولكنَّ أمثالي من المسؤولين عن مكتبات الأبحاث يتمتعون بوجهة نظر واضحة لهدف مشترك: نريد إتاحة مجموعاتنا وتوفيرها للقراء في كل مكان. ولكن، كيف نصل إلى هناك؟ الطريق الوحيد قد يكون حذراً: يجب النظر إلى أبعد ما نستطيع، وأثناء الاستمرار في متابعة النظر إلى الأمام، تبقى ضرورة النظر في مرآة الرؤية الخلفية.

عـــندما أنظـــر إلى الخلف، أُركز نظري على القرن الثامن عشر، عـــصر التنوير، وإيمانه في قوة المعرفة، وعالم الأفكار الذي تخللته – ما دعاه المتنورون جمهورية الرسائل.

لقد تصوَّر القرن الثامن عشر جمهورية الرسائل كعالم دون شرطة، دون حدود، دون تفرقة عدا تلك التي تفرضها الموهبة، حيث يمكن لأي شخص الانضمام إليها عبر ممارسة ضرورتي الانتماء الأساسيتين، الكتابة والقـــراءة. شـــكّل الكتّاب الأفكار، وحكم القراء عليها. وبفضل قوة الكلمة المطبوعة، انتشرت الأحكام في دوائر واسعة، وكان الرابح دائماً صاحب الحجة الأقوى.

وانتـــشرت الكلمـــة أيضاً عبر الرسائل المكتوبة، ذلك أن القرن الثامن عشر كان عصراً مزدهراً للتواصل بالرسائل التبادلية. وإذا قرأت مراســـلات ڤولـــتير وروسّو وفرانكلين وجفرسون – كل منها يتسع لحـــوالى خمـــسين مجلداً – للمستَ جمهورية الرسائل أثناء عملها. لقد نـــاقش كـــلٌ مـــن الكتّاب الأربعة جميع مسائل عصرهم عبر نهر من الرســـائل التي تقاطعت بين أوروبا وأميركا عبر شبكة معلومات عابرة للمحيط.

إني شخـــصياً أتمـــتع بقـــراءة الرســـائل المتبادلة بين جفرسون وماديسون. فقد بحثا في كل شيء، وبشكل خاص الدستور الأميركي، والـــذي كـــان ماديـــسون يـــساعد في كتابته في فيلادلفيا بينما كان جفرســـون يمثل الجمهورية الجديدة في باريس. ولقد كتبا باستمرار عن الكـــتب، إذ أحـــب جفرســـون البحث في مخازن الكتب في عاصمة جمهـــورية الرســـائل، حيث كان يشتري كتباً لأصدقائه. ولقد شملت مـــشترواته "الأنسيكلوبيديا" لديدرو، التي اعتقد جفرسون أنه اشتراها بسعر مغرٍ، والتي اعتقد أنها الطبعة الأولى بينما كانت طبعة معادة.

رئيسا جمهورية مستقبليّان يتناقشان حول الكتب عبر شبكة المعلومات التنويرية - إنه منظر مثير. ولكن قبل أن يحجب ضباب العاطفة صورة الماضي هذه، يجب أن أضيف أن جمهورية الرسائل هذه كانت ديموقراطية في المبدأ فقط. ففي الواقع كان يهيمن عليها الأغنياء وأبناء العائلات العريقة. وبعيداً عن قدرتهم على العيش بفضل أقلامهم، كان معظم المؤلفين بحاجة للتودد إلى مَن يدعمهم، واستجداء الوظائف السهلة، ومحاولة الحصول على مواعيد من الجرائد الرسمية، ومراوغة الرقابات، والخداع للوصول إلى الأكاديميات والصالونات الأدبية، حيث كانت السمعة الحسنة تُصنع. وبينما كانوا يعانون من المعاملة المهينة على أيدي نخبة المجتمع، كانوا يدفعون بعضهم بعضاً إلى المزيد من العمل، ويجسد النزاع بين فولتير وروسّو طباعهما. فبعد قراءته "محاضرة عن نشأة عدم المساواة" التي كتبها روسّو في العام 1755، كتب له فولتير: "لقد استلمت، سيدي، كتابك الجديد المعادي للجنس البشري... إنه يجعل الإنسان يرغب في السير على أربعته". بعد خمس سنوات، كتب له روسّو: "سيدي... إني أكرهك".

كانت الإشكالات الشخصية وليدة الفوارق الاجتماعية. وبعيدة عن مثالية الساحة الإغريقية العامة التي يتساوى فيها الجميع، فقد عانت جمهورية الرسائل من الأمراض ذاتها التي أصابت جميع مجتمعات القرن الثامن عشر: الامتيازات. وهي لم تكن محصورة في الطبقة الأرستقراطية. ففي فرنسا طُبِّقت على كل شيء في عالم الرسائل بما فيها الطباعة وتجارة الكتب، التي سيطرت عليها جماعات محددة، والكتب التي لم تكن لتصدر قانونياً دون امتياز ملكي وتصديق رقابي ممهور كاملاً داخلها.

هناك طريقة أخرى لفهم هذا النظام عبر الإشارة إلى المعرفة الاجتماعية، وبشكل خاص أفكار بيار بورديو بأن الأدب هو قوة

مكـــونة مـــن مواقع متنافسة ضمن قواعد لعبة تخضع في المطلق لقوى اجتماعـــية مـــسيطرة. ولكن ليس علينا الانضمام إلى مدرسة بورديو الاجتماعـــية للاعتـــراف بعلاقـــة الأدب بالسلطة. وبالنظر عبر عيون اللاعبين، تبدو وقائع الحياة الأدبية منافية لمُثل عصر التنوير النبيلة. ورغم مبادئها، فإن جمهورية الرسائل، كما عملت فعلياً، كانت عالماً مغلقاً لا يمكـــن لغير المحظوظين إدراكه. ورغم ذلك، أودّ أن أنوِّه بعصر التنوير لانفتاحه بشكل عام وحرية الوصول إليه بشكل خاص.

وإذا انتقلـــنا من القرن الثامن عشر إلى يومنا هذا، فهل نكتشف تناقـــضاً بـــين المبادئ والممارسة هنا في عالم مكتبات الأبحاث؟ إحدى زمـــيلاتي هي سيدة صغيرة قليلة الكلام تذكّرني بأمينة المكتبات المثالية. وهـــي عـــندما تقابـــل أحداً في أي مناسبة وتعرِّف عن نفسها، يجيبها بعـــضهم بكياســـة مصطنعة "أمينة مكتبة؟ جميل جداً. كيف هي حياة أمينة المكتبة؟" فتجيبهم "إنها في الأساس مكونة من المال والسلطة".

ونعـــود إلى بيار بورديو. ومعظمنا يوافق على المبادئ المحفورة في أمـــاكن بـــارزة من المكتبات العامة. "الدخول حر للجميع"، كلمات ارتفعـــت فـــوق مدخل"مكتبة بوسطن العامة" الرئيسي، وكما تقول كلمات توماس جفرسون المحفورة بحروف ذهبية على جدار غرفة أمناء مكتـــبة نـــيويورك العامة: "إني أتطلع إلى انتشار النور والعلم كمصدر يُعـــتمد علـــيه في تحـــسين ظـــروف تقدُّم الفضيلة وتطوير رغد حياة الإنسان". وهكذا نعود إلى عصر التنوير.

لقـــد نـــشأت جمهوريتنا على الإيمان بالمبدأ المركزي لجمهورية الرســـائل في القـــرن الثامن عشر: نشر الإشعاع. وتبعاً لجفرسون فإن التنويـــر تم عبر الكتّاب والقراء، الكتب والمكتبات – وخاصة المكتبات في مونتيكلو في جامعة فيرجينيا ومكتبة الكونغرس. وهذا الإيمان مضمَّنٌ

في دستور الولايات المتحدة. والقسم الثامن من البند الأول ينص على حقوق النشر وبراءات الاختراعات "لمدة محددة"، شرط أن تؤدي إلى نشر "التقدم العلمي والفنون المفيدة". ولقد أقرّ الآباء المؤسسون حق المؤلفين بمردود عادل لجهودهم الأدبية على أن يضعوا المصلحة العامة قبل مصلحتهم الشخصية.

ولكن كيف يتم تقدير نسبة أهمية كل منهما؟ وكما كان واضعو الدستور يعلمون، فإن شريعة آن Anne قد ضمنت حقوق النشر في بريطانيا منذ العام 1710 للحدّ من ممارسات "شركة قرطاسييّ لندن" الاحتكارية تحت شعار "تشجيع التعلم" كما أشار عنوانها. ولقد أقرّ البرلمان صلاحية الحقوق لأربع عشرة سنة، قابلة للتجديد لمرة واحدة. ومن جهتهم فقد حاول القرطاسيون عبر سلسلة من الدعاوى القضائية الحفاظ على احتكارهم نشر الكتب وتجارتها بمناقشة حقهم بحقوق نشر دائمة. ولكنهم خسروا في الحكم النهائي في قضية دونالدسن ضد بكيت في العام 1774.

عندما اجتمع الأميركيون لوضع مسودة دستورهم بعد ثلاث عشرة سنة، فضلوا النظرية السائدة في بريطانيا في ذلك الوقت، حيث بدت ثمان وعشرون سنة كافية لحماية حقوق المؤلفين والناشرين. وأبعد من هذا الحد كان للمصلحة العامة أن تسود. وظهر قانون حقوق النشر الأول في العام 1790 وفيه دعوة إلى "تشجيع التعلم" إضافة إلى تبنّي المثال البريطاني في وضع حدّ لحقوق النشر يبلغ أربعة عشر عاماً قابلة للتجديد لمرة واحدة فقط.

ولكن، ما هي المدة التي تطبّق عليها حقوق النشر اليوم؟ بناءً لملحق قانون "سوني بونو" لحقوق النشر للعام 1998 (والذي يطلق عليه أيضاً "قانون حماية ميكي ماوس" لأنه كاد يتحول إلى ملكية عامة)،

فإنه يمتد طوال حياة المؤلف إضافة إلى سبعين سنة. وبالممارسة فإن هذا يعني أكثر من قرن. لذلك، فإن معظم الكتب التي نُشرت في القرن العشرين لم تتحول إلى ملكية عامة بعد. وعندما نبحث في الرقمنة، فإن الوصول إلى موروثنا الثقافي ينتهي بشكل عام في 1 كانون الثاني/يناير 1923، حيث تنطبق قوانين حماية الملكية الفكرية على أعداد كبيرة من الكتب التي صدرت بعد هذا التاريخ. وهي ستبقى كذلك، إلا في حال تولّت شركات خاصة رقمنتها وتجهيزها للمستهلكين بناءً لاتفاقيات قانونية، لتبيعها لتحقيق أرباح لأصحاب أسهمها. وكما هي حقيقة الأمور اليوم، فإن كتاب Babbitt للكاتب سنكلير لويس الذي نُشر في العام 1922 هو ملك عام اليوم، أما كتابه Elmer Gantry الذي نشره في العام 1927، فلن يتحول إلى ملكية عامة سوى في العام 2022(*).

(*) لقد تمّت إطالة مدة قانون حماية الملكية الصادر في العام 1998 بمفعول رجعي يبلغ عشرين سنة للكتب المحمية بعد 1 كانون الثاني/يناير 1923. وللأسف، فإن وضع الكتب التي نُشرت في القرن العشرين معقد بسبب تشريعات مدّدت حقوق النشر إحدى عشرة مرة خلال الخمسين عاماً الماضية. وكان على أصحاب الحقوق تجديد حقوق نشرهم إلى حين صدور قانون من الكونغرس في العام 1992 ألغى هذا القرار للكتب المنشورة بين العامين 1964 و1977، عندما، وبناءً على قانون حماية الملكية الفكرية للعام 1976، جعل حقوقهم تستمر طوال مدة حياة المؤلف إضافة إلى خمسين عاماً. ولقد مدّد قانون 1998 هذه الحماية إلى فترة حياة المؤلف إضافة إلى سبعين عاماً. لذلك، فإن جميع الكتب التي نُشرت بعد العام 1963 يشملها قانون حماية حقوق النشر، ولكن هناك أعداداً غير معروفة (بسبب عدم وجود معلومات كافية حول وفيات المؤلفين وأصحاب حقوق النشر) من الكتب التي نشرت بين العامين 1923 و1964 تخضع أيضاً للقانون نفسه. راجع:

Paul A. David and Jared Rubin, "Restricting Access to Books on the Internet: Some Unanticipated Effects of U.S. Copyright Legislation", Review of Economic Research on Copyright Issues, vol. 5, no. 1 (2008).

وللانتقال من مبادئ الآباء المؤسسين السامية إلى ممارسات الصناعات الثقافية اليوم يتوجب الخروج من دائرة عصر التنوير إلى فوضى رأسمالية الشركات. فإذا حوّلنا علم اجتماع المعرفة إلى الحاضر (كما فعل بورديو) فسنكتشف أننا نعيش في عالم صممه ميكي ماوس بكامل تفاصيله.

هل يجعل هذا النوع من استعراض الواقع مبادئ التنوير تبدو كالخيال التاريخي؟ دعونا نمعن النظر في التاريخ. فمع أفول عصر التنوير في مطلع القرن التاسع عشر، سطع نور عصر المهنية. ويمكننا تتبُّع العملية عبر مقارنة "الأنسيكلوبيديا" من ديدرو، التي نظّمت المعرفة في نظام عضوي كامل تحكمه القدرات العقلية، و"الأنسيكلوبيديا المنهجية" إرث القرن الثامن عشر، التي قسمت المعرفة إلى حقول نميّزها اليوم: الكيمياء، الفيزياء، التاريخ، الحساب، إلخ. وتحولت هذه الحقول في القرن التاسع عشر إلى مهن، تؤَهَّل عبر شهادات الدكتوراه وترعاها مؤسسات مهنية، وتحولت إلى كليات ضمن الجامعات، ومع حلول القرن العشرين تركت بصماتها الواضحة على الجامعات – الكيمياء في هذا المبنى، الفيزياء في ذلك، التاريخ هنا، الرياضيات هناك، وفي القلب توجد المكتبة، مصممة عادة لتبدو كمعبد للعلم.

خلال هذه المسيرة، انتشرت المجلات المختصة عبر الحقول المختلفة وفروعها وفروع فروعها، والتي أنتجتها المجتمعات الثقافية والعلمية، واشترتها المكتبات. ولقد نجح هذا النظام جيداً لحوالى مائة سنة. ثم اكتشف الناشرون أن باستطاعتهم جمع ثروات عبر بيع اشتراكات في هذه النشرات. وعندما كانت مكتبة إحدى الجامعات تشترك في إحدى المجلات، كان الطلاب والأساتذة يتوقعون استمرارية دائمة في تدفق الأعداد. أما الأسعار فكانت ترتفع تدريجاً

دون التسبب بإلغاء الاشتراكات، لأن المكتبات كانت تدفع لقاء الاشتراكات، أما الأساتذة فلا. ولكنهم كانوا يساهمون بالعمل المجاني أو شبهه عبر كتابة المقالات، وإحالة المراجع، والدعم في هيئات التحرير، وذلك لنشر المعرفة على طريقة عصر التنوير، وللتقدم في مهنهم بشكل خاص.

ولكن النتيجة كانت تنعكس سلباً على ميزانيات مكتبات الأبحاث المخصصة لاقتناء الإصدارات الجديدة: فالاشتراك في مجلة الجهاز العصبي المقارن لمدة سنة أصبح يكلّف 25,910 دولاراً، كذلك الاشتراك في مجلة Tetrahedron أصبح يكلّف 17,969 دولاراً (أو 39,739 دولاراً إذا صدرت معه ملاحقه)، ويبلغ السعر الوسطي لمجلة في الكيمياء 3,490 دولاراً، ولقد عطّلت تأثيرات هذه الارتدادات الحياة الفكرية في دنيا الثقافة والعلوم. وبسبب هذا الارتفاع المذهل في أسعار اشتراكات المجلات الأكاديمية، أصبحت المكتبات التي كانت تخصص 50% من ميزانياتها لشراء إصدارات الكتب الجديدة، تُخصص 25% أو أقل لذلك، علماً أنه ليس بمقدور دور النشر الجامعية والتي تعتمد في بيع إصداراتها على المكتبات، تغطية مصاريفها عبر نشر كتبها فقط. وبالتالي، أصبح الأكاديميون الذين يعتمدون على نشر أبحاثهم من أجل التقدم في مهنهم مهددين بالاضمحلال.

ومن حسن الحظ، فإن هذه الصورة المؤلمة لواقع عالم المعرفة هي في طريقها إلى الزوال. فلم يعد علماء الكيمياء والفيزياء والأحياء يعيشون في عوالم منفصلة وكذلك المؤرخون والأدباء وعلماء الأجناس البشرية. ولم تعد خارطة الجامعات متوافقة مع أنشطة المدرسين والطلاب. فهي قيد إعادة الهيكلة في كل مكان، حيث تتحول الفروع العلمية المختلفة إلى هيكليات في أماكن متعددة. ولكن تبقى المكتبة في

القلب دائماً تضخ تغذيتها المعرفية في أرجاء الجامعة، وغالباً إلى أبعد ما تصله الشبكة العنكبوتية عبر الشبكات الإلكترونية.

لقد تحولت جمهورية رسائل القرن الثامن عشر إلى جمهورية علمية محترفة، ولقد فتحت أبوابها للهواة، الهواة بكل ما في الكلمة من معنى، محبو التعلم من بين جمهور المواطنين العاديين. وأصبح الانفتاح شعار المرحلة بفضل مخازن "الولوج الحر" التي تضم مقالات مرقمنة متوفرة مجاناً، ورابطة المحتوى الحر، والمعرفة الحرة المشتركة، والمواد التعليمية الحرة، وأرشيف الإنترنت، إضافة إلى مواقع الهواة على الإنترنت مثل موسوعة ويكيبيديا. ويبدو أن ديموقراطية المعرفة أصبحت الآن ملك أيدينا، وصار باستطاعتنا تحويل أهداف التنوير إلى واقع حقيقي.

هنا، قد تعتقد أنني قد انحرفت من موقف النواح والتأسف إلى آخر مثالي وحماسي. باعتقادي أن هناك فرصة للاثنين للعمل متكاتفين معاً بطريقة جدلية لولا خطر الاستغلال التجاري. فعندما تعاين غوغل المكتبات، فإنها لا تراها كمعابد للمعرفة والعلم، بل رساميل كامنة تدعوها "محتوى" وتنتظر من يستغلها. وترى أن المجموعات التي تضمها المكتبات والتي تشكلت عبر القرون بأكلاف مالية ضخمة وجهود مضنية يمكن رقمنتها بأكلاف منخفضة نسبياً، وهي لا شك ستكون بملايين الدولارات، ولكنها تبقى منخفضة نسبة إلى الاستثمارات التي وظفت فيها.

لقد أُنشئت المكتبات لنشر الخير العام: "تشجيع المعرفة"، والعلم "حق مجاني للجميع". أما المصالح التجارية فقد وُجدت لجني الأرباح لمساهميها، وهو شيء غير سيئ، ذلك أن المصلحة العامة تعتمد على ازدهار الاقتصاد. ولكننا إذا تمادينا في استثمار محتوى مكتباتنا تجارياً فلا بد من مواجهة تناقضات أساسية. فعند رقمنة المجموعات وبيع محتواها

بطرق لا تضمن الانتشار الواسع جداً، نكرِّر الخطأ نفسه عندما استغل الناشـــرون سوق المجلات الأكاديمية، ولكن على مستوى أكبر وأشمل بكـــثير، حـــيث ستتحول الإنترنت إلى أداة حصرية للمعرفة التي هي أساســـاً ميدان عام. ولن تتمكن أي يد خفية من التدخل لتصحيح هذا الخلـــل بين المصالح الخاصة والعامة. وحدها الجماهير قادرة على ذلك، ولكـــن من يتكلم باسمها؟ بالتأكيد ليس المشرّعون الذين وضعوا قانون حماية ميكي ماوس.

من غير الممكن وضع تشريعات للتنوير، ولكن يمكن وضع قوانين للعـــبة تضمن الحق العام. فالمكتبات تمثل مصلحة المجتمع. وهي ليست مؤسسات تجارية، ولكن عليها تغطية مصاريفها. وأستشهد هنا بشعار قـــديم قالـــه كون أديسون عندما كان عليه الوصول إلى بنية نيويورك التحتية المهترئة لإصلاحها: "لا مفرّ من الحفر". والمكتبات تقول أيضاً: "لا مفـــرّ مـــن الرقمنة". ولكن ليس بموجب أي قواعد. يجب أن تتم الـــرقمنة لمـــا فـــيه المصلحة العامة، وهذا يعني أن تكون الجهة المرقمِنة مسؤولة أمام المواطنين.

مـــن السذاجة بمكان مقارنة الإنترنت بعصر التنوير. إذ إن قدرتها علـــى نشر المعرفة تذهب أبعد بكثير من أي تصور لجفرسون، ولكنها بيـــنما كانـــت قيد الإنشاء، جزءاً إثر آخر، لم تكن المصالح التجارية غافلـــة، فهي تريد الإمساك بزمام اللعبة، وبالسيطرة عليها، وامتلاكها. وهـــذه المـــصالح تتنافس في ما بينها بضراوة تقترب من حدود القتل. وصـــراع البقاء هذا سيؤدّي لا شك إلى احتكار القلّة المنتصرة، وبغض النظر عن الرابح، فالخاسر الأكبر سيكون المصلحة العامة.

ولكن لا تفهمونني خطأ. إني أعرف أن على المؤسسات التجارية مـــسؤوليات تجاه حاملي أسهمها. ولكن يحق للمؤلفين مكافأتهم على

إبـــداعهم، كمـــا أن الناشرين يستحقون الربح لقاء القيمة المضافة التي يقدمونها على أعمال المؤلفين. إني معجب بقوى الكمبيوتر السحرية من عتاد وبرامج ومحركات بحث ورقمنة وخوارزميات. ولكنني أقدِّر أهمية حقـــوق النشر رغم اعتقادي أن تشريعات الكونغرس في العام 1790 كانت أفضل من العام 1998.

ولكـــن لا يمكنـــنا الوقوف هامشياً مكتوفي الأيدي وكأنه يمكننا وضـــع الثقة بقوى السوق للعمل للمصلحة العامة. فعلينا أن نشارك، للانخـــراط في العمل لاستعادة الحق العام لميدانه. وعندما أقول "نحن"، أعني نحن المواطنين، نحن الذين أنشأنا الدستور والذين يجب علينا جعل مـــبادئ عـــصر التنوير واضحة كل يوم لمجتمع المعلومات. نعم، علينا الـــرقمنة. ولكن أهم من هذا علينا تكريس الديموقراطية، وعلينا تأمين ولـــوج حر إلى تراثنا الثقافي. كيف؟ عبر إعادة كتابة قواعد اللعبة عبر تحـــويل المصالح الشخصية إلى مصلحة عامة، وعبر استلهام الجمهورية الأولى لإنشاء جمهورية رقمية للتعلم.

ولكـــن ما الذي أثار هذه الأفكار المثالية؟ باحث كتب غوغل. فقـــبل أربع سنوات بدأت غوغل ترقمن الكتب من مكتبات الأبحاث لتوفير نصوص كاملة للبحث، ولجعل الكتب ذات الملكية العامة متوفرة مجاناً على الإنترنت، وعلى سبيل المصالح أصبح بإمكان أي شخص وفي أي مكـــان قراءة وتحميل نسخة من الطبعة الأولى من كتاب "أواسط آذار/مـــارس Middlemarch" الـــذي صدر في العام 1871 وهو من مقتنـــيات مكتـــبة بودليان في أُكسفورد. وهنا استفاد الجميع بما فيها غـــوغل التي حصلت على مدخول لقاء إعلانات خجولة متلازمة مع الخدمة. كذلك فقد رقمنت غوغل أعداداً كبيرة من مقتنيات المكتبات التي تحميها حقوق النشر لتأمين خدمات بحث تعرض نبذات قصيرة من

النصوص. وفي شهري أيلول/سبتمبر وتشرين الأول/أكتوبر 2005، تقدمت مجموعة من المؤلفين والناشرين بدعوى قضائية جماعية ضد غوغل تتهمها بخرق حقوق الملكية الشخصية. وفي 28 تشرين الأول/أكتوبر 2008 وبعد مفاوضات سرية طويلة، أعلن الفريقان اتفاقهما على تسوية تخضع لموافقة محكمة مقاطعة جنوب نيويورك(*).

تنص التسوية على إنشاء هيئة تدعى "سجل حقوق الكتب Book Rights Registry" لتمثيل أصحاب الحقوق، حيث توفر غوغل إمكانية الاطلاع على بنك معلومات عملاق يتكوّن أساساً من كتب محمية بقوانين النشر ولكنها نافدة من الأسواق تمَّتْ رقمنتها من مكتبات الأبحاث وذلك لقاء بدل مالي. وستتمكن الكليات والجامعات وسائر المؤسسات من الاشتراك بالدفع لقاء "رخصة مؤسسية" توفر الولوج إلى بنك المعلومات. وستوفر "رخصة الولوج العامة" الكتب للمكتبات العامة حيث تتيح غوغل الاطلاع المجاني على الكتب المرقمنة عبر جهاز كمبيوتر طرفي واحد. أما الأفراد فسيتمكنون من الوصول إلى نسخ مرقمنة من الكتب وطباعتها عبر شراء "رخصة المستهلك" من غوغل، والتي تتعاون مع "السجل" لتوزيع العائدات على أصحاب حقوق النشر، حيث ستحتفظ غوغل بنسبة 37 بالمئة منها بينما سيوزع "السجل" 63 بالمئة بين أصحاب الحقوق.

وستتابع غوغل توفير الكتب ذات الملكية العامة لمستخدمي الإنترنت للقراءة والتحميل والطباعة مجاناً. ومن بين السبعة ملايين كتاب التي قامت غوغل برقمنتها بحلول تشرين الثاني/نوفمبر 2008، فإن مليوناً منها هي ذات ملكية عامة، ومليوناً آخر تشمله حقوق

(*) يمكن مراجعة النص الكامل للاتفاقية على موقع الويب: www.googlebooksettlement.com/agreement.html.

النـــشر، بينما الخمسة ملايين كتاب الباقية تشملها حقوق النشر لكنها نافـــدة من الأسواق. والفئة الأخيرة هي التي ستوفّر معظم الكتب عبر "الرخصة المؤسسية".

إن الكتب التي تخضع لأحكام قوانين حقوق النشر لن تتوفر في بـــنك المعلومات إلا إذا اختار أصحاب الحقوق ذلك. وستبقى تباع بالطريقة التقليدية ككتب مطبوعة، وتسوَّق للأفراد كنسخ مرقمنة يـــتم تحميلها عبر "رخص المستهلك" لقراءتها، وربما مستقبلاً إتاحة تنـــزيلها على أجهزة قراءة الكتب الإلكترونية e-book مثل قارئ سوني Sony Reader.

بعـــد قراءة التسوية واستيعاب بنودها - وهو ليس بالأمر السهل حيث إنها تتكوّن من 134 صفحة و15 ملحقاً من النصوص القانونية - سيصاب القارئ بالدهشة: فبين أيدينا اقتراح ستنتج عنه أضخم مكتبة في العـــالم. ومـــن المـــؤكد أنهـــا ستكون مكتبة رقمية، ولكن مكتبة الكونغـــرس وجميع مكتبات أوروبا الوطنية ستبدو أقزاماً أمامها. إضافة إلى هـــذا، وبمـــتابعة لبنود التسوية مع المؤلفين والناشرين، فقد تتحول غـــوغل إلى أضـــخم منشأة للكتاب في العالم - وليست كسلسلة من المخازن، بل كخدمة إلكترونية قد تطغى على أمازون.

ولا شك أن مشروعاً بهذا الحجم مرشح لإثارة نوعين من ردات الفعـــل: الأولى حماســـة للتغيير والثانية شكوك حول أخطار حصرية السيطرة على الوصول إلى المعلومات.

مَـــن مـــنا لا يتأثر بإمكانية جعل جميع الكتب التي تضمها أعظم مكتبات الأبحاث الأميركية في متناول أيدي الأميركيين، وربما لاحقاً في متناول جميع سكان كوكب الأرض المتصلين بالإنترنت؟ ولكن تقنيات غوغل الساحرة لن تقدِّم الكتب فقط للقراء، بل ستفتح أيضاً إمكانيات

فائقـــة للأبحاث، مع سلسلة واسعة من الاحتمالات انطلاقاً من البحث المباشـــر بالكلمات ووصولاً إلى التنقيب النصي المعقد. وتحت ظروف محـــددة، ستتمكن المكتبات المشاركة عبر استخدام نسخ كتبها المرقمنة لاستحداث نسخ ورقية بديلة للنسخ المفقودة أو التالفة. كما أن غوغل ستخصص النصوص بشكل يمكّن المصابون بعاهات جسدية من قراءتها.

وللأسف، فإن التزام غوغل تأمين ولوج مجاني إلى قاعدة معلوماتها عبر كمبيوتر طرفي واحد في كل مكتبة عامة تحاصره الضوابط: فالقراء ممـــنوعون من طباعة أي نصوص تحميها قوانين حقوق النشر دون دفع رسوم لأصحاب الحقوق (رغم أن غوغل قد عرضت دفع هذه الرسوم عـــند إطـــلاق المـــشروع)، وأن جهازاً طرفياً واحداً لن يفي بحاجات المكتبات الكبيرة. ولكن كرم غوغل سيكون نعمة للمدن الصغيرة، مثل قـــراء مكتبة كارنغي الذين سيتمكنون من الوصول إلى كتب أكثر من تلـــك المحفـــوظة في مكتبة نيويورك العامة. فبإمكان غوغل تحويل حلم التنوير إلى حقيقة واقعة.

ولكن هل ستقوم بذلك؟ لقد رأى فلاسفة القرن الثامن عشر أن الاحـــتكار يشكل العقبة الأساسية أمام توزيع المعلومات – ولكن ليس الاحتكار بشكله العام، هو الذي قيّد التجارة بناءً للفيلسوف آدم سميث والفيزيوقـــراطيين، ولكن احتكارات محددة مثل شركة قرطاسيي لندن ونقابة بائعي الكتب في باريس، هي التي قيّدت حرية تجارة الكتب.

ولكن غوغل ليست نقابة، ولم يتم تأسيسها لإنشاء احتكار. بل على العكس، فقد اتبعت هدفاً محموداً: تشجيع الوصول إلى المعلومات. ولكـــن طبيعة تسوية الدعوى الجماعية ضدها يجعل غوغل عصيّة على المنافسة. وينضوي معظم الكتّاب والناشرين الأميركيين والذين يملكون حقوق نشر أميركية أوتوماتيكياً في كنف هذه التسوية. ورغم إمكانية

خـــروجهم من هذه التسوية، ومهما فعلوا، فلن تتمكن مؤسسة أخرى مـــن الانطـــلاق دون الحصول على موافقتهم فرداً فرداً، والتي هي من المـــستحيلات، دون التعـــرض إلى دعوى جماعية أخرى. وإذا حصلت علـــى موافقة المحكمة – وهي عملية قد تستغرق حتى سنتين – فستقدّم التـــسوية الحـــق لغوغل للتحكم في رقمنة كل الكتب الخاضعة لحقوق النشر في الولايات المتحدة تقريباً.

هـــذه النتيجة لم تكن متوقعة في البداية. وعبر النظر وراءً إلى نهج الـــرقمنة منذ التسعينيات، نرى أننا قد فوّتنا فرصاً عظيمة. فعبر مبادرة من الكونغرس ومكتبة الكونغرس أو تحالف واسع بين مكتبات الأبحاث تـــدعمها المؤســـسات كان يمكن إتمام العملية نفسها بأكلاف معقولة وبتـــصميم يـــضع المصلحة العامة أولاً. وعبر توزيع الأكلاف بطرق مخـــتلفة – تـــأجيرٌ بـــناءً إلى حجم استخدام قاعدة البيانات أو ترتيب اقتصادي عبر "المنحة الوطنية للإنسانيات" أو مكتبة الكونغرس – كان يمكنـــنا تأمين مدخول شرعي للمؤلفين والناشرين، بينما نحتفظ بمخزن مجـــاني أو شبه مجاني الولوج. كان يمكننا إنشاء مكتبة وطنية رقمية – مكتبة في القرن الحادي والعشرين مرادفة لمكتبة الإسكندرية. لقد فات الـــوقت الآن. لم يفتنا تقدير إمكانات الرقمنة وحسب بل الأسوأ أننا نـــدع مـــسألة خاصـــة بالمصلحة العامة – السيطرة على الوصول إلى المعلومات – تقررها دعوى قضائية خاصة.

وبيـــنما كانت السلطة العامة نائمة، أخذت غوغل المبادرة. ولم تسعَ لفضِّ مشاكلها في المحاكم، بل انطلقت في عملها، تمسح الكتب إلكتـــرونياً في المكتبات، وهي مسحتها بفعالية أثارت شهية الآخرين لمـــشاركتها الأربـــاح المنتظرة. ولا يمكن لأحد نكران حق المؤلفين والناشـــرين بمـــردود مالي لحقوقهم الشرعية، كما لا يمكن لأحد أن

يتجـــرأ ويقـــدم أحكامـــاً متـــسرعة على أطراف الدعوى القضائية المتـــنازعين. فقاضي محكمة المقاطعة سيقرر صلاحية التسوية، ولكن هذه المسألة هي في الأساس حول تقسيم الأرباح، وليس الحفاظ على الحقوق العامة.

وكنتـــيجة غير مقصودة، ستتمتع غوغل بما لا يمكن وصفه سوى بالاحـــتكار - احتكار من نوع جديد، ليس لسكة الحديد أو الفولاذ ولكن للوصول إلى المعلومات. وليس لغوغل أي منافسين جديين. فلقد أوقفت مايكروسوفت برنامجها الأساسي لرقمنة الكتب قبل عدة أشهر، أما المؤسسات الأخرى مثل Open Knowledge Commons (Open Content Alliance) وInternet Archive فهي صغيرة جداً وغير فعالة مقارنة بغوغل. وغوغل وحدها تملك المال الكافي للرقمنة على مستوى ضـــخم. وكـــونها وصـــلت إلى تسوية مع المؤلفين والناشرين، أصبح بإمكانهـــا استثمار قوتها المالية من داخل حاجز قانوني يحميها، حيث إن الدعـــوى الجماعـــية تشمل جميع المؤلفين والناشرين. وليس هناك من مستثمر قادر على رقمنة الكتب من داخل هذه المنطقة المحرّمة، حتى ولو تأمـــنت له القدرة المالية، لأنه سيضطر إلى خوض معارك حقوق النشر من جديد. وإذا حافظت المحكمة على التسوية، ستكون غوغل الوحيدة المحمية من المساءلة بخصوص حقوق النشر.

يفـــيد ســـجل غـــوغل أنهـــا لن تسيء استخدام سلطتها المالية والقانونية المزدوجة. ولكن ماذا سيحصل إذا باعها أصحابها وتقاعدوا؟ سيكتشف المواطنون عندها الجواب من الأسعار التي ستعتمدها غوغل المـــستقبلية، وخاصة أسعار "رخص الاشتراكات المؤسسية". وستترك التسوية الحرية لغوغل للتفاوض على اتفاقيات مع كل من زبائنها، رغم أنهـــا تعلـــن مـــبدأين أساسيين: (1) التحقق من أن المداخيل هي بناءً

لمعدلات السوق لكل كتاب ورخصته ولصالح أصحاب الحقوق؛ و(2) التحقق من وصول شعبي عريض إلى الكتب، بما فيها مؤسسات التعليم العالي.

ماذا سيحدث إذا فضّلت غوغل الربحية على الوصول؟ لا شيء إذا قرأت بنود التسوية بدقة. و"السجل" الممثل لأصحاب الحقوق هو المخوّل تغيير أسعار الاشتراكات التي تفرضها غوغل، وليس هناك من سبب يدعو لتوقّع أي اعتراض من "السجل" على الأسعار. وقد تختار غوغل أن تكون متهاودة في أسعارها، ولديّ أسبابي لتأمُّل ذلك، ولكنها قد تلجأ إلى استراتيجية مشابهة لتلك التي أثبتت فاعليتها في رفع أسعار المجلات الأكاديمية. في البداية يتم إغراء المشترك عبر أسعار منخفضة، وعندما يعلق يبدأ رفع الأسعار شيئاً فشيئاً.

قد يناقش بعض المدافعين عن الأسواق الحرة أن السوق سيصحح نفسه. وإذا رفعت غوغل من معدل أسعارها كثيراً فإن الزبائن سيلغون اشتراكاتهم، وعندها ستنهار الأسعار. ولكن ليس هناك من رابط بين العرض والطلب في آلية "الرخص المؤسسية" التي ابتدعتها التسوية. لن يدفع الطلاب والهيئة التعليمية ومسؤولو المكتبات العامة لقاء اشتراكاتهم. وستأتي الاشتراكات من المكتبات، وإذا أخفقت المكتبات في الحصول على الموارد المالية الكافية لتجديد اشتراكاتها، فقد تثير اعتراضات ضارية من القراء الذين اعتادوا على خدمة غوغل. واستجابة لإصرار المعترضين، ستلغي المكتبات خدمات أخرى بما فيها اقتناء إصدارات جديدة، تماماً كما فعلت عندما رفع ناشرو المجلات الأكاديمية أسعارهم.

لا أحد يستطيع توقُّع ماذا سيحدث. يمكننا فقط قراءة بنود التسوية وتخمين ماذا سيحصل في المستقبل. وإذا وفّرت غوغل خدماتها

التي تضم موجودات المكتبات الأميركية الرئيسية بأسعار متهاودة، فمن لـــن يـــصفّق لها؟ ألا نفضّل عالماً يتوفر لنا فيه الدخول إلى مجموعات الكتب المرقمنة الكاملة الضخمة ولو بأسعار مرتفعة مقابل عدم توفرها البتة؟

ربمـــا، ولكن التسوية تُحدث تغييراً أساسياً في العالم الرقمي عبر جمـــع الـــسلطة بين أيدي شركة واحدة. وإلى جانب ويكيبيديا، فإن غـــوغل تـــتحكم بآلـــيات الوصول إلى المعلومات عبر الشبكة لمعظم الأميركيين، في حال كانوا يبحثون عن أشخاص أو بضاعة أو أماكن أو أي شـــيء. وإلى جانب الموقع الأساسي "غوغل الكبير"، أصبح لدينا أرض غوغل، وخرائط غوغل، وصور غوغل، ومختبرات غوغل، وتمويل غـــوغل، وفـــنون غوغل، ومأكولات غوغل، ورياضة غوغل، وصحة غوغل، وتحقّق من غوغل، وتنبيهات غوغل، إضافة إلى المزيد من فروع غـــوغل الأخرى على الطريق. واليوم يعدنا باحث كتب غوغل بإنشاء أكبر منشأة كتب في التاريخ.

وبغـــض النظـــر إذا فهمت بنود التسوية جيداً، ولكن هذه البنود تـــبدو مترابطة بعضها ببعض بشكل لا يمكن فصلها عن بعضها. كما يـــبدو في هـــذه المرحلة أن لا غوغل أو المؤلفين أو الناشرين أو محكمة المقاطعـــة على استعداد لإجراء أي تغيير حاسم في التسوية. ولكننا نمر بمـــرحلة حاسمـــة في تطور مجتمع المعلومات، وإذا اختلّ الميزان في هذه المـــرحلة فقد تتفوق المصالح الشخصية على المصلحة العامة في المستقبل المنظور، وعندها سيعود حلم التنوير بعيد المنال كما كان دائماً.

الفصل الثاني

واقع المعلومات

باتـــت المعلومات تُنتَج وتوزَّع بوقع عنيف حولنا، كما أن تقنية المعلومات تتغير بسرعة مذهلة، مما يجعلنا نواجه مشكلة أساسية: كيف نتكـــيّف مع الواقع الجديد؟ ما هو مصير مكتبات الأبحاث في مواجهة التقنـــيات المدهشة مثل غوغل؟ كيف يمكننا إدراك مكنونها؟ الواقع أنه لـــيس لديّ إجابة لهذه المشكلة، ولكن يمكنني تقديم مدخل لها: فلننظر إلى تـــاريخ نـــشر المعلومات. إذا قمنا بتبسيط جذري للأمور، يمكننا استنتاج أربع مراحل أساسية منذ أن تعلمت البشرية أن تتكلم.

حـــوالى العـــام 4000 ق.م. تعلّـــم الإنـــسان الكـــتابة. وتعود المخطوطات الهيروغليفية إلى حوالى 3200 سنة ق.م، أما الأبجدية فإلى 1000 ســـنة ق.م، وبناءً للأكاديمي جاك غوودي، فإن اختراع الكتابة كان أهم إنجاز تقني في تاريخ الإنسانية. فهو قد غيّر علاقة البشرية مع الماضي وفتح الباب واسعاً أمام ظهور الكتاب كقوة تاريخية.

ولقـــد قادنا تاريخ الكتاب إلى تحول تقني ثانٍ عندما حلَّ الكتاب مكـــان اللفائـــف بعد نشوء المسيحية بقليل. ومع حلول القرن الثالث ب.م. تحوّل الكتاب إلى أداة حاسمة في نشر المسيحية. لقد غيّر الكتاب من مفهوم القراءة: حيث ظهرت صفحاته كمادة قابلة للفهم، وأصبح باســـتطاعة القـــراء تقليب صفحات تضم نصوصاً مترابطة وكلمات

منفـــصلة (بعد إضافة مسافات بين الكلمات)، وفقرات وفصول، إلى جانب جداول محتويات وفهارس تعين عملية القراءة وتسهّلها.

وبدوره، فإن الكتاب قد تغيّر أيضاً مع اختراع الطباعة باستخدام الحـــروف المتحركة في خمسينيات القرن الخامس عشر. وللتاريخ، فإن الحروف المتحركة اخترعها الصينيون في العام 1045، كما أن الكوريين استخدموا الحروف المعدنية بدل الخشبية في العام 1230. ولكن اختراع غيتنـــبرغ - وعكـــس اختراعات الشرق الأقصى - انتشر كالنار في الهـــشيم، واضعاً الكتاب بين أيدي مجموعات أكبر من القراء. و لم تتغير تقنـــيات الطباعة هذه لحوالى أربعة قرون، رغم أن جمهور القراء تعاظم بـــشكل كبير، نظراً إلى حدوث تحولات في مستويات الأميّة والتعليم والوصـــول إلى الكلمـــة المطبوعة. ولقد ساهمت الكتيبات والصحف المطبوعة على آلات طباعة تعمل على البخار وتطبع على ورق مصنوع مـــن عجيـــنة الورق بدل الخيش، في نشر الديموقراطية بشكل نتج عنه جمهور عريض خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

أمـــا التغـــيير الكبير الرابع، فكان الاتصالات الإلكترونية والتي نشأت أمس أو قبله بناءً للطريقة التي نراها. وتعود الإنترنت إلى العام 1974، علـــى الأقـــل كمصطلح. فهي تطورت من "أربانت"، التي نشأت في العام 1969 نتيجة اختبارات قديمة في الاتصال بين شبكات الكمبيوتر. ولقد تشكلت الويب كوسيلة للتواصل بين الفيزيائيين في العام 1991. ثم انتشرت مواقع الإنترنت ومحركات البحث في أواسط التـــسعينيات. وانطلاقـــاً مـــن هذه النقطة يعرف الجميع الأسماء التي جعلـــت مـــن الاتـــصالات الإلكتـــرونية تجربة يومية عامة: غوفر، موزايـــيك، نتسكايب، إنترنت إكسبلورر، وغوغل التي تأسست في العام 1998.

وعـــندما نكـــتّف الإنجازات التقنية بهذا الشكل نكتشف كم هو مذهل التسارع الذي راكمها: من الكتابة إلى الكتاب، 4300 سنة، من الكـــتاب إلى الحروف المتحركة 1150 سنة، من الحروف المتحركة إلى الإنتـــرنت 524 سنة، من الإنترنت إلى محركات البحث 17 سنة، من محـــركات البحث إلى غوغل 7 سنوات، ومَن يدري ماذا ينتظرنا أو في طريقه إلينا؟

لقد غيّر كل تحول تقني بحدّ ذاته من طبيعة واقع المعلومات، ولقد تـــسارعت وتيرة التحولات لتبدو وكأنها غير قابلة للتوقف والإدراك. وعلـــى المدى الطويل فإن الصورة العامة تبدو شبه واضحة أو مشوشة. ولكـــن عـــبر مقاربـــة الحقائق بهذه الطريقة، تمكنتُ من الوصول إلى استنتاج مثير إلى حدٍّ كبير. فالمؤرخون، الأميركيون والفرنسيون منهم، يلجـــأون كثيراً إلى خدع كهذه. فعبر إعادة ترتيب الوقائع من الممكن الوصـــول إلى صـــور مخـــتلفة، صور تؤكد الاستمرارية بدل التغيير. والاستمرارية التي في ذهني تتعلق بطبيعة المعلومات، وبتعبير آخر، عدم الاســـتقرار المتأصـــل في النـــصوص. وعوضاً عن النظرة البعيدة المدى للـــتحولات التقنـــية، والـــتي هي أساس المفهوم العام أننا دخلنا عصراً جديـــداً، عصر المعلومات، أريد أن أدافع عن نظرية أن كل عصر كان عـــصر معلومات، كل بطريقته الخاصة، وهذه المعلومات كانت دائماً غير مستقرة.

دعـــونا نـــبدأ بالإنترنت ونعود تدريجاً بالزمن. فلقد نشأت ملايين المـــدونات (blogs) خلال السنوات القليلة الماضية، مما أتاح انتشار مخزون كثيف من المعلومات المغلوطة والتي يبدو بعضها كالأساطير. ولكنني أعتقد أن القـــصة التالية حقيقية، رغم أنني غير قادر على تأكيد دقتها، ذلك أنني اخترعها شخصياً من الإنترنت. فقد نشرت مجلة البصلة The Onion

النقدية دعابة عن مهندس معمار أنشأ عمارة حديثة في واشنطن لها قبة متحـــركة. ففي الأيام المشمسة يمكن عبر ضغط زر فتح القبة المتحركة لتـــبدو كملعـــب رياضـــي. أمـــا في الأيام الممطرة فإنها تبدو كقبة الكونغـــرس. هـــذا الخبر الدعابة انتقل من موقع ويب إلى آخر إلى أن وصـــل إلى الصين، حيث نُشر في صحيفة بيجينغ المسائية. لتلتقطه منها صـــحيفة لوس أنجلوس تايمز، وسان فرانسيسكو كرونيكل، ورويترز، وCNN، وWired.com، إضـــافة إلى مـــدونات لا تحصى كقصة عن نظـــرة المجتمع الصيني إلى الولايات المتحدة: إنهم يعتقدون أننا نعيش في أبنـــية ذات ســـقوف متحركة، تماماً كما نقود سيارات ذات سقوف متحركة.

وهـــناك قصصٌ عديدة أخرى حول المدونات تشير إلى الاستنتاج عيـــنه: فالمدونات تختلق أخباراً، ويمكن للأخبار أن تتخذ شكل حقائق نصّية تتفوق على الحقائق التي أمام أعيننا. واليوم يقضي العديد من أهل الـــصحافة معظـــم أوقـــاتهم يتتبعون المدونات بدل العودة إلى المصادر التقلـــيدية كالناطقين الرسميين للمسؤولين. لقد أفلتت الأخبار في عصر المعلومات من عقالها التقليدي، مفسحة المجال واسعاً للمعلومات الخاطئة على مستوى عالمي. إننا نعيش في عصر لا مثيل لإمكانيات التواصل فيه مع معلومات تتفاقم عدم مصداقيتها باضطراد.

يمكـــنني النقاش أن الأخبار كانت دائماً من صنع الإنسان وأنها لم تـــتطابق يوماً مع وقائع الأحداث تماماً. فنحن نعتبر الصفحة الأولى في الـــصحيفة كمرآة لأحداث الأمس، ولكن تمَّ تحضيرها مساء الأمس – وفعلـــياً على أيدي محررين "تحميليين" يصممون الصفحة الأولى(*) بناءً لنظريات كيفية: المقال الرئيسي في العمود الأيمن دائماً، المقالات الثانوية

(*) في الولايات المتحدة (المترجم).

إلى اليسار، الأخبار الخفيفة في الداخل أو اسفل طيّة الصحيفة، أما التحقيقات فتخضع لعناوين ذات طابع خاص. ويقود التصميم التيبوغرافي القارئ ويشكّل معنى الأخبار. فالأخبار تأخذ شكل قصص يسردها مهنيون بناءً لقواعد اتبعوها خلال تدريبهم - تقنية عرض "الهرم المقلوب"، والدليل "اللوني"، ورموز مرجعية المصادر "المهمة" و"الأكثر أهمية"، وهكذا. إن الأخبار لا تفيد بما حدث، ولكنها قصص عن ماذا حدث.

والواقع، أن الكثير من المراسلين يجهدون في دقتهم، ولكن عليهم في النهاية الانصياع إلى قوانين المهنة، وهناك دائماً تفاوت بين اختيارهم للكلمات وطبيعة الحدث كما عايشه أو فهمه الآخرون. اسأل أي شخص عمل على إعداد تقرير عن حدث ما. سيقول إنه لم يلحظ نفسه أو الحدث في القصة التي ظهرت في الصحيفة. لقد اعتاد القراء المطلعون في الاتحاد السوفياتي السابق الارتياب في كل ما يظهر في صحيفة پرافدا، وحتى إن احتجابها كان يفسّر كحدث خفي يجري. وفي العام 1980 عندما وقّع ليخ ڤاليسا الاتفاقية مع الحكومة البولندية التي أنشأت "التضامن" كاتحاد نقابي مستقل، رفض الشعب البولندي تصديق هذا الحدث، ليس لأن الأخبار لم تصلهم، ولكن لأنها أُذيعت عبر التلفاز الحكومي الرسمي.

لقد عملتُ شخصياً كمراسل صحفي، حيث حصلتُ على تدريبي الأساسي في العام 1959 كفتى في الكلية يغطي أخبار مراكز الشرطة في منطقة نيوآرك. ورغم أني عملت في صحيفة المدرسة ولكني لم أكن أعلم ما هي الأخبار - بما معناه، ما هي الأحداث التي تصنع قصة وما هو الأسلوب الكتابي الذي يدفع بها إلى المطبعة دون التعرض إلى تشطيبات وتحرير المحرر الليلي. وعندما كانت أخبار

الأحداث تصل إلى مركز الشرطة الرئيسي، كانت تأخذ شكل "تقارير المخبرين" أو ملاحظات سنترال الهاتف عن الاتصالات الواردة. وكانت "تقارير المخبرين" تشمل كل شيء، من الكلاب الشاردة إلى الجرائم، وكانت تتراكم بمعدل دزينة كل نصف ساعة. وكانت وظيفتي جمعها من الملازم المداوم في الدور الثاني، والبحث فيها عن أي شيء قد يشكل خبراً، ثم الإعلان عن هذا الخبر للمراسلين المحترفين وهم دزينة من الصحفيين الذين يلعبون البوكر في غرفة الصحافة في الدور الأرضي. ولقد شكلت لعبة البوكر مصفاة للأخبار. فأحد المراسلين سيقرر إذا كان الخبر مناسباً للبحث فيه بعمق أكبر. وكنت أقوم بالبحث عادة عبر الهاتف مع مكاتب مرجعية مثل فصيلة الجرائم. وإذا كانت المعلومات مناسبة، سأخبر غرفة البوكر، وعندها يقوم أعضاؤها بإعلام مكاتب التحرير في صحفهم. ولكن كان يجب أن تكون الأخبار جيدة حقاً - أي ما يعتبره الناس خبراً سيئاً - لضمان مقاطعة لعبة البوكر التي لا تنتهي. كان القمار هو نقطة اهتمام الجميع - الجميع إلا أنا: إذ إنني لم أكن أملك المال، إضافة أنه كان عليَّ تطوير قدراتي الصحفية.

خلال مدة قصيرة تعلمتُ أن أهمل الأحداث التي تقول: وصل جثة هامدة، وتعني موتاً طبيعياً؛ وعمليات السطو على محطات الوقود؛ ولكنني استنزفت وقتاً أطول لمعرفة ما هو الخبر "الجيد"، مثل عملية سطو على مخزن محترم أو عطل كبير في محطة ضخ ماء. وفي أحد الأيام اكتشفت "تقرير مخبر" ممتاز - جَمَعَ الاغتصاب والجريمة - لذلك ذهبتُ مباشرة إلى فصيلة الجرائم بدل إبلاغ غرفة البوكر. وعندما أريته للضابط المناوب، نظر إليَّ باحتقار قائلاً: "ألا ترى هذه أيها الشاب" وهو يشير إلى حرف "B" إلى جانب اسميّ الضحية والمشتبه به. فتذكرت أن كل اسم يرد في "تقرير المخبر" يوجد بقربه أحد الحرفين "B" إشارة

إلى أسـود أو "W" إشارة إلى أبيض. عندها فقط اكتشفت أن الجرائم التي تتعلق بأشخاص ذوي بشرة سوداء لا تستحق تضمينها في الأخبار.

بعد أن تعلمت كتابة الأخبار، تعلمت أن لا أثق بالصحافة كمصدر للمعلومات، وغالباً ما يفاجئني المؤرخون باعتمادها كمصدر أساسي لمعرفة ماذا جرى. إني أعتقد أن الصحف يجب أن تُقرأ لمعرفة كيف يؤوّل المعاصرون الأحداث، بدل اعتمادها لمعرفة موثوقة للأحداث نفسها. وتقدِّم دراسة للأحداث خلال "الثورة الأميركية" أعدّها أحد طلابي، ويل سلاوتر، نموذجاً. فقد تابع سلاوتر أخبار هزيمة واشنطن في معركة براندیواین كما عكستها الصحافة الأميركية والأوروبية. ففي القرن الثامن عشر، اتخذت الأخبار شكل فقرات منفصلة مقابل "القصص" كما نعرفها اليوم، وكانت الصحف تنقل هذه الأخبار عن بعضها مضيفة إليها مواد جديدة تلتقطها من ثرثرات المقاهي أو من قباطنة السفن العائدين من السفر. وكانت صحيفة نيويوركية موالية الأولى في نشر أخبار معركة براندیواین عبر رسالة وردت من (جورج) واشنطن يفيد فيها الكونغرس بأنه أُجبر على التراجع أمام القوات البريطانية بقيادة الجنرال ويليام هوي. ولقد انتقلت نسخة من الصحيفة بالباخرة من نيويورك إلى هليفاكس فغلاسكو فإلى أدنبره حيث أُعيد نشر الفقرة والرسالة في صحيفة محلية.

أُعيدت طباعة خبر صحيفة أدنبره في صحف لندنية مختلفة، لتتناوله تغييرات مختلفة كل مرة. هذه التغييرات كانت مهمة بشكل ملفت، لأن المضاربين في البورصة كانوا يراهنون بمبالغ ضخمة على مجريات الحرب الأهلية الأميركية، بينما كانت الحكومة على وشك تقديم الميزانية إلى البرلمان، حيث كانت المعارضة الموالية لأميركا تهدد بإسقاط الوزير المسؤول. وعلى بعد ثلاثة آلاف ميل وأربعة إلى ستة

أسابيع من السفر بالباخرة، كانت أخبار أميركا حاسمة لحل هذه الأزمة السياسية والاقتصادية.

مـــا الـــذي كان قد حدث فعلاً؟ لقد تعلّم اللندنيون ألاّ يضعوا ثقـــتهم بصحفهم التي كانت تشوِّه الأخبار باستمرار عبر نقل الفقرات عـــن بعـــضها البعض. ولأن الفقرة الأساسية أتت من صحيفة أميركية موالية، وضعها هذا موضع الريبة في عيون القراء. ولقد أضافت رحلتها في ريـــتهم، إذ لماذا يعلن واشنطن هزيمته، بينما لم يعلن هوي انتصاره بعـــد في بلاغ يرسل من فيلادلفيا قرب ميدان المعركة؟ إضافة إلى هذا، فقد أفاد بعض المراسلين أن الجنرال لافايت قد جُرح في المعركة، وهذا يشكل استحالة للقراء البريطانيين الذين اعتقدوا (خاطئين بسبب أخبار ســـابقة غير دقيقة) بأن لافايت كان بعيداً عن براندیواین يحارب ضد الجنرال جون بيرغوين قرب كندا.

وفي نهاية المطاف فقد كشفت قراءة دقيقة لرسالة واشنطن شذوذاً في أســـلوب الكتابة التي قد ينصّها جنرال. كذلك بدت أخطاء إملائية في الرســـالة، والتي تبيّن لاحقاً أنها أخطاء مطبعية. مما جعل العديد من اللندنـــيين يـــستنتجون أن التقرير كان مزوراً ومصمماً لخدمة مصالح المضاربين وسياسيي حزب العمال. ولقد ادّعت بعض الصحف اللندنية أن الهزيمة الصغيرة كانت كارثة أساسية للأميركيين انتهت بإبادة جيش الثوار ومقتل واشنطن شخصياً. (وفي الواقع فإنه أُعلن ميتاً أربع مرات خلال الحرب، كما أن الصحافة اللندنية أعلنت موت بنديكت أرنولد 26 مرة).

ولقد نشرت صحيفة فرنسية Le Courrier de l'Europe والتي تـــصدر في لندن، أخباراً مترجمة عن التقارير البريطانية مع ملاحظة تُنبِّه إلى أنهـــا قـــد تكون كاذبة. وهذه الرواية عن الحدث عبرت دزينة من

الصحف الفرنسية التي تصدر في البلاد المنخفضة وبلاد الراين وسويسرا وفرنسا نفسها. ومع وصولها إلى فرساي، كانت أخبار هزيمة واشنطن قد أصبحت موضع شك. لذلك واصلت وزارة الخارجية الفرنسية تفضيل التدخل العسكري إلى جانب الأميركيين. أما في لندن، وعندما وصل تقرير هوي عن انتصاره بعد تأخير طويل، حجبته أخبار هزيمة بيرغوين في سراتوغا. وهكذا تحولت الهزيمة في براندیواين إلى قضية أخبار كُتبت خطأً وقرئت خطأً، تماماً مثل المدونات حول قبة البناء المتحركة وتصفية تقارير الجريمة في مركز شرطة نيوآرك.

لم تكن المعلومات يوماً ثابتة. قد تكون هذه حقيقة بديهية، ولكنها تتحمل التأمل فيها. وقد تُصلح كتصويب للاعتقاد أن تسارع التغيرات التقنية قد وضعنا في عصر جديد، انطلقت فيه المعلومات من عقالها تماماً. وقد أناقش أن تقنية المعلومات الجديدة يجب أن تجعلنا نعيد طرح فكرة المعلومات نفسها. ويجب أن لا تُفهم وكأنها اتخذت شكل حقائق ثابتة جاهزة لتقتلع من الصحف والأرشيف والمكتبات، بل كرسائل دائمة التحول أثناء الإرسال. وبدلاً من الوثائق الثابتة بقوة، علينا التعامل مع نصوص متعددة ومتغيرة. وعبر مطالعتها بعين الشك على شاشات كمبيوتراتنا، يمكننا معرفة طريقة قراءة صحيفتنا اليومية بشكل أكثر فعالية – وحتى كيف نقدِّر إصدارات الكتب القديمة.

لقد برزت البليوغرافيا قبل الإنترنت بمدة طويلة. فقد طورها السير ولتر غريغ في نهاية القرن التاسع عشر، وأنجزها دونالد ماكنزي في نهاية القرن العشرين. ويجيب عملهم على أسئلة يطرحها المدوّنون و"المغوغلون" ومدمنو الويب: لماذا نحفظ أكثر من نسخة واحدة من الكتب؟ لماذا صرف مبالغ كبيرة لشراء الطبعات الأولى؟ أليست مجموعات الكتب النادرة محكومة بالزوال بعد أن يصبح كل شيء

موجوداً على الإنترنت؟ فالمعارضون كانوا يرفضون مثابرة هنري كلاي فولغر على جمع نُسخ طبعات شكسبير الأولى كمهووس أصابته الحمى. وكانت الطبعة الأولى قد صدرت في العام 1623، سبع سنوات بعد وفاة شكسبير، وضمّت مجموعات مسرحياته الأولى، ولقد افترض معظم هواة الجمع أن نسخة واحدة منها تكفي لأي مكتبة أبحاث. ولكن عندما تجاوزت مجموعة فولغر الدزينات الثلاث، سخر منه أصدقاؤه ونعتوه بلقب "فولغر أبو الأربعين كتاب". ومنذ ذلك الوقت أقدم الببليوغرافيون على التنقيب في هذه المجموعة بحثاً عن معلومات حاسمة، ليس لتحرير المسرحيات وحسب، بل لتأديتها.

وهكذا تمَّ إثبات أن 18 من أصل 36 مسرحية في الطبعة الأولى لم تتم طباعتها من قبل بتاتاً. أربع منها كانت معروفة سابقاً من نُسخ خاطئة تدعى كراريس "سيئة" - كتيبات لمسرحيات مستقلة طبعت خلال حياة شكسبير على أيدي ناشرين عديمي المبادئ باستخدام نسخ فاسدة. فقد طُبعت اثنتا عشرة نسخة معدلة منها من كراريس شبه جيدة، وأُعيدت طباعة نسختين فقط دون أي تغييرات من كراريس سابقة. وبما أنه لم تنجُ أي من مسودات شكسبير، فقد تكون الاختلافات بين هذه النصوص حاسمة في تحديد ما كتب. ولكن لا يمكن مقارنة طبعة أولى مع كراس، لأن كل نسخة هي مختلفة عن الأخرى. وأثناء الطباعة لدى ورشة إيزاك جاغارد الطباعية بين العامين 1622 و1623، مرَّ الكتاب عبر ثلاث مشاكل مختلفة. فبعض النسخ كانت تنقصها إحدى المسرحيات والبعض كانت تنقصه المقدمات، والبعض الآخر كرواية روميو وجولييت كانت تنقصه الخاتمة.

هذه المشاكل الفنية تمَّ حلّها عبر مئة توقف أثناء الطباعة للتصحيح على الأقل وعلى أيدي تسعة منضدين محدودي الخبرات على الأقل

منهمكين في الوقت نفسه في العمل على كتب أخرى - والذين كانوا يعهدون إلى فتيان متدربين العمل على شكسبير في بعض الأحيان. وعبر مناقشة الاختلافات الواقعة في النصوص، تمكن الببليوغرافيون مثل شارلتون هينمان وبيتر لايني من إعادة تركيب آلية الإنتاج ليصلوا إلى نتائج مقنعة عن أهم الأعمال باللغة الإنكليزية. وهذا الجهد الثقافي الهام لم يكن بالإمكان إنجازه دون مساعدة كتب السيد فولغر.

لا شك أن شكسبير هو حالة خاصة، ولكن النصوص لم تكن يوماً راسخة في عصر ما قبل الإنترنت. ولقد احتوت النسخة الأكثر انتشاراً من إصدار ديدرو "الأنسيكلوبيديا" في القرن الثامن عشر مئات الصفحات التي لم تكن موجودة في الطبعة الأصلية. فمحررها وهو رجل دين أراد إضافة نصوص مقتطفة من عظة الأسقف لينال رضاه. ولقد اعتبر ڤولتير أن "الأنسيكلوبيديا" سيئة إلى درجة جعلته يصمم عمله الأخير "أسئلة حول الأنسيكلوبيديا" كمؤلَّف من تسعة مجلدات تعليقاً عليها. وفي سبيل التنويع في نصوصه وتعزيز توزيعها، قرّر التعاون مع قراصنة دون علم ناشره عبر إضافة مقاطع إلى النسخ المقرصنة.

وفي الواقع، فإن ڤولتير قد عبث بنصوص مؤلفاته إلى درجة جعلت بائعي الكتب يشتكون منه. إذ إنهم ما كادوا يبيعون نسخة حتى كانت تظهر أخرى أحدث تضم إضافات وتصحيحات من المؤلف، مما جعل زبائنهم يشتكون. حتى إن بعضهم قال إنه لن يبتاع نسخة من أعمال ڤولتير الكاملة - حيث كان هناك الكثير منها، وكل منها مختلفة عن الأخرى - إلى أن وافته المنية، والذي كان حدثاً انتظره بائعو الكتب بلهفة.

كانت القرصنة متفشية بشكل كبير في أوروبا الحديثة إلى حدٍّ أن إصدارات الكتب ذات العناوين الخارقة لم تكن هي الأكثر مبيعاً. فبدل

أن يـــصدر كتاب بأعداد كبيرة من النسخ عبر ناشر واحد، كان يُطبع بالتـــزامن بكميات قليلة عبر عدة ناشرين يحاول كل منهم الحصول على أكـــبر حصة من سوق لا تحكمه قوانين حقوق النشر. ولقد حاول بعض القراصنة إصدار نسخ دقيقة من الطبعة الأصلية، فأوجزوها أو وسّعوها أو أعـــادوا تنـــسيق نصوصها دون مراعاة الأسباب التي دعت المؤلف إلى ترتيبها بشكلها الأساسي، فتصرفوا مثل التفكيكيين قبل صدور الكتاب.

يقـــودنا موضـــوع رسوخ النصوص إلى السؤال العام حول دور مكتـــبات الأبحاث في عصر الإنترنت، ولا يمكنني الادعاء بمقدرتي على إعطـــاء إجابات سهلة، ولكنني أودّ إعادة ترتيب السؤال حسب أهمية عناصـــره عبر بحث وجهيّ نظر حول المكتبة، واللتين يمكنني وصفهما كأوهام كبيرة - كبيرة وصحيحة جزئياً.

كـــان طلاب الخمسينيات من القرن الماضي ينظرون إلى المكتبات وكأنهـــا حـــصون للعلم. فالمعرفة كانت تأتي مجلدة بين دفتي كتاب، كانـــت المكتـــبة العظيمة تضمها كلها. وعند ارتقائك درجات مكتبة نيويورك العامة عبر تماثيل الأسود الحجرية التي تحرس مدخلها إلى قاعة القراءة التذكارية في الطابق الثالث، كنت تدخل عالماً يحتوي على كل شـــيء. كانـــت المعـــرفة تأتي مبوبة عبر فئات محددة يمكن تتبُّعها عبر بطاقـــات تقـــودك إلى داخل صفحات الكتب. وفي الجامعات في كل مكان كان مبنى المكتبة في قلب الحرم الجامعي. كان المبنى الأهم، معبداً للعلم يرتفع على أعمدة كلاسيكية، حيث يقرأ الإنسان بصمت: دون ضجة ودون طعام ودون إزعاج، خلا إمكانية نظرة مختلسة باتجاه موعد محتمل وأنا أنحني على كتاب في تأمل فكري.

لا يزال طلاب اليوم يحترمون مكتباتهم، ولكن قاعات المطالعة في بعض الجامعات تبدو شبه فارغة. ولجذب المزيد من الرواد إلى مكتباتهم

ابتدع بعض الأمناء والأمينات وسائل مغرية كالمقاعد الوثيرة للاستراحة والمحادثة، وحتى العصائر والوجبات الخفيفة، ولا بأس ببعض الفتات على أرض المكتبة. وإذ يقوم طلاب هذا العصر بمعظم أبحاثهم عبر الكمبيوتر من داخل غرفهم، فإنهم يعرفون بأنه من المستحيل على المكتبات أن تضمها جميعاً ضمن جدرانها، لأن المعلومات لا تنتهي، وهي تفيض في كل مكان على الإنترنت، وللوصول إليها نحتاج إلى محرك بحث وليس إلى بطاقات بحث. ولكن هذا قد يكون وهماً أيضاً - ولمعالجة الموضوع بإيجابية، هناك ما يقال عن الرؤيتين: المكتبة كحصن والإنترنت كفضاء مفتوح. وهكذا نصل إلى المشاكل التي يثيرها باحث كتب غوغل.

في العام 2006 وقّعت غوغل اتفاقيات مع خمس مكتبات بحث كبيرة - نيويورك العامة، هارڤارد، ميشيغان، ستانفورد، وبودليان في أُكسفورد - لرقمنة كتبها. ولكن الكتب التي تخضع لحقوق النشر شكّلت معضلة، ولقد تمَّ تسويتها عبر دعوى قضائية من الناشرين والمؤلفين. وبالانتقال إلى موضوع آخر، فقد بدا اقتراح غوغل وكأنه يقدّم وسيلة لتوفير جميع الكتب لكل الناس، أو على الأقل إلى هؤلاء المحظوظين الذين بمقدرهم الوصول إلى شبكة الويب. ولقد وعدت بأن تكون المنصة المطلقة لدمقرطة المعلومات التي أطلقها اختراع الكتابة والكتاب والحروف المتحركة والإنترنت.

أتحدث الآن كأحد المتحمسين لغوغل، رغم أنني قلق من نزعتها الاحتكارية. إني على قناعة أن باحث كتب غوغل سيتيح التعلم عبر الكتب على مستوى عالمي رغم الهوة الرقمية الضخمة التي تفصل الأغنياء عن الفقراء، وهي ستشجع إمكانات البحث في كميات هائلة من المعلومات، والتي من المستحيل التمكن منها دون رقمنتها.

وكنموذج لما يخبئه المستقبل، أشير إلى "التنوير الإلكتروني"، وهو مشروع ترعاه مؤسسة فولتير في أُكسفورد. فعبر رقمنة مراسلات فولتير وروسّو وفرانكلين وجفرسون - حوالى 200 مجلد رائع بطبعة أكاديمية — ما سيمكّن فعلياً من إعادة تكوين جمهورية رسائل القرن الثامن عشر عبر الأطلسي. كما ستُدمج مع هذه المراسلات رسائل لفلاسفة عديدين آخرين من لوك وبايل إلى بنتهام وبرناردين دوسان بيار في قاعدة المعلومات، ليتمكن الأكاديميون من تقصّي مراجع الأعلام، والإصدارات، والأفكار عبر شبكة المراسلات التي تدعم التنوير. ولقد أظهرت العديد من المشاريع المماثلة - وبشكل خاص "الذاكرة الأميركية" التي ترعاها مكتبة الكونغرس(*). و"وادي الظلال" في جامعة فيرجينيا(**) إمكانية وفائدة قواعد البيانات على هذا المستوى. ولكن نجاحهما لا يؤكد أن باحث كتب غوغل، أكبر الرواد، سيجعل مكتبات الأبحاث في خبر كان. بل على العكس، فإن غوغل ستجعلها أكثر أهمية مما سبق. ولتأكيد هذه النظرية أودّ تنظيم أفكاري عبر ثماني نقاط رئيسية.

بناءً لادعاء أنصار غوغل الأكثر مثالية، فإن غوغل يمكنها فعلياً وضع جميع الكتب المطبوعة على الإنترنت.

إن هذا الادعاء مضلل ويثير خطر نشوء شعور خاطئ، لأنه قد يقودنا إلى إهمال مكتباتنا. فما هي نسبة الكتب في الولايات المتحدة - دون أخذ بقية العالم بعين الاعتبار - التي ستتمكن غوغل من رقمنتها: 75%؟ 50%؟ 25%؟ حتى ولو وصل الرقم إلى 90%، فإن ما تبقّى من

(*) بناءً لموقع "السجل الرقمي للتاريخ والإبداع الأميركي" الذي يضم تسجيلات ومطبوعات وخرائط والعديد من الصور.

(**) أرشيف من الرسائل والمفكرات والسجلات الرسمية والمجلات والصور توثّق للمجتمعين - الشمالي والجنوبي - المتباعدين بمسافة 200 ميل في وادي شندوها بين العامين 1859 و1870.

الكتب دون رقمنة قد يكون مهماً. ولقد اكتشفت مؤخراً رواية خليعة ولكن استثنائية، "البوهيميون"، بقلم كاتب غير معروف اسمه المركيز دوبلبورت، والتي كتبها في سجن الباستيل في نفس الوقت الذي كان الماركيز دو ساد يكتب روايته في زنزانة مجاورة. وأعتقد أن رواية بلبورت التي نشرت في العام 1790 هي أفضل بكثير من كتابات دو ساد، وبغض النظر عن مستوى جدارتها ومهنيتها، ولكنها تكشف الكثير عن حال المؤلفين في فرنسا ما قبل الثورة. ولكن لا توجد من الرواية اليوم سوى ست نسخ، وحسب معرفتي أنه لا توجد أيٌّ منها على الإنترنت(*). (لم تفتح مكتبة الكونغرس التي تملك إحدى النسخ مقتنياتها أمام غوغل).

وإذا لم تتمكن غوغل من وضع هذا الكتاب وكتب أخرى مماثلة في قاعدة بياناتها، فلن يتمكن الباحث الذي يعتمد عليها من الحصول على أعمال فائقة الأهمية. وبما أن معيار الأهمية دائم التغير من جيل لآخر، لذلك لا يمكننا معرفة ما الذي سيواجه أحفادنا، الذين قد يتعلمون الكثير من الاطلاع على رواياتنا المضحكة وكراسات الكمبيوتر ودلائل الهاتف. ويعتمد الأكاديميون والمؤرخون اليوم بشدة على التقاويم والقصص الشعبية وأنواع أخرى من الأدب الشعبي في أبحاثهم، ولكن القليل من هذه الأعمال صمد لنا من القرنين السابع والثامن عشر. فهي قد طبعت على ورق رخيص وبأغلفة رقيقة، ثم استُنزفت قراءةً ليتجاهلها المكتبيون وهواة الجمع الذين لم يعتبروها صنفاً من "الأدب". ولقد اكتشف باحث في كلية ترينيتي في دبلن مؤخراً دُرجاً يفيض بكتب القصائد الغنائية، وكل منها يُعتبر الوحيد من

(*) راجع مقالتي "إيجاد أمير مفقود في بوهيميا"، مجلة نيويورك لمراجعة الكتب، 3 نيسان/أبريل 2008، ص 44-48.

نوعه ولا يقدَّر بثمن في عيون الأكاديمي المعاصر رغم أنها لم تكن ذات قيمة تُذكر قبل قرنين.

رغم أن غوغل قد اتبعت استراتيجية ذكية باتفاقها مع خمس مكتبات عظيمة، فإن مقتنيات هذه المكتبات مجتمعة لا تقارب حجم الكتب في الولايات المتحدة.

خلافاً لما قد ننتظره، فالغزارة متواضعة في مقتنيات المكتبات الخمس: فإن 60% من الكتب التي رقمنتها غوغل موجودة في مكتبة واحدة فقط. وهناك حوالى 543 مليون مجلد في مكتبات الأبحاث في الولايات المتحدة. ولقد وضعت غوغل هدفاً أولياً لها لرقمنة 15 مليون مجلد. وعبر اتفاق غوغل مع المزيد من المكتبات – المجموع الأخير بلغ 31 مكتبة أميركية متعاقدة مع غوغل – تزداد الكتب الممثلة في قاعدة بياناتها، ولكنها لم تخض حتى الآن في المجموعات الخاصة، حيث توجد أكثر الكتب النادرة. وبالتأكيد فإن المجموع العالمي العام للإصدارات – جميع الكتب في جميع لغات العالم – يبقى بعيداً عن قدرات غوغل على رقمنتها.

رغم الأمل بوصول الناشرين والمؤلفين وغوغل إلى تسوية لنزاعهم، فمن الصعب رؤية كيف يمكن لحقوق الملكية الفكرية أن تتوقف عن إثارة المشاكل.

بناءً لقانون الملكية الفكرية للعام 1976 وملحق قانونه للعام 1998، فإن معظم الكتب التي نُشرت بعد العام 1923 لا تزال خاضعة للقانون، وتمتد حقوق النشر اليوم طيلة حياة المؤلف إضافة إلى سبعين عاماً. أما بالنسبة إلى الكتب ذات الملكية العامة، فإن غوغل ستسمح للقراء بالوصول إلى نصوصها الكاملة مع إمكانية طباعتها. أما الكتب الخاضعة لحقوق الملكية فإن غوغل ستعرض جزءاً يسيراً من نصوصها. ولكن

على غوغل إقناع الناشرين والمؤلفين التنازل عن حقوقهم في الكتب التي نُشرت بين العام 1923 والماضي القريب، ولكن هل ستستطيع حملهم على تعديل حقوقهم الحاضرة والمستقبلية؟ ففي العام 2006 تمّ نشر 291,920 إصداراً جديداً في الولايات المتحدة، كما أن أعداد الكتب الجديدة قيد الطباعة قد ارتفعت سنوياً خلال السنوات العشر الأخيرة رغم انتشار النشر الإلكتروني. فكيف يمكن لغوغل مجاراة زخم الإنتاج هذا بينما هي تعمل على رقمنة الكتب المتراكمة عبر القرون؟ فمن الأفضل زيادة عمليات الاقتناء في مكتباتنا البحثية بدل ائتمان غوغل الحفاظ على الكتب المستقبلية لمنفعة الأجيال المقبلة. ورغم أن غوغل تعرِّف مهمتها على أنها مشاركة المعلومات - واليوم، فإنها لا تُلزم نفسها الحفاظ على النصوص إلى أجل غير مسمى.

تنهار الشركات بسرعة في بيئة التقنيات الإلكترونية سريعة التغير.

قد تختفي غوغل يوماً أو قد تحجبها تقنية أعظم، والتي قد تجعل قاعدة بياناتها بالية وغير مطروقة مثل الكثير من الأقراص اللينة والمدمجة القديمة. فالمؤسسات الإلكترونية تأتي وتذهب. أما مكتبات الأبحاث فتبقى لقرون عديدة، ومن الأفضل تعزيزها بدل إغلاقها، لأن الزوال مبيّت في الوسائط الإلكترونية نفسها.

ستقع غوغل في الخطأ.

رغم حرصها على النوعية والمحافظة عليها، فستفوّت غوغل كتباً، وستنسى صفحات، وستمسخ صوراً، وستخفق في عدة أوجه لإخراج نصوص مناسبة. لفترة كنا اعتقدنا بأن المايكروفيلم سيحل مشاكلنا في حفظ النصوص. اليوم لقد اكتشفنا الحقيقة المُرَّة.

وكما هي حال المايكروفيلم، فليس هناك من ضمان بأن نسخ غوغل ستبقى.

تتلاشى "البتات" الرقمية مع مرور الزمن. وقد تُفقد الوثائق في الفضاء السيبراني، بسبب زوال الوسط الذي تمَّ ترميزها عبره. وقد ينقرض العتاد والبرمجيات بسرعات مؤلمة. وإذا لم تُحل مشكلة الحفظ الرقمي المزعجة، فإن جميع النصوص "رقمية المنشأ" ستكون مهددة بالزوال. لقد منع هاجس تطوير الوسائط الحديثة الجهود للحفاظ على القديمة منها، ولقد خسرنا 80% من جميع الأفلام الصامتة و50% من الأفلام التي صنعت قبل الحرب العالمية الثانية. فلا شيء يحفظ النصوص أفضل من الحبر المبيّت في الورق، وخاصة الورق المصنوع قبل القرن التاسع عشر، ما عدا النصوص التي كتبت على ورق البرشمان أو التي حفرت في الحجر. إن أفضل نظام حفظ تمَّ اختراعه هو الكتاب القديم في ما قبل الحداثة.

تخطط غوغل لرقمنة إصدارات مختلفة من كل كتاب، والاحتفاظ بجميع النتائج التي قد تظهر، ولكن هل ستتاح جميع هذه الإصدارات للقراء؟

إذا تمَّ ذلك، فأي منها سيوضع على قائمة البحث؟ إذ إن القراء العاديين قد يضلّون طريقهم أثناء البحث بين الآلاف من الإصدارات المختلفة من مسرحيات شكسبير، لذلك سيعتمدون على النسخ التي تجعلها غوغل أكثر سهولة للوصول. وهل ستقرر غوغل التراتبية العلائقية لهذه الكتب كما تبوّب المراجع لكل شيء آخر، من فرشاة الأسنان إلى نجوم السينما؟ وهي تستخدم اليوم خوارزميات سرية لتحديد تراتبية صفحات الويب بناء على تواتر استخدام الصفحات المتصلة بها، وأفترض أنها ستبتدع خوارزميات مشابهة لتحديد تراتبية طلب الكتب. لكن لا شيء يوحي بأنها ستأخذ بالمعايير المتبعة من الببليوغرافيين، مثل: هل ستظهر النسخة الأولى المطبوعة أو النسخة

الأقـــرب إلى تنقـــيحات المؤلـــف. ورغـــم أن غوغل توظف آلاف المهندســـين، ولكـــنها حسب معلوماتي لا توظف أي ببليوغرافي. ومن المؤســـف بشكل خاص براءتها من أي اهتمام بفهرسة معظم النصوص الـــتي كمـــا ثبت كانت غير مستقرة عبر تاريخ الطباعة. ولن تفي أي نـــسخة من النسخ الأكثر انتشاراً في القرن الثامن عشر للحلول مكان النسخ المختلفة والمتعددة التي لا تنتهي. وعلى الأكاديميين الجديين دراسة ومقارنة العديد من النسخ في طبعاتها الأصلية وليس النسخ المرقمنة التي ستـــصنفها غوغل بناء على معيار ستكون علاقته على الأرجح معدومة مع علوم الببليوغرافيا.

حتى ولو كانت الصورة المرقمنة على شاشة الكمبيوتر دقيقة، فإنها ستفشل في التقاط جوانب حاسمة من الكتاب.

علـــى ســـبيل المثال، الحجم. فإن تجربة قراءة كتاب جيب صغير مـــصمم ليُمـــسك بـــيد واحدة، تختلف جذرياً عن قراءة مجلد ضخم موضـــوع علـــى منصة خاصة. فمن الأهمية بمكان الإحساس بملمس الكـــتاب – الـــشعور بالـــورق ومـــستوى الطباعة ونوعية التجليد. فالمواصـــفات الشكلية توفر معلومات حول كينونة الكتاب كعنصر في النظام الاجتماعي والاقتصادي، وإذا ضمّ ملاحظات هامشية فقد تُقدِّم الكثير حول مركزه في حياة قرّائه الثقافية.

وتُـــصدر الكـــتب روائح خاصة. وبناءً إلى استفتاء حديث بين الطـــلاب الفرنسيين، أفاد 43% منهم أنهم يعتبرون الرائحة إحدى أهم صـــفات الكـــتاب المطبوع – وهي مهمة لهم إلى حدّ أنهم يمتنعون عن شراء الكتب الإلكترونية التي لا رائحة لها. ويحاول الناشر الفرنسي على الإنتـــرنت "CaféScribe" أن يحـــدّ من هذا الشعور عبر لاصق على الكمبيوتر يُصدر رائحة عفنة ترمز إلى الكتاب.

عندما أقرأ كتاباً قديماً، أوجّه صفحاته نحو النور، وغالباً ما اكتشف بين ألياف الورق دوائر صغيرة عائدة إلى نقاط متساقطة من يد صانع الورق أثناء صناعته - أو شذرات نسيجية من ثياب لم تُسحق جيداً أثناء تحضير عجينة الورق. وذات مرة اكتشفت بصمة إصبع طابع ظاهرة على مجلد نسخة "Encyclopédie" - وهذا دليل على ممارسات يقوم بها مهنيو الطباعة الذين كانوا في بعض الأحيان يضعون الكثير من الحبر على الحروف لتسهيل الحصول على "الطبعة" عبر سحب عتلة آلة الطباعة.

إني أعترف أن اعتبارات "الإحساس" و"الشم" قد تُضعف برهاني. ذلك أن معظم القراء تهمهم النصوص وليس "الآثار" الملموسة المبيتة فيه، وعبر الانغماس في سحر الطباعة والورق، فقد أُعرِّض نفسي إلى الاتهامات بكوني رومانسياً أو أتصرّف كأكاديمي قديم الطراز منغمس في الكتب ولا يريد أي شيء أكثر من الاختلاء في غرفة الكتب النادرة. أنا أحب غرف الكتب النادرة، حتى تلك التي تجبرك على وضع قفازات خاصة قبل لمس كنوزها. إن غرف الكتب النادرة هي أقسام حيوية في مكتبات الأبحاث، وهي الجزء الأكثر حظراً على غوغل. ولكن المكتبات تقدِّم أيضاً أمكنة للقراء العاديين لينغمسوا في الكتاب، أماكن هادئة في أجواء مريحة، حيث يكون الكتاب موضع تقدير من كل جوانبه.

وفي الواقع، فإن أقوى الحجج لصالح الكتاب التقليدي هي فعاليته مع القراء العاديين. والشكر يعود إلى غوغل، بعد أن أصبح بمقدور الأكاديميين البحث والإبحار والحصاد والتقصي والزحف والاتصال العميق (يختلف الاصطلاح باختلاف التكنولوجيا) عبر ملايين مواقع الويب والنصوص الإلكترونية. وفي الوقت عينه يمكن لأي شخص

يبحث عن كتاب مفيد اختيار مجلد مطبوع وتقليب صفحاته بسهولة، متمتعاً بسحر كلمات من الحبر على الورق. ولا توفر شاشة أي كمبيوتر اكتفاءً مثل الورق المطبوع، ولكن الإنترنت تقدّم معلومات يمكن تحويلها إلى كتب كلاسيكية. ولقد تحوّلت تقنية الطباعة على الطلب إلى صناعة واعدة تبشّر بتوفير الكتب مباشرة من الكمبيوتر والتي ستعمل مثل آلة الصراف الآلي: أُدخل إليه، أُطلب إلكترونياً، ويخرج الكتاب مطبوعاً ومجلداً. وربما ستكحّل عيوننا يوماً نصوص على شاشة يدوية مماثلة لصفحة كتاب منذ ألفي سنة.

في الوقت الراهن أقول: عززوا المكتبات. ارفدوها بالكتب. طوّروا صالات القراءة. ولكن لا تعاملوها كمخزن أو متحف. أثناء إعارة الكتب، تعمل معظم مكتبات الأبحاث كمراكز عصبية لبث النبض الإلكتروني. فهي تقتني مجموعات المعلومات، وتحافظ على مخازن رقمية، وتقدم ولوجاً إلى المجلات الإلكترونية، وتضبط أنظمة المعلومات المتصلة بالمختبرات. والعديد منها تتشارك بثروتها الفكرية مع بقية العالم عبر السماح لغوغل برقمنة مجموعاتها المطبوعة. لذلك، أقول أيضاً: تعيش غوغل! ولكن لا تعتمدوا على بقاء غوغل لمدة طويلة تكفي لاستبدال ذاك المبنى المحترم ذي الأعمدة الكورينثية. وكحصن للعلم وكمنصة للمغامرة على الإنترنت، لا تزال مكتبة الأبحاث تستحق مركزها في قلب الحرم الجامعي، حافظة الماضي ومراكمة الطاقة للمستقبل.

الفصل الثالث

مستقبل المكتبات

مـــا هـــو مستقبل مكتبات الأبحاث وكيف نستعد له؟ لا يمكن التغاضي عن هذين السؤالين على أنهما "أكاديميان" – ذلك النوع الذي يـــتداوله الأســـاتذة دون الوصول إلى نتيجة للمصلحة العامة – لأنهما يلمـــسان قلب حاجات المواطنين اليومية: المعرفة والمساعدة في تبويبها عبر معلومات معرفية وثيقة الصلة.

عـــندما أحاول توقّع المستقبل، أبحث في الماضي. هنا، على سبيل المـــثال، يـــوجد خيال مستقبلي نشره في العام 1771 لويس سباستيان ميرســـيه في كراســـه "المثالي" الأكثر مبيعاً، "العام 2440". حيث ينام ميرســـيه ليـــصحو في باريس سبعة قرون بعد مولده في العام 1740. ويكتـــشف نفسه وسط مجتمع قد تطهّر من جميع شرور النظام القديم. وفي ذروة أحـــد فـــصول المجلد الأول يزور المكتبة الوطنية متوقعاً رؤية آلاف المجلدات مرتبةً بعظمة كما في مكتبة الملك لويس الخامس عشر. ولكـــنه يفاجئ بوجود غرفة متواضعة تضم أربع خزائن صغيرة. ولكن ماذا جرى للمجموعات الهائلة من المحفوظات التي كانت قد تراكمت منذ القرن الثامن عشر، عندما وصلت إلى حد عدم القدرة على إدارتها؟ يسأل... "لقد أحرقناها"، يجيب المكتبـــي: 50,000 قاموس، 100,000 ديوان شعر، 800,000 مجلد قانوني، 1,6 مليون كتاب سياحي، وبليون

روايـــة. لقـــد قامـــت لجنة من الأكاديميين الأفاضل بقراءتها واجتثّت الأكاذيـــب واختـــصرتها جمـــيعاً إلى الجوهر: بعض الحقائق الأساسية والتعاليم الأخلاقية التي تضمها بسهولة الخزائن الأربع.

كان ميرسيه مناضلاً مؤيداً للتنوير ومؤمناً صادقاً بالكلمة المطبوعة كعامل تقدم. لم يوافق على إحراق الكتب. ولكن خياله عبّر عن رأي كان سائداً بقوة في القرن الثامن عشر وتحول الآن إلى هاجس: الشعور بالإربـــاك من حجم المعلومات وبالعجز أمام الحاجة للوصول إلى المادة المناسبة وسط جبال المعلومات.

حـــلٌ واحدٌ لهذه المشكلة المزدوجة قد يكون بمكتبة دون كتب. وعوضاً عن كتب ميرسيه المتبقية، ستضم هذه المكتبة كمبيوترات طرفية توفـــر الولوج إلى قواعد بيانات عملاقة، حيث يصل القارئ إلى غايته عبر محركات بحث فائقة الأداء بواسطة أحدث الخوارزميات.

تـــبدو بعـــيدة المنال؟ ولكنها قيد البناء حالياً، رغم أنها لا تسمّي نفسها مكتبة. اسمها: باحث كتب غوغل. فعبر رقمنة مقتنيات دزينات مـــن مكتـــبات الأبحاث تُراكم غوغل قاعدة بيانات مؤلفة من ملايين الكتب، ملايين عديدة ستتكون منها مكتبة رقمية عملاقة أكبر من أي شيء تمّ تصوره من قبل، خلا في خيال جورغ لوي بورخيس.

إن ما يميز مكتبة غوغل عن غيرها ليس الرقمنة بحد ذاتها، لأن هذا موجـــود في كـــل مكان، ولكنه حجم المسح الإلكتروني وهدفه. إن غـــوغل هـــي منـــشأة تجارية هدفها الأول جني الأرباح. أما المكتبات فـــوُجدت لـــتوفير الكـــتب للقراء - الكتب وغيرها من المنشورات، وبعضها مرقمن. ولقد توضّح مفهوم هدف غوغل التجاري في تشرين الأول/أكتوبر 2008، عندما أعلنت عن توصّلها إلى تسوية مع مجموعة من المؤلفين والناشرين الذين كانوا يقاضونها مدّعين أنها خرقت حقوق

الملكـــية الفكـــرية. ولقـــد أثارت التسوية حركة معقدة للمشاركة في المداخيل المالية الناشئة جراء بيع خدمة الولوج إلى قاعدة بيانات غوغل. وأهم تدبير اتخذته غوغل من وجهة نظر مكتبات الأبحاث هو الاشتراك المؤســـسي. فعبر دفع رسوم اشتراك سنوية لغوغل، ستمكّن المكتبات قـــراءها من الوصول إلى جميع المعلومات من الكتب التي رقمنتها، خلا تلـــك التي تحميها حقوق النشر أو التي رفض أصحاب حقوقها إتاحتها عبر الاشتراك المؤسسي.

ولقـــد بدت الصفقة ملتبسة للبعض منا كمسؤولين في المكتبات. فبعد إتاحة كتبنا مجاناً لغوغل، ها هي اليوم تطالبنا برسوم للوصول إليها مرقمنة، إلى جانب تلك التي من المكتبات الشقيقة الأخرى. والأهم من هذا قلقنا من إنشاء غوغل احتكاراً من نوع جديد، قد يكون أكبر من أي شيء سبق: احتكار الوصول إلى المعلومات.

يجد مسؤولو غوغل أن كلمة احتكار كريهة. ولتهدئة خواطرهم يمكنـــنا التحدث عن السيطرة التي لا يمكن قهرها مالياً أو التصدي لها تقنـــياً أو إدانتها قانونياً، منشأة يمكنها قهر كل المنافسين. ولكن، وبلغة واضحة، إن باحث كتب غوغل هو احتكار.

إنـــه احـــتكار لـــثلاثة أســـباب. الأول واقعي: بعد أن هجرت مايكروســـوفت هذا الحقل، لم يعد هناك من منافس يملك القوة المالية والتقنية لمواجهة غوغل. ثانياً: بسبب الطبيعة الجماعية للدعوى ضدها، فـــإن التسوية تشمل جميع المؤلفين والناشرين في فئة أصحاب الحقوق. لـــذلك، على أي منافس لغوغل أن يحصل على موافقة جميع أصحاب الحقـــوق وتسوية عدد غير محدود من الدعاوى القضائية للتعدي على الحقـــوق التي قد تتراوح بين 30,000 دولار وأكثر من 100,000 دولار. (في الوقت عينه، ستجعل التسوية من غوغل والمدعي، صاحبـــيّ الحقوق

الفعلـــيين للكتب التي لم يُطالب بها – وهو موضوع معقّد يطال ملايين الأعمـــال وليس فقط الكتب المهمّلة). ثالثاً: تضم التسوية بنداً سيادياً يمـــنع أي مـــنافس من الحصول على شروط أفضل من التي مُنحت إلى غوغل.

ليـــست الاحـــتكارات سيئة بالمطلق. ففي حالة شركات الهاتف والقطارات، يمكن لشركة واحدة تأمين خدمات أفضل من مجموعة من الـــشركات الصغيرة الأخرى. ويمكن لغوغل أن تجعل مكتبتها الرقمية الهائلـــة قريبة المنال من القراء في المكتبات العامة والكليات الصغيرة عبر البلاد، وربما في أحد الأيام عبر العالم.

ولكـــن، هـــل نريد مؤسسة تجارية واحدة تملك الامتياز المطلق لإدارة هذه المعلومات؟ فالمكتبات قلقة الآن من تقديم سجلات رواجها للحكـــومة كما يتطلب "قانون الأمن الوطني". ولكن غوغل قد تعرف عـــنا أكثر مما تعرفه عنا الوكالات الأمنية CIA وFBI وIRS معاً، إذ يمكـــنها أن تعـــرف ماذا نقرأ، ماذا نشتري، من نـــزور، ما هو حجم غرف نومنا، ما هي طبيعة الرسائل التي نتبادلها، وإذا استطاعت تطوير خوارزمـــياتها أكثـــر، ستعرف ما الذي نفكر فيه إذا ما واجهنا موقفاً يتطلب اتخاذ قرار.

ليس لأن هناك شيئاً شيطانياً حول طموح غوغل أو عدم التزامها شـــعارها "لا تعمـــل شراً". بل لأن صعود قوة غوغل سيكون نتيجة طبيعـــية لنجاح مخططها التجاري. وكأي منشأة تجارية فإن مسؤوليتها الأولى هـــي تحقيق أرباح لمساهميها، وليس الحرص على المصالح العامة. وقـــد يبدو أن على المواطنين أن لا يقلقوا من أي احتكارٍ للوصول إلى المعلـــومات، لأن المعلومات أصلاً موجودة في كل مكان. فنحن نغرق فـــيها. ولكـــن دعونا نتأمل القوة المتاحة لغوغل عبر تحكّمها ببوابات

المعلـــومات. فـــأي شـــخص يتحكم ببوابات المعلومات الرقمية يمكنه ممارســـة دور جابـــــي التحـــصيل، ليجعلنا ندفع لقاء دخول طريق المعلومات السريع. وفي وضع الكتب، ستكون النسخ الرقمية في قاعدة بـــيانات غوغل ملكاً لها، حيث يمكنها فرض أي أسعار للوصول إليها. فهي ستملك قسماً كبيراً من الطريق السريع.

تتضمن التسوية توجيهات غير واضحة لتحديد الأسعار، ولكنها لا توفّر ضوابط لمنعها من التحليق. وعلى غوغل الاتفاق على معدلات الأسعار مع "سجل حقوق الكتب" المسؤول عن مطالبات حقوق النشر وتوزيـــع العائدات. ولكن ممثلين للمؤلفين والناشرين سيديرون السجل وستكون لهم مصلحة في رفع الأسعار تدريجياً. ولكن صاحب المصلحة الأكـــبر هـــو المـــواطن الذي لا صوت له في هذه التسوية. فالمكتبات والمدارس والجامعات والمواطنون العاديون، وكل من يقرأ كتاباً ولكن لا ينتمـــي إلى فئة أصحاب حقوق النشر - كلهم محرومون من تداولات قاعة المحكمة التي ستقرر مصير التسوية.

وإذا التزم القاضي بالممارسات المعيارية في الدعاوى العامة، فقد يحدد دوره للتأكيد بأن التسوية تتعاطى مع مصالح المتنافسين بطريقة عادلة. أما إذا اتخذ نظرة واسعة نحو المسألة، فقد يرفض الموافقة على التـــسوية ويـــوجّه الأطراف بالعودة إليه بنسخة محسَّنة. وقد تضم التحـــسينات: (1) مراقبة دورية للأبحاث من السلطات العامة، (2) تمثـــيلاً للمكتبات والقراء في السجل، (3) تعهداً بفسح المجال أمام منافـــسي غـــوغل لرقمنة وإتاحة الأعمال المفتوحة، (4) إقراراً من غـــوغل مـــوجه إلى وزارة العدل يتعهد بعدم إساءة استخدام قوتها الاحـــتكارية، (5) تدبيراً محدّداً يضمن خصوصية الأفراد من تطفل عيون غوغل الإلكترونية عليهم.

يمكن للمرء تصوّر نهاية أكثر سعادة: تشريع يتيح معلومات غوغل للجميع. حيث يتمكن كل مواطن من مراجعتها، وكل شركة من استثمارها. حيث تتم إعادة كتابة قوانين الملكية الفكرية، وتعويض أصحاب الحقوق، وتسديد توظيفات غوغل في مسح الكتب إلكترونياً، والتي يمكنها الحفاظ على خوارزمياتها السرية والاستمرار في خدماتها البحثية، ولكن يجب تحويل بنك معلوماتها إلى ملكية عامة. عندها سنحصل على مكتبة رقمية وطنية.

قد يكون هذا الحلم مستحيلاً مثل "مثالية" ميرسيه. ولكن لتحويل هذا البحث إلى مستوى أكثر واقعية، من الأفضل الافتراض أن أحد إصدارات باحث كتب غوغل قد تحوّل إلى مشروع خاص. فماذا سيكون دور مكتبات الأبحاث في هذا المشهد الرقمي؟ ستتواجد بأشكال عدة: مكتبة الكونغرس وهي فئة بحد ذاتها، المكتبات الوطنية الجامعية التي يمتلك بعضها مجموعات مذهلة وغنية، والكثير من المؤسسات غير الحكومية - مورغان في نيويورك، نيوبيري في شيكاغو، هانتينغتون في لوس أنجلوس، ومكتبات الجامعات الخاصة المنتشرة عبر البلاد. وما يميز نظام المكتبات الأميركي عن الأوروبي هو تنوعه، وخاصة في القطاع الخاص. وحتى مكتبة نيويورك العامة فهي خاصة، رغم اسمها والإعانات المالية التي تدعم فروعها العديدة. وفي التنوع قوة وفي الاستقلالية خلاص من السيطرة الحكومية. ولكن بعض المكتبات الخاصة قد تبدو غير مرغوب فيها من ناحية واحدة: حصريتها.

تعود أفضل المكتبات إلى الجامعات المميزة مثل هارفارد ويال وبرينستون وستانفورد. ورغم أنها تسمح بدخول الباحثين إليها من الخارج، لكنها تبقى مغلقة للعموم. وقد يعترض بعض أفراد المجتمع أنها تدير ظهرها للمواطنين وتخصص ثروتها لقلة من المحظوظين فقط.

لقد راودتني أفكار كهذه في بعض الأحيان، عندما كنت أتمتع بامتيازات طلاب السنة الأخيرة في جامعة أُكسفورد. في تلك الأيام كانت كليات أُكسفورد مغلقة عن الخارج بواسطة جدران مرتفعة تنتهي بمسامير وزجاج حاد. وكانت أبواب كلّيتي، سانت جون، تغلق بوابتها عند الساعة العاشرة مساءً. وإذا كنتَ خارجاً عند ذلك، يمكنك قرع الجرس ثم دفع غرامة والدخول، أو تسلُّق الجدار - تجربة مرعبة، إلا إذا أرشدك أحدهم إلى طريق سري عبر عمود إنارة وسطح منخفض، أو فراغ بين المسامير والزجاج، أو أي موطن ضعف آخر في التحصينات - الذي تركه عميد الطلاب دون حراسة، بناءً على اتفاق ضمني يبقي الشباب شباباً. (وباستثناء القليل من المؤسسات الأنثوية فإن الكليات كانت في ذلك الوقت محصورة بالذكور).

شكّلت العوائق للغرباء إضافة إلى معرفة الطلاب أصول خرق القوانين دعماً لشعور عام بالتميز. وإذا لم تكن الهندسة المعمارية كافية لإيصال الرسالة، كان يمكنك قراءتها في "جود الغامض" لتوماس هاردي، والذي يصف محاولات جود اختراق عالم الدراسة خلف أسوار أُكسفورد المحرّمة. ولم أُعد قراءة الرواية لسنين عديدة، ولكن كما أذكر من أحاديثي في سانت جون، فإن جود لم يتمكن من التواصل مع الحياة داخل الكليات، كما استسلم أحد أبنائه للعنة على الغرباء عبر قتل أطفال آخرين ثم شنق نفسه في إحدى غرف نزل Lamb and Flag القريب من النقطة التي أتسلقها إلى الكلية.

وعلى العكس، فإن أبنية هارفارد الجورجية المحدَّثة لا تشبه تلك الميلودراما، ولكنها قد تبدو محرّمة على الغرباء. وتتيح المكتبة وسيلة لانفتاح هارفارد على الجماهير، ليس كواقع ملموس (حيث إن أعداد القراء تجعل ذلك مستحيلاً) ولكن كواقع رقمي، عبر المشاركة بثروتها

الثقافية عبر الإنترنت. وسيكون الانفتاح هو القاعدة الدليلية التي سنتبعها لتكييف المكتبة مع واقع القرن الحادي والعشرين. ومع الاعتذار لضيق الأفق، آمل أن الملاحظات التالية قد تكون مفيدة للآخرين، حيث أود ذكر بعض الإجراءات التي أقدمنا عليها.

إثر تصويت العديد من هيئات هارفارد التعليمية لصالح الولوج الحر، أنشأت المكتبة مكتب الاتصالات الأكاديمي (OSC)، الذي يدير مخزناً لحفظ جميع المقالات الأكاديمية الصادرة عن هيئة تعليمية محددة وإتاحتها على الشبكة مجاناً، ما عدا تلك التي يختار أصحابها حجبها. كذلك فإن المكتب يخطط لرقمنة أطروحات وجعلها متاحة من المخزن نفسه، إلا إذا اختار مؤلفوها تركها في الظل لمدة محددة عبر الاستفادة من خيار انسحاب احتياطي مماثل. وخلال ضخ المعرفة الجاهزة إلى العالم الخارجي، سيقوم المكتب كذلك بجمع المنشورات "الرمادية" – المحاضرات الخاصة وأوراق المؤتمرات وملاحظات المختبرات ومجموعات المعلومات وتقارير تقدم العمل – بشكل يجعل الحياة الثقافية في الجامعة متاحة لأي شخص يود متابعتها. بالطبع هناك الكثير من المشاكل بحاجة للتصدي: تصاريح حقوق النشر، وضبط النوعية، وتناغم أنظمة البحث عن المعلومات وتخزينها، والحاجة إلى الاعتمادات المالية لإنشاء بنية تحتية والمحافظة عليها. ولكن في هارفارد كما في العديد غيرها من الجامعات فإن المكتبة تقوم مقام مركز عصبي لجمع المعرفة ونشرها.

تقوم المكتبة بتوسيع هذه المهمة عبر برنامج المقتنيات المفتوح. ومدعومةً بهبات من مؤسستيْ هيوليت وأركاديا، قامت برقمنة كتب وكراسات ومخطوطات ومطبوعات وصور فوتوغرافية منتشرة عبر دزينات من المكتبات ذات التواصل المشترك مع مواضيع محددة: عمل المرأة 1800–1930، الهجرة إلى الولايات المتحدة 1789–1930،

العدوى: نظرة تاريخية على الأمراض والأوبئة، البعثات والاكتشافات، الاستكشافات المدعومة والاكتشافات العلمية في العصر الحديث، والتراث الإسلامي، حيث تقوم مجموعات من الأساتذة وأمناء المكتبات والمتاحف والتقنيين باختيار وتصنيف ورقمنة المواد لإتاحتها مجاناً عبر شبكة الوب. ويستغرق إنجاز كل مشروع منها حوالى ثمانية عشر شهراً لإنجازه، ويأتي كل منها بأعداد ضخمة من الوثائق إلى متناول الطلاب والباحثين المتقدمين. هذه المواد تمت ترجمتها إلى اثنتين وسبعين لغة واستعان بها مئات الآلاف من الزوار عبر العالم.

إن الوصول إلى بقية العالم مسؤولية تقع على كاهل هارفارد، لأن مكتبة الجامعة تضم موادَّ غير موجودة في أي مكان آخر. أرشيف يعود إلى تاريخ تأسيس الكلية في العام 1636 يكشف كماً كبيراً من المعلومات حول أصول التعليم في أميركا - وحول أميركا نفسها. وتضم المجموعات الخاصة المنتشرة في أرجاء نظام المكتبة، الكثير من الموارد ذات الأهمية الكبيرة للعديد من الدول الأخرى. إذ تضم مكتبة Yenching في هارفارد أكثر من 200 نسخة فريدة من الأعمال الصينية، والتي ستتم رقمنتها إلى جانب 51,542 مجلداً نادراً في مشروع ولوج حر مشترك مع المكتبة الوطنية في الصين بين 2010 و2016. وتأمل هارفارد كذلك رقمنة مواد أوكرانية هي من أفضل المجموعات في العالم - وهي ذات أهمية حيوية للشعب الأوكراني الذي خسر معظم موروثه الأدبي خلال الأحداث التراجيدية التي عصفت ببلاده خلال القرن العشرين. كما تتم رقمنة مجموعات هارفارد الهائلة في علوم الحيوان والنبات والطب وإتاحتها عبر مخارج ولوج حر مثل مكتبة الموروث الإحيائي المتعدد ومجلات مكتبة العلوم العامة. وتحتاج الرقمنة على هذا المستوى إلى تعاونٍ بين العديد من المؤسسات. وتضم العديد

من مكتبات الأبحاث مجموعات خاصة تبقى غير معالجة وغير معروفة، إلا لـــبعض الأخصائيين. ولا يمكن تحقيق رسالتنا وإنجاز مسؤوليتنا تجاه عالم العلم سوى بجعلها متوفرة عبر العمل المشترك والولوج الحر.

كـــذلك عليـــنا تولّـــي مسؤولية أخرى: جمع مواد رقمية أصلاً وحفظها. ولقد تكاثرت المواقع عبر الإنترنت، وكونها تفطّرت بطريقة فوضوية نتيجة الجهود الفردية، فإنها تنـــزع لتكون عصية على محركات الـــبحث حـــيث يحصل تنافر متبادل في تصميم قوائم محتوياتها لتصبح ســـريعة الزوال: فهي تختفي بسهولة في الفضاء السيبراني. ولقد طورنا خدمة جمع أرشيف الويب (WAX) لجمع هذا النوع من المواد والمحافظة علـــيه، ولقـــد أظهـــرت ثلاثة مشاريع تجريبية إمكانية إنجاز هذا على مـــستوى كبير: فلقد واظبت مؤسسة أدوين ريشور بانتظام على جمع الأبحـــاث حول المواضيع السياسية من أكثر من مائة موقع ويب ياباني، ويـــتم الآن تخزين المواد وحفظها في قاعدة بيان رقمية تدعى "مراجعة دســـتورية في الـــيابان". ولقد طورت مكتبة آرثر وإليزابيث شلسينغر مجمـــوعة مماثلـــة، "جمع أصوات نسائية"، والتي ستحفظ سجل دخول النساء إلى المدونات غير المعروفة. كما أطلق "أرشيف جامعة هارفارد" برنامجاً للحفاظ على سجلات الحركة اليومية بين مواقع الويب العديدة الـــتي نمت داخل هارفارد نفسها. ولا نزال نختبر خططاً لأرشفة ملايين الرسائل المتبادلة ضمن الجامعة عبر البريد الإلكتروني.

إن مـــشكلة الـــبريد الإلكتروني موجودة في كل مكان، وتشوبها الكـــثير من التعقيدات، قانونية وفنية، والتي قد تكون غير قابلة للحل. وبـــسبب تقاطـــع هذا الكم الهائل من الأعمال عبر الويب، بتنا نخسر سجل الاتصالات المعاصرة. وأعترف أن "لجنة السجلات الحكومية" قد بالغـــت في إنـــذارها في العام 1985 معلنة أن "الولايات المتحدة تواجه

خطـــر إضـــاعة ذاكرتها"، وأن"الخسارة" المشهورة لإحصاء 1960 هي خـــرافة فعلية. وعبر هندسة مدروسة ومكلفة استطاع مكتب الإحصاء اســـترجاع معظـــم المعلـــومات التي تبينَ في العام 1976 أنها غير قابلة للاســـترجاع، بسبب العتاد البائد. ولكن معظم المؤسسات الحكومية اســـتخدمت الـــبريد الإلكتروني من أواسط الثمانينيات، ولقد فُقدت معظـــم هذه المراسلات - و لم تُفقد ملايين الرسائل الإلكترونية الست الـــصادرة كل عام عن البيت الأبيض خلال حكم كلينتون، إضافة إلى المـــزيد مـــن الرسائل الإلكترونية خلال إدارة بوش بين 2001 و2005 وســـجل الأعمال المنجزة في المستويات الحكومية الأدنى. وما زلنا نحوم حـــول المـــشكلة دون الوصـــول إلى حل. وتدير هارفارد قسم تقنية معلـــومات داخل مكتبتها، ولقد قاد تقنيوها الطريق نحو حلول فاصلة عـــبر برنامج يدعى "مبادرة المكتبة الرقمية". رغم ذلك، تبقى المشكلة، وهـــي تتضاعف بسبب مشاكل في الحصول على المال، وتطوير خطط العمل، وإعداد استراتيجيات عامة.

تفـــرض الـــضوابط المالية علينا إعادة التفكير بأساليب عملنا والبحث عن تعزيزات بين حلفاء متوقعين يواجهون المشاكل نفسها. وهـــناك تحالف طبيعي يمكنه وصل المكتبات الجامعية مع دور النشر الجامعـــية، وهمـــا نادراً ما يتعاملان مع بعضهما بعضاً، حتى عندما يكـــونان جيراناً في الحرم الجامعي نفسه، رغم أنهما موجودان للغاية نفـــسها: نشر المعرفة. وربما نحن نعاني من أفكار ضيقة حول النشر علـــى أنـــه محصور فقط بالمهنيين الذين ينتجون المجلات والكتب. والنـــشر يعني "التعميم"، نشاطاً عاماً تُرجم بشكل أوسع منذ القرن الرابع عشر وبناءً لمعجم أُكسفورد: "لجعله متوفراً أو مُتاحاً عموماً للتقبل أو الاستخدام".

هـــذا التعـــريف يشبه إلى حدٍّ بعيد شعار رسالة غوغل: "لتنظيم معلومات العالم وجعلها سهلة الوصول عالمياً ومفيدة". هل علينا اعتبار غـــوغل ناشراً؟ لا شك أن هذا التعريف ينطبق على مكتبات الأبحاث. فهـــي "تسهّل الوصول" إلى مختلف أنواع المعلومات، أكانت مقالات مـــودعة في المخـــازن أو أطـــروحات مرقمنة أو مجموعات معلومات إلكتـــرونية أو مواقـــع ويب أو محاضرات فيديوية، أو أوراق مؤتمر، أو أفلاماً، أو في هذه الحالة كتباً. ولقد استوعبت مكتبات جامعية عدة - ماستشوستس وستانفورد وبنسلفانيا - دور نشرها الجامعية. ولكن لا تـــوجد لديـــنا خطط كهذه في هارفارد حيث إن دار نشرها لا تزال تزدهـــر رغـــم الأوقـــات الصعبة. ولكننا نتعاون مع الدار في تقصي إمكانيات النشر الشبكي. وإحدى الإمكانيات الأخرى هي ولوج حر إلى الرســـائل العلمـــية المتوفرة مجاناً على الشبكة ولشراء نسخ مطبوعة حـــسب الطلب. وإمكانية أخرى قد تكون الاستفادة من خبرات الدار لإدارة ومـــراجعة وتـــصميم المطـــبوعات الرقمية مثل الرسائل العلمية والمقالات.

يُنتج معظم المؤلفين اليوم نصوصهم الإلكترونية شخصياً، ويحافظ معظـــم الناشرين على قوائمهم السابقة في مخازن رقمية. وفي عالمٍ كتبه "تُحـــدَّث رقمـــياً" وقراؤه "مواطنون رقميون"، هو عالم لن تحتاج فيه مكتبات الأبحاث إلى اقتناء كميات كبيرة من الكتب المطبوعة وتخزينها. فالطـــباعة علـــى الطلب والقارئات الإلكترونية المحسنة ستكون كافية لإرضـــاء الحاجات المباشرة. وللتأكد، يبدو أن ذاك العالم لا يزال يبدو بعـــيد المنال، ولا يمكننا بعد الحد من اقتناء المجلدات المطبوعة حتى يتم حـــل العديد من المشاكل الأخرى، وعلى رأسها مشكلة المحافظة على النصوص الرقميّة.

عندما يتم تأمين المستقبل، ستتمكن مكتبات الأبحاث من التركيز على مصدر قوتها: المجموعات الخاصة. وقد تضم هذه المجموعات مستقبلاً، موادَّ لا يمكننا تخيلها اليوم. ولكنها ستكون غنية أكثر من السابق في مقتنياتها من الكتب القديمة والمخطوطات. فبعد اختزان كنوزها لقرون، ستتمكن المكتبات من مشاطرتها مع العالم أجمع. عندها ستكون غوغل قد مسحت كل مقتنياتها الكلاسيكية إلكترونياً، ولكنها لن تتطرق إلى غرف الكتب النادرة والأرشيف، حيث ستتم الاكتشافات الأهم. وعبر رقمنة مجموعاتها الخاصة وتوفيرها مجاناً، تكون مكتبات الأبحاث قد حققت ناحية حاسمة من مهمتها.

ولكنني قد أكون أترك العنان لولعي بالكتب القديمة يؤثر في نظرتي المستقبلية، إذ مهما تطورت التقنيات فلا يمكنني تصور بأن صورة مرقمنة لكتاب قديم يمكنها تقديم أي شيء مماثل للحماسة التي يثيرها الكتاب الأصلي. وخلال سنتي الجامعية الأولى في هارفارد في العام 1957، اكتشفت أن دخول مكتبة هوتون (مكتبة هارفارد للكتب النادرة والمخطوطات) مسموح لي. فاستجمعت شجاعتي ودخلتها سائلاً إذا كانت لديهم نسخة "ملفيل" من كتاب إيمرسون "مقالات"، وخلال دقائق كانت على طاولتي. ولأن ملفيل سبق وكتب ملاحظات كثيرة في الهوامش وجدت نفسي أقرأ إيمرسون عبر عينا ملفيل – أو على الأقل حاولت ذلك.

علقت في ذهني ملاحظة هامشية واحدة، كانت حول تجارب ملفيل للدوران حول "راس هورن" الذي تحيطه أعتى الأمواج في العالم. في ذلك الوقت كنت أعتقد أن العالم بشكل عام كان عاتياً، لذلك تعلمت أن أتعاطف مع الملاحظة اللاذعة إلى جانب المقطع حول الطقس العاصف. كان إيمرسون يسهب بالوصف حول شجاعة العالم

وطبيعة الألم العابر، والذي، وكما قد يؤكد أي بحّار، قد يخمد كأي عاصفة. وتساءل ملڤيل في الهامش إذا كانت لدى إيمرسون أية فكرة عن الرعب الذي يواجهه البحارة على سفن صيد الحيتان على رأس هورن. لقد قرأته كمقرَرٍ حول الجانب المفرط في التفاؤل في فلسفة إيمرسون.

وبالعودة إلى هارڤارد بعد نصف قرن، تعود الذكريات إلى السطح، يصاحبها سؤال: هل فهمتها بطريقة صحيحة؟ لا بأس بكل المواعيد على دفتر اليومية. أعدتها بسرعة إلى مكتبة هوتون.

لا تحضرنا مناسبة تجربة أشياء قديمة دائماً. إليكم النتيجة، مقطع على صفحة 216 من "حكمة" في مقالة بقلم إيمرسون (بوسطن، 1847)، والتي أشار إليها ملڤيل بالقلم بحرف X كبير في الهامش: "إن الرعب من العواصف يتركز بشكل خاص في الردهة والقمرة. ويتولى البحار مقاومتها طوال النهار، حيث تجدد صحته نفسها كنبض شديد في مواجه عاصفة ثلجية كما تحت شمس حزيران/يونيو". وفي أسفل الصفحة، رسم ملڤيل حرف X آخر وكتب: "إلى شخص اختبر رأس هورن كبحّار عادي، ما هذا الكلام كله".

كانت الملاحظة الهامشية أكثر حدة مما تذكرته، كما كان الإحساس بحمل كتاب إيمرسون من ملڤيل الصغير في غلاف قماشي رخيص بين يدي أكثر إثارة. هذا النوع من التجارب لا يمكن أن يحدث سوى في غرف الكتب النادرة. بينما صورة مرقمنة من صفحة 216 من كتاب "حكمة" ستكون كافية للمساعدة في قراءة إيمرسون عبر ملڤيل. وفي الواقع يمكن للرقمنة إتاحة الفرصة لرؤية أشياء لا تراها العين المجردة، كما قد تعلّم الأكاديميون عبر العبث بنسخ مرقمنة من النصوص مثل مخطوطة Beowulf القديمة.

لا شك أن المرحلة الحالية تستوجب أكثر من مبادرات تجريبية في رقمنة مجموعات خاصة. وإذا كان لمكتبات الأبحاث أن تنتعش في المستقبل، عليها التكاتف معاً، وهي حققت نجاحاً في القرن العشرين عبر اتباع مصالحها الخاصة مستقلة عن بعضها بعضاً وعن أي تدخل حكومي. ولكنها تواجه في القرن الحادي والعشرين استحالة التقدم على جبهتين، القياسية والرقمية. فميزانيات اقتناء الإصدارات الجديدة غير قادرة على تحقيق المطلوب منها. لذلك عليها تشكيل ائتلافات، حيث تقوم بالاستثمار في بعض المواضيع بينما تترك البقية للآخرين في الائتلاف. وعليها تطوير مخازن مشتركة، واستحداث قروض داخلية، وتبادل الوثائق إلكترونياً، وتحضير قوائم معلومات للتشغيل الداخلي، ودمج قوائم كتبها، وتنسيق رقمنتها.

أعرف أن تجارب عديدة مشابهة قد فشلت. ولكن علينا أن نواصل المحاولة. وعبر التجربة والخطأ علينا التقدم إلى الأمام نحو إنشاء مكتبة وطنية رقمية ثم مكتبة عالمية رقمية. ولقد أكدت غوغل إمكانية تنفيذها وخطورة سوء إدارتها - يعني تفضيل الأرباح الشخصية على المصالح العامة.

تجتاح التغيرات التقنية المشهد المعلوماتي بسرعة فائقة لا تتيح الفرصة لأي شخص معرفة كيف سيبدو بعد عشر سنوات من الآن. ولكن الآن هو الوقت المناسب للتحرك، إذا أردنا تمرير التغيير لمصلحة الجميع. نحن بحاجة إلى تشريعات حكومية لمنع الاحتكار وإلى تفاعل بين المكتبات لتطوير برنامج مشترك. الرقمنة والدمقرطة - ليست معادلة سهلة، ولكنها الوحيدة التي ستنجح إذا كنا ننوي تحقيق أهداف جمهورية رسائل، والتي بدت ذات مرة حلماً مثالياً ميؤوساً منها.

مفقود وموجود في الفضاء السيبراني

كُتبت هذه المقالة في آذار/مارس 1999، عندما كنت أُطلق مشروع غيتنبرغ الإلكتروني Gutenberg-e في الجمعية التاريخية الأميركية، وأُصمم في الوقت نفسه كتاباً إلكترونياً e-book قمت بالتخطيط لإصداره شخصياً. واليوم، وبعد عشر سنوات لا أزال أكتبه، ولكنني انتهيت من توثيقه، وسأُتيح هذه الوثائق على الإنترنت بينما أُنهي باقي الكتاب.

كالعديد من الأكاديميين فإنني على وشك القفز داخل الفضاء السيبراني، وأنا مصاب بالرعب. ماذا سأكتشف هناك؟ ماذا سأخسر؟ وهل سأتوه؟

مع اقترابي من حدود الويب، تتملكني عاطفة نحو وسائل المعرفة القديمة: المحاضرات والكتب. أليس مدهشاً أن الاثنين لا يزالان يتمتعان بحيويتهما في جامعاتنا، بعد قرون من الاستخدام، رغم بزوغ ما يسمى عصر المعلومات؟

رغم إعجابي بزملائي الشباب الذين يضمّنون الموسيقى والصور التي تنتج من الكمبيوتر في محاضراتهم، إلا أنني لا أزال أُفضّل الحديث المباشر مع طلابي متسلحاً بالطبشور واللوح الأسود. إني مؤرّخ، وعندما أعمل في المحفوظات، أكتب ملاحظاتي على بطاقات وأبوّبها في "علب الأحذية"،

بينما أفراد الجيل الجديد حولي يعملون على كمبيوتراتهم المحمولة ويحمّلون صور وثائقهم على كاميراتهم الرقمية. وأنا أُحب الكتب، أعني الكتب القديمة، والأقدم منها هو الأفضل. وكما أرى، فقد وصلت ثقافة الكتاب ذروتها عندما جدّد غيتنبرغ الكتاب القديم، والذي أجده في بعض نواحيه متفوقاً على الكمبيوتر، حيث يمكنك تقليب صفحاته والتعليق على حواشيه وأخذه إلى الفراش وإيداعه بسهولة على رف.

وبعيداً عن شوائبها الشكلية، فإن النصوص التي تنتج من الكمبيوتر تقدّم شعوراً بالتفوق على المكان والزمان. فهي تحمل وصلات إلى الويب، ونحن نعتبر الويب فضاءً لا نهاية له. فباعتقادنا أن الويب يصلنا بكل شيء، لأن كل شيء أصبح رقمياً، أو سيصبح كذلك قريباً. ومع توفّر محرك بحث قوي، نعتقد أننا سنحصل على القدرة للوصول للمعرفة حول أي شيء على سطح البسيطة - وأي شيء حول الماضي. فهي كلها متوفرة على الإنترنت بانتظار من ينزلها ويطبعها.

هذا الانطباع حول الفضاء السيبراني يتشابه كثيراً مع محاولة القديس أوغستين فهم الحكمة الإلهية — ذات المعرفة المطلقة والكلية، لأنها تمتد إلى كل مكان وحتى أبعد من المكان والزمان. كذلك، فإن المعرفة قد تكون مطلقة في نظام اتصالات حيث تمتد الوصلات إلى كل شيء - خلا، بالتأكيد، عدم إمكانية وجود شيء كهذا. فنحن ننتج معلومات أكثر بكثير مما يمكننا رقمنته، والمعلومات ليست بالضرورة معرفة بأي حال. ولمعرفة الماضي علينا الحفر في بقاياه لنتعلم كيف نكوّن معرفة عنه. ويؤمن الكثير من الناس بضرورة ترك المعاول تعمل للمؤرخين، ليراكموا معارفهم الخاصة من الكتب التي يؤلفها هؤلاء الأكاديميون.

وللأسف، فإن للكتب أيضاً محدوديتها. وأي مؤلف يعرف مدى التشطيب الذي يتم على النصوص قبل دفعها إلى المطبعة، كما أن أي

باحث يعرف كم هي قليلة المواد المؤرشفة التي يمكن دراستها قبل الشروع بالكتابة. وقد تمتد المخطوطات إلى ما لا نهاية. فستفتح علبة، وتسحب مجلداً وتفتحه لتتناول رسالة وتقرأها، لتتساءل ما الذي يجمعها مع باقي الرسائل في باقي المجلدات في جميع العلب، وليس فقط في هذا المخزن ولكن في كامل الأرشيف في كل مكان، والذي لم يُقرأ بغالبيته الساحقة من الباحثين. والواقع أن معظم الناس لم يكتبوا رسائل، ولقد اختفت معظم البشرية في الماضي دون أن تترك أثراً على وجودها. ولكتابة التاريخ من الأرشيف يعني جمع القليل من هنا وهناك مما نعتقده مناسباً لتكوين صورة ذات مغزى. ولكن النتيجة بشكل كتاب في التاريخ، لن تتمكن من التقاط كامل التجارب اللانهائية، كما لم يتمكن أوغستين من إدراك الفكر الإلهي.

باختصار، إن الوسائط التقليدية لا تتمتع بقدرات أفضل من الوسائط الإلكترونية للتمكن من الماضي. ولكنْ هناك شيء غير حقيقي حول التخمين. إن رؤية قواعد البيانات أو علب المخطوطات الممتدة إلى ما لا نهاية لا تقدم ملاذاً للمؤرخين المتابعين مواضيعَ محددة في الأرشيف. ومهما كان ذعرهم من نظرية المعرفة كبيراً، فلديهم مشاكل ضخمة لحلّها. أما في حالتي، فلدي دزينات من علب الأحذية ممتلئة ببطاقات الفهرسة تناديني لتحويلها إلى كتاب - كثيرة جداً، وفي الواقع، إنها كثيرة جداً لأتمكن من ضبطها في كتاب واحد. لذلك فكّرت في القفزة: أريد أن أكتب كتاباً إلكترونياً.

ولكن، إلى أين يأخذني خيالي. إلى كتاب إلكتروني لا يشبه الكتاب العادي، يضم عدة مستويات مرتّبة بشكل هرمي. يمكن للقراء تحميل النصوص والبحث في المستوى الأول المكتوب كرسالة علمية. فإذا كانت تفي بحاجتهم، يمكنهم طباعتها وتجليدها (أصبح باستطاعتنا

اليوم وصل آلات التجليد إلى الكمبيوتر والطابعة)، ثم دراستها في الوقت المناسب. أما إذا وقعوا على شيء مهم، فيمكنهم نقر أحد المستويات للوصول إلى ملحق إضافي، كما يمكنهم الاستمرار بحثاً داخل الكتاب عبر مجموعات من الوثائق، والمسارد، والصور، والشعارات والموسيقى المرافقة، وكل ما يمكنني تقديمه لإتاحة القدر الأكبر من فهم موضوعي. وفي النهاية، يمكنهم جعل الموضوع موضوعهم الخاص، لأنهم سيكتشفون طريقهم الخاص عبره، عبر قراءة أفقية أو عمودية أو جانبية وإلى أي اتجاه تأخذهم الوصلات الإلكترونية.

لا شك أن وصف الكتاب الإلكتروني شيء وتحضيره شيء آخر، ولكن من الصعب مقاومة تحدي التجربة لأي شخص يتمتع بالخبرة الأرشيفية التي ذكرتها لتوي. مرة تمكنت من قراءة جميع علب أرشيف محدد، أوراق ناشر فرنسي - سويسري Société typographique de Neuchâtel: 50,000 رسالة، الأرشيف الوحيد الكامل المتبقي لدار نشر من القرن الثامن عشر. كذلك قرأت معظم الوثائق في مجموعتين كبيرتين في المكتبة الوطنية الفرنسية: مجموعة Anisson-Duperron وأوراق نقابة المطابع وبائعي الكتب في باريس. مجموعة سوية، تقدم هذه الوثائق نظرة مذهلة عن كتب العالم في عصر التنوير، ولكنها أخذتني أحد عشر صيفاً وثلاثة فصول شتاء على مدى خمس وعشرين سنة لقراءتها.

لا يعني هذا أنني عانيت. فنوشاتل مدينة جميلة في منطقة كروم جيدة على طرف بحيرة وخلف سلسلة من الجبال، وباريس تشبه الجنة. ولقد نتج عن البحث عدة كتب ومقالات. ولكنها تركت بين يدي آلاف بطاقات الفهرست التي لم أستخدمها مطلقاً - وكذلك شعور أنني لم أصل إلى محتويات الموضوع كاملة. فالوثائق لا تُظهر ماذا طبع الناشرون فقط، بل كيف قرروا النشر؛ وليس إلى أين ذهبت الكتب،

ولكـــن كيف نقلها المهربون والشاحنون في جميع مراحل النقل؛ وليس فقـــط من كتبها، ولكن كيف فهم الكتّاب عملية الكتابة؛ وليس فقط مـــاذا شـــرّع الملك لضبط تجارة الكتاب، ولكن كيف تآمر المراقبون ومفتشو الشرطة والبيروقراطيون والجواسيس لإخضاع الكتاب. وتفتح المـــادة الـــباب أمام طرق جديدة للتفكير في تاريخ الأفكار والاقتصاد والـــسياسة والمجتمع، وهي تثير إمكانية التعرف إلى القدرة التي يدعوها الفرنـــسيون: القـــصة الكاملة - تاريخ كامل للكتاب كقوة في فرنسا عشية الثورة الفرنسية.

ولكـــن الكـــلام أسهل من الفعل. وفي محاولات سابقة لإنجازه، كتـــبت فـــصلاً مـــن مائة صفحة حول الورق كأحد عناصر الكتاب وأودعته أحد الأدراج. كما كتبت 75 صفحة حول تجارة الكتاب في "وادي لوار"، لأكتشف أنها مكتظة بالتفاصيل إلى درجة لن يُقدم أحد علـــى قـــراءتها. كمـــا حضّرت دراسة عن الطريقة التي فتح فيها أحد المهـــربين طـــريقاً في دلتا الرون الغنية بصناعة الكتاب، وأخرى كيف تمكـــن بائع كتب في "بيزانسان" من ابتداع طريقة للتملص من قانون 1777 الـــذي يمنع القرصنة، وأخرى حول أنشطة المراكز التجارية في فرســـاي، وأخـــرى حول حياة وكيل أدبي في باريس، وأخرى حول مغامـــرات ممـــثل مبيعات (قضى خمسة أشهر يسوّق الكتب على ظهر فرس في معظم الجنوب والوسط الفرنسي، حيث انهار الفرس في لودن، ليبتاع دابة، كل هذا مسجل في تفاصيل دفتر حساباته)... ويمكنني أن أســـتمر طـــويلاً في هذا، مسجلاً موضوعاً بعد آخر، ولكن لا يمكنني وضعهم في كتاب. كان هناك الكثير لأكتب عنه. وكلما كنت أشرع بفـــصل جديد، وجدت نفسي أخوض في الكثير من التفاصيل بشكل ضـــاع فيه الموضوع، وكان علي التوقف، خوفاً من قضاء بقية حياتي

أعمـــل كموثّق لأنشطة Société typographique de Neuchâtel، وكتابة مجلدات لا يقرأها أحد، حتى ولو تجرأ أحد على نشرها.

الجـــواب هو كتاب إلكتروني. ليس لأن المنشورات الإلكترونية تقـــدّم طريقاً مختصراً، وليس لأنني أسعى إلى وضع جميع محتويات علب أحـــذيتي على الإنترنت. عوضاً عن هذا، فإنني أخطط أن أعمل على المـــواد بطـــريقة مخـــتلفة: تغطية المواضيع الأهم بأفضل سرد متضمناً دراســـات قصيرة مع مختارات من أغنى الوثائق في المستويات السفلى. وسيتمكن قرائي من الوصول إلى كل ما يريدون وفي جرعات يختارونها مـــع إمكانية وصل أعمالي مع آخرين يعملون في مجال تأريخ الكتاب. كـــتاب إلكتـــروني حول تاريخ الكتب في عصر التنوير! موضوع لا أستطيع مقاومته. لذلك سأقفز نحوه.

ومهما كانت نتيجة قصتي، آمل أن تكون مفيدة لآخرين في نفس الموقف. وليس هناك من موقفين متماثلين تماماً، وأنا أعرف ذلك. ولقد كـــان للقليل من المؤرخين متعة ورفاهية العمل لأجيال في سجلات لم يمـــسّها أحـــد قبلهم. ولكن لا بد أن كل حامل لشهادة الدكتوراه قد عـــانى من صعوبات توضيب مواد صعبة لتصبح مناسبة للقراءة. وإنني علـــى قـــناعة من أن الإنترنت ستغيّر عالم القراءة. ولقد بدأ التحول. وأعـــتقد أن من واجبنا أن نتولى أمرها للحصول على أعلى المستويات من الماضي بينما نطور تلك الحديثة للمستقبل. أي مكان أفضل للبداية من الطلاب الذين يحضّرون أطروحاتهم؟ مع خبراتهم على الكمبيوترات منذ نعومة أظافرهم، لا شك أنهم سيعرفون طريقهم عندما يقفزون نحو الفضاء السيبراني، أما أنا فسأبقى على حدوده، متمسكاً بعلب أحذيتي وأي مـــتاع فكري آخر يبقيني مستمراً، بما فيها بعض المجلدات القديمة جداً، مثل "الاعترافات" و"مدينة الله" من تأليف أوغستين.

الباب الثاني

الحاضر

الكتاب الإلكتروني والكتاب التقليدي

عـــندما نُـــشر هذا البحث أصلاً في صفحة مراجعات الكتب في صحيفة نيويورك تايمز في 18 آذار/مارس 1999، تضمَّن شرحاً مفصلاً حول تضخّم أسعار المجلات الأكاديمية وتأثيراتها الكارثية على المكتبات ودور النشر الجامعية والمستقبل المهني للأكاديميين الناشئين. وهذا الوضع لا يزال مسيطراً حتى الآن. وفي الواقع، لقد أصبح أكثر سوءاً، ولكنني قمت بتكثيف مطالعتي حوله هنا لأن الفكرة نفسها تتكرر في مقالات لاحقة، وذلك سعياً لتجنب التكرار.

لم يـــتحقق المستقبل كله الذي توقَّعه مارشال ماكلوهان. الويب: نعم، الانغماس العالمي بالتلفزيون: لا شك، الرسائل ووسائل الإعلام في كـــل مكان: بالتأكيد. ولكن العصر الإلكتروني لم يتمكن من الكلمة المطـــبوعة كما توقع ماكلوهان في العام 1962. ولقد تحققت رؤياه في كـــون جديـــد أبعد من تقنيات الطباعة. وإذ ألهبت خيالنا لأجيال في القـــرن العشرين، ولكنها لم توفّر خريطة للألفية التي ندخلها اليوم. ولا يزال "مدار غيتنبرغ" موجوداً، كذلك فإن "فنيّ التنضيد" لا يزال يقوم بعمله.

دعونا نفكر في الكتاب. إنه يتمتع بقوة استمرارية. ومنذ اختراع الكـــتاب في وقـــت مماثـــل تقريباً لولادة السيد المسيح، أثبت أنه أداة

رائعة – عظيم لحفظ المعلومات، مناسبٌ لتقليب صفحاته، مريح لحضنه، رائع للحفظ، وملفتٌ في صموده ضد التلف. فهو لا يحتاج إلى ترقية أو تحميل، إلى وصول أو استنهاض، إلى توصيل كهربائي أو تنزيل من الويب. تصميمه بهجة للعين، وشكله متعة للاقتناء، ولقد حوّلته سهولة مناولته إلى أداة أساسية للتعليم لآلاف السنين، حتى عندما كان القارئ بحاجة إلى بسط لفافته للقراءة في العصور الغابرة قبل أن يُنشئ الإسكندر الأكبر مكتبة الإسكندرية في سنة 332 ق.م.

لماذا نستمر إذن في سماع توقعات حول اندثار الكتاب؟ ليس لأن ماكلوهان كان على حق، ولكن لأن الحروف المتحركة لا يمكنها التحرّك بسرعة تتناسب مع سرعة الأحداث. فمعظم الكتب الإلكترونية تخزّن نصوصاً يتم تنزيلها من باعة كتب على الشبكة، ثم تعرضها على شاشة صفحة تلو أخرى. ولقد أتاح مشروع JSTOR الذي طورته "مؤسسة أندرو ميلون" كميات كبيرة من المجلات الأكاديمية على الشبكة لتشتريها المكتبات غير القادرة على شراء الأصل. وتنشر مكتبة نيويورك العامة معلومات هائلة إلكترونياً للقراء حول العالم، إلى درجة أنها أحصت عشرة ملايين دخول إلى نظامها المعلوماتي في كل شهر من العام 1999 مقابل 50,000 كتاب تم استعارتها من غرفة القراءة في شارع 42. ويبدو أنه يتم رقمنة كل شيء، وكل حرف يتم وصله تشعبياً إلى جميع الحروف. وإذا حمل لنا المستقبل صحفاً دون أخبار، ومجلات دون صفحات، ومكتبات دون جدران، فماذا سيحصل للكتاب التقليدي؟ هل سيمحيه النشر الإلكتروني من الوجود؟

لقد سمعنا هذا التوقع تكراراً منذ تصميم الكتاب الإلكتروني الأول في العام 1945، ذاك الجهاز المزعج والبشع الذي كان يدعى Memex. ولكن منذ ذلك الوقت، فإن موت الكتاب التقليدي قد

أعلن مراراً، إلى درجة أننا لم نعد نقلق من فراغ رفوف المكتبات يوماً. واليوم، وبعد أن أصبح معظم الأميركيين يستخدمون الكمبيوتر، أمسوا ينتجون ويستهلكون ورقاً مطبوعاً أكثر من أي وقت آخر. وحتى بيل غيتس، رئيس مايكروسوفت، اعترف مؤخراً في محاضرة له أنه يفضل الأوراق المطبوعة أكثر من شاشة الكمبيوتر للقراءات الطويلة:

لا زالت القراءة عن الشاشة أدنى مستوى كثيراً من القراءة عن الورق. حتى أنا الذي أملك هذه الشاشات الثمينة وأتصور نفسي كرائد في دنيا الويب، عندما يأتي الوقت لقراءة أكثر من أربع أو خمس صفحات، فإني أقوم بطباعتها لأنني أحب أن أمسكها وأتجول بها وأعلق على مضمونها كتابة. ولا شك أن هناك عقبة تقنية كبيرة للوصول إلى هذا المستوى.

ويقول غيتس إن على التكنولوجيا أن تتطور "جذرياً" قبل أن تتحول "جميع الأعمال التي نقوم بها على الورق اليوم إلى الشكل الرقمي". وباختصار، فإن الكتاب التقليدي المطبوع على ورق مطوي وموضّب، ليس في وارد الاندثار في الفضاء السيبراني.

إذاً لماذا هذا الإعجاب الكبير في النشر الإلكتروني؟ يبدو أنه تكوّن عبر ثلاث مراحل: مرحلة أولية من الحماس المثالي الحالم، فترة مخيبة للأمل، وميول جديدة نحو استشراف عملي. في البداية، اعتقدنا أننا قادرون على إنشاء فضاء إلكتروني ووضع كل شيء فيه، ثم دعوة القراء إلى تدبر أمورهم. ثم تعلمنا أن لا أحد مستعد لقراءة كتاب عن شاشة الكمبيوتر أو البحث بين أكوام من الأوراق المطبوعة. والآن نواجه إمكانية إلحاق الكتاب التقليدي مع المنشورات الإلكترونية المصممة خصيصاً لأهداف وجمهور محددين.

وأفضل موقع لصالح الكتاب الإلكتروني يعود إلى النشر الأكاديمي، ولكن ليس في جميع حقوله بل في نواحٍ كبيرة من الإنسانيات والعلوم الاجتماعية حيث أصبحت الرسائل العلمية مرتفعة الأكلاف إلى درجة لا يمكن إنتاجها. ويبلغ مستوى المصاعب حداً شديداً إلى درجة بات يغيّر المشهد التعليمي. ويأتي هذا نتيجة مشاكل ثلاث نشأت بطريقة تجعل من الرسائل العلمية تبدو كسلالة مهددة بالزوال.

لقد رفع الناشرون التجاريون من أسعار المجلات، وخاصة في العلوم الطبيعية، إلى درجة تسببت بفوضى في ميزانيات مكتبات الأبحاث. ولتتمكن من المحافظة على مجموعاتها من المجلات، اضطرت المكتبات إلى الحد بشكل كبير من اقتناء الرسائل العلمية. ونظراً لانخفاض طلب المكتبات، اضطرت دور النشر الجامعية إلى الحد من نشر الرسائل العلمية في الحقول الأقل طلباً، مما أغلق الباب في وجه الأكاديميين الذين يودون نشر أبحاثهم في هذه الحقول. وهذه الأزمة لها علاقة بحركة الأسواق وليس القيمة العلمية، وينعكس تأثيرها بشكل خاص على هؤلاء الأشد حاجة إلى تخطيها: الجيل الجديد من الأكاديميين الذين يتوقف مستقبلهم المهني على نشر أبحاثهم.

وبنظرة متمعّنة في جميع نواحي الأزمة، نتبين أنها ابتدأت في السبعينيات، عندما شرعت أسعار المجلات العلمية ترتفع صعوداً. أما الآن فإنها انطلقت تحلّق دون أي ضوابط. وبحلول العام 2007، وصلت قيمة الاشتراك السنوي للعديد من المجلات العلمية إلى أكثر من 20,000$. فمجلة الفيزياء النووية على سبيل المثال تكلّف 21,003$ ولقد ارتفعت تكاليف اشتراك مكتبات الأبحاث في المجموعات بنسبة 320% خلال عشرين عاماً. ويعتبر شرف النشر في المجلات الأغلى ثمناً ذا أهمية خاصة

للتقدم المهني خاصة في العلوم المتقدمة، إلى درجة تجد المكتبات الجامعية استحالة في إقناع الهيئات التعليمية قبول إلغاء هذه الاشتراكات. لذلك فإنها تتعايش مع الضغوطات على ميزانياتها عبر التضحية بعدم نشر الرسائل العلمية مقابل المحافظة على اشتراكاتها في المجلات العلمية. وحتى سنوات قريبة كانت الرسائل العلمية تشكّل نصف ميزانية مقتنياتها على الأقل. أما اليوم فإنها غالباً ما تعادل 25%.

أما وجه الأزمة الآخر فيهدد الحياة الأكاديمية عند نقطة شديدة الحساسية: ميزانيات دور النشر الجامعية. وبناء لرأي عام بين محرري السبعينيات، فإن دور النشر الجامعية كانت تعتمد على بيع 800 نسخة من كل رسالة علمية إلى المكتبات. أما اليوم فالرقم وصل إلى 300 مما لا يكفي لتغطية التكاليف. وبالتالي لم يعد بإمكان دور النشر التأكد من بيع المكتبات كتبها التي كانت لا تستطيع مقاومتها سابقاً. فلقد بيع من المجلد الأول من "أوراق بنجامين فرانكلين" في العام 1959، 8,047 نسخة. أما المجلد 33 والذي نشر في العام 1997، فلم يبع منه سوى 753 نسخة. وتلجأ دور النشر الجامعية غالباً عند انخفاض الطلب الأكاديمي، إلى نشر كميات أقل من الكتب الأكاديمية، وتركز على إصدار كتب تهتم بمواضيع محلية أكثر شعبية، وقد يعترض البعض أن لدينا الكثير جداً من الرسائل العلمية – فالكثير مثل القليل كما يقول المثل. ويتهم النقاد الأساتذة أحياناً بأنهم يكتبون لبعضهم بعضاً بدل معالجة مواضيع تهم عامة المواطنين. ولا شك أن بإمكان الرسائل العلمية التحول إلى مرض، إذ يبدو أنها تقتل اختصاصات محددة مثل النقد الأدبي، حيث تُنفر الجعجعة المتأنقة والرمزية القراء العاديين. ولكن معظم الأكاديميين قد قاوموا أكثر أنواع المرض ضرراً، إضافة إلى أن بعض العلوم رغم أهميتها تظل مقتصرة على فئة محددة. ويبقى السؤال: هل يمكن

لمؤلف صاحب رسالة علمية قيّمة – مادة هامة ولكن غير جذّابة، ذلك النوع من الكتب الذي ازدهر منذ عشرين عاماً – أن يتوقّع نشرها؟

وإذا سألت الأساتذة والناشرين فلا شك أنك ستصاب بالإحباط. فالعديد منهم يوردون قصصاً حول رسائل علمية ممتازة كاسدة. أما أفضل القصص المرعبة التي أعرفها فتتناول عملاً رائعاً عن الثورة الفرنسية فاز بثلاث جوائز هامة وبيع منه 183 نسخة بالتجليد الخاص و549 نسخة بالتجليد العادي. ولا شك أن بعض المواضيع، كالحرب الأهلية الأميركية، لا تزال تشهد إقبالاً. ورغم أن بعض دور النشر قد أهملت بعض الحقول، ولكن من البديهي عدم إمكانية إلغاء أي منها، كما أن مجرد وجود حقول مميزة على أخرى يشكل مشكلة للعديد من الحقول الأخرى. فالمشهد الأكاديمي يبقى شديد التعقيد لنتمكن من فرزه إلى قطاعات؛ ولكنه وبشكل عام وإذا نظرنا إليه تجارياً فإن واقعه يبدو كئيباً. وبغض النظر إذا كانت دور نشر كاملة ستسقط أم لا، فهناك استنتاج واضح: لا شك أن الرسائل العلمية هي في خطر.

ويفيض الخطر إلى منطقة المشكلة الثالثة: المستقبل المهني للأكاديميين الناشئين. فكل أستاذ مساعد يعرف المقولة المطلقة: "إذا لم تنشر، قضي عليك"، والتي تُترجَم إلى تصرّف مباشر: إذا لم تنشر رسالتك العلمية فلن يتم تثبيتك كأُستاذ. فمن الصعب بمكان لخريج جديد بدرجة الدكتوراه الحصول على وظيفة، ولكن هذا الأمر ليس سوى بداية الصعوبات – الانتقال إلى موقع جديد، اكتساب معرفة بالمواضيع التدريسية، إيجاد شريك وتأسيس عائلة، وفوق كل شيء نشر كتاب. ولنفرض أن أستاذاً مساعداً تمكن بعد جهد من تحويل أطروحته إلى رسالة علمية مميزة خلال ثلاث أو أربع سنوات، فهل سيتمكن من نشرها؟ في الأغلب لا.

إذا دخلت مكتب أي محرر في دار نشر جامعية، فسترى الأطروحات متراكمة أكواماً، العشرات منها. وسيشرح المحرر متنهداً أن الدار لا يمكنها نشر سوى اثنتين أو ثلاث منها، مضيفاً بتنهيدة أعمق بأن الدار تقع تحت ضغوط كبيرة من لجان التثبيت التي تريد رؤية كتب مطبوعة مترافقة مع مراجعات وتقارير القراء.

وترفض دور النشر الجامعية الانجراف نحو عملية التثبيت، وهي على حق في ذلك، ولكن عادة لأسباب خاطئة – أي، لأنهم ينظرون في الأساس إلى أرقام ميزانياتهم بدل الحد الفاصل لواجباتهم المهنية. وإذا نال هذا التدبير إعجابنا أم لم ينله، فدور النشر الجامعية تتولى دوراً قمعياً ضد التقدم المهني، ورغم هذا، لا يمكنها نشر معظم المخطوطات التي تستلمها. وعلى الأرجح، فإن كاتبي هذه المخطوطات لن يتمكنوا من الترقي إلى مرحلتهم المهنية التالية. وعوضاً عن هذا، سينضمون إلى قافلة الأساتذة المساعدين أو الملحقين المنتظرين أعمالاً مختلفة أتى وجدوها، وعادة برواتب منخفضة وحوافز غير كافية، ودون تقدير. ويبدو وكأننا نخرّج مثقفين مشابهين للبدو التائهين – عمال أكاديميين مهاجرين مع كمبيوتراتهم يعيشون في مقاعد سياراتهم الخلفية.

آخذين هذه المشاكل المتقاطعة والمتراكبة بعين الاعتبار، هل يمكن للنشر الإلكتروني أن يقدّم حلاً؟ تقف فترة الافتتان الأولى بالكتاب الإلكتروني، تلك الفترة المليئة بالحماس المثالي الحالم، كتحذير ضد كل التوقعات الواهمة. ويحمل الحالمون المثاليون إيماناً أعمى في فعالية "اليد الخفية" العزيزة على رجال الاقتصاد. ويقولون دعوا رجال الأعمال يضربون بقوة في الأسواق وستتولى محركات البحث الجيدة طرد الرسائل الإلكترونية السيئة.

هـذا النقاش قد يصح لبعض فئات البضائع الاستهلاكية، وربما للكتب التجارية أيضاً، آخذين نجاح مؤسسات تجارية مثل "أمازون" بعين الاعتبار. ولكن لهؤلاء المهتمين بالعلم والحياة الثقافية بشكل عام، فإن هذا النقاش يفوح إفراطاً بالتفاؤل: لا تفعل أي شيء ولا بد أن يحصل شيء ما. وفي الواقع، فإن الفضاء السيبراني مشابه للاقتصاد، أي أنه بحاجة إلى ضوابط. وعلى الأكاديميين وضع معايير. عليهم تحديد فحص لجودة العالم الأكاديمي، ويتم هذا عبر معالجة الأزمة عبر محورين: محور تحويل المبتدئين أطروحاتهم إلى كتب، ومحور تجارب المخضرمين بأنواع جديدة من العلوم.

بالتأكيد، يمكننا وضع أعداد لامتناهية من الأطروحات على شبكة الويب. وهناك العديد من البرمجيات لتقديم هذه الخدمة - وهي خدمة مميزة: فهي توفر الأبحاث للقراء. ولكن كقاعدة، فإن هذا النوع من النشر يؤمّن معلومات فقط، وليس ثقافة متطورة كاملة، وعلى الأقل ليس في معظم مواضيع الإنسانيات والعلوم الاجتماعية. وأي شخص قد قرأ أطروحات لم تُصقل بعد، يعرف ماذا أعني: إن الأطروحات ليست كتباً. وهناك عالم من الاختلافات يفصلهما. ولتتحول إلى كتاب، يجب إعادة تنظيم الأطروحة، تشذّب من هنا وتوسّع من هناك، وتكيَّف لحاجات القراء، وإعادة كتابتها من البداية إلى النهاية تحت إشراف محرر خبير.

يشير المحررون إلى إعادة العمل هذا على أنها "قيمة مضافة"، وهم يضيفون فقط بعض القيمة للكتاب. مراجعة تقييمية وتصميم للصفحات وتوضيبها وطباعتها، وتسويق الكتاب وإشهاره - وهناك حاجة إلى مجموعة من الخبرات لتحويل أطروحة إلى رسالة علمية. وبدلاً من تسهيل هذه العملية، فإن النشر الإلكتروني سيقدم المزيد من

التعقـــيدات، ولكن النتيجة قد تشكل إضافة كبيرة لقيمتها. وقد تضم الأطـــروحة الإلكتـــرونية ملاحق وقواعد بيانات غير محدودة. ويمكن وصـــلها مـــع إصـــدارات أخرى بطريقة تسمح للقراء اكتشاف سبل جديـــدة عـــبر مواد قديمة، ومتى تمَّ حل المشاكل التقنية، ويمكن عندها إنتاجها وتوزيعها بطريقة اقتصادية، مما يوفر أكلاف الإنتاج على الناشر ومساحة التخزين لدى المكتبة.

لا شـــك أن المشاكل كبيرة. فمصاريف التأسيس جمّة، والأسعار لن تنخفض، على الأقل ليس قبل أن تتمكن دور نشر فردية من تقديم مجموعات كاملة من الرسائل العلمية الإلكترونية، يمكن للمكتبات شراء كميات كافية منها لإتاحتها للقراء عبر إجازات للمواقع، حيث سيقوم القراء بتنـــزيلها والبحث في نصوصها، ثم طباعة المادة المناسبة وتجليدها في آلـــة متـــصلة بالطابعة، ثم حملها إلى المنـــزل للقراءة بشكل كتاب مخصص حسب متطلباتهم. أما التقنيات فهي متوفرة لتحقيق جميع هذه الخطـــوات. وفي الواقع، فإن نسخاً من كتب صادرة أصبح من الممكن إنـــتاجها إلكترونياً بمبلغ يقل عن 50$. ولكن لنشر رسالة علمية أصلية وأنـــيقة، على دار النشر الجامعية جمع جميع أجزاء نظام أصيل ومرتفع الجودة للإنتاج والتوزيع.

وفي حالـــة التاريخ، فهو فرع معرفي يتأثر نشره الأكاديمي بشدة بهذه الأزمة، ويبدو أن الكتاب الإلكتروني شديد الجاذبية له. ولا شك أن أي مـــؤرخ قـــام بأبحاث مطولة قد وقع في الإحباط لعدم تمكنه من التواصـــل وسبر أغوار الأرشيفات (السجلات) والماضي الذي لا نهاية لـــه. ولو تمكن القارئ من النظر داخل هذه العلبة، وإلى جميع الرسائل فـــيها، وليس الأسطر التي اقتبسها من الرسالة، وإذا استطعت فقط تتبع ذلـــك الأثر في نصوصي تماماً كما تتبعته عبر الإضبارات عندما شعرت

بحـــرّية الالتفاف للابتعاد عن الموضوع الأساسي، ولو استطعت إظهار طريقة تقاطع المواضيع خارج السرد لتمتد بعيداً عن حدود كتابـــي – ولا أعـــني أنه يجب إعفاء الكتب من ضرورات تشذيب النصوص إلى شـــكلها الصرف، ولكن بدل استخدام النقاش لإغلاق قضية – يمكننا عـــندها إنشاء طرق جديدة لوضع منطق في الدليل، وإمكانيات جديدة لفهـــم المادة الخام المبيتة في القصة، ووعي جديد للتعقيدات الناشئة عن تفسير الماضي.

إنني لا أدافع هنا عن تراكم المعلومات المطلق، أو أناقش وصلات إلى بنوك المعلومات. فالوصلات المتشعبة يمكنها أن تكون شكلاً معقداً مـــن الهـــوامش. وبـــدلاً مـــن تضخيم الكتاب، يمكننا تركيبه بشكل مستويات عديدة مثل الهرم. فيكون المستوى الأعلى ملخصاً للموضوع ويتوفـــر بتـــصميم كـــتاب ورقي عادي. ويضم المستوى الثاني نسخاً موســـعة لأوجه مختلفة من النقاش، ليست مرتبة بطريقة تتابعية سردية، بل كوحدات مستقلة مرتبطة بالمستوى الأول. أما المستوى الثالث فقد يتكون من وثائق مختلفة الأنواع تتوضح كلٌ منها عبر مقالات تأويلية. وهـــناك مـــستوى رابـــع قد يكون نظرياً أو تاريخياً مع منتخبات من معارف وأبحاث سابقة حولها. وقد يضم المستوى الخامس مواد تعليمية تـــتألف مـــن اقتراحات لنقاشات في الفصول، ومنهج دراسي، ورزم تعليمـــية. ويـــضم المستوى السادس والأخير تقارير القراء، والرسائل المتـــبادلة بين المؤلف والمحرر، وكذلك رسائل القراء، الذين قد يوفرون مجموعة كاملة من التعليقات خلال مرور الكتاب عبر مجموعات مختلفة من القراء.

قـــد ينـــتج عن كتاب كهذا نوع جديد من القراءة. وقد يقتنع الـــبعض بقراءة سريعة للمستوى الأول. بينما قد يطلب آخرون قراءة

عمودية متتبعين مواضيع محددة بعمق أكثر وصولاً إلى مقالات ووثائق مساندة. وهناك آخرون قد يبحرون في اتجاهات غير متوقعة، بحثاً عن وصلات تناسب اهتماماتهم، أو محاولين إعادة بناء المواد لما يتناسب وأهدافهم. وفي جميع الحالات يمكن طباعة النصوص المناسبة وتجليدها بناء لمتطلبات القارئ. وتستخدم شاشة الكمبيوتر للانتقاء والبحث، حيث تتم القراءة المعمقة عبر الكتاب التقليدي.

وبعيداً عن الحلم المثالي، قد تلائم الرسائل العلمية الإلكترونية حاجات المجتمع الأكاديمي عند نقاط تتركز فيها المشاكل. وقد توفر وسيلة منعزلة لتفحّص المشاكل، وفتح فضاء جديد لتوسيع المعرفة. وعالم المعرفة يتغير بسرعة لا تسمح لأي شخص التوقع كيف سيبدو بعد عشر سنوات من اليوم. ولكنني أعتقد أنه سيبقى ضمن مدار غيتنبرغ – ورغم أن المدار سيتمدد، فإن الشكر يعود إلى مصدر جديد للطاقة، الكتاب الإلكتروني، والذي سيعمل كإضافة وليس كبديل لآلة غيتنبرغ العظيمة.

الفصل السادس

مشروع غيتنبرغ الإلكتروني

مع حلول العام 1997 كانت قد تجمّعت في عالم الكتاب العديد من المشاكل التي مهّدت لإمكانية حصول تغييرات كبيرة. وتمنيت لو كان بإمكاني القيام بأي شيء تجاه هذا الواقع، ولو بشكل بسيط، حين اعتقدتُ بإمكانية إشراك جمعية المؤرخين الأميركية في مشروع يشجع نوعاً جديداً من الرسائل العلمية: أطروحات دكتوراه أُعيدت صياغتها لتنشر على الويب ككتب إلكترونية. وبعد انتخابي رئيساً للجمعية في العام 1999، كرست معظم سنتي 1997 و1998 للتخطيط لمشروع عُرف لاحقاً بمشروع غيتنبرغ الإلكتروني.

في البداية قمت بإعداد تصوّر أولي على أمل الحصول على تمويل المرحلة الأولى، وكانت خطتي، ولا زلتُ أفهمها في استعادتي هذه، تطوير وفحص نموذج لنشر الكتب الأكاديمية عبر الإنترنت. كما كان لها هدفان آخران: إحياء الرسائل العلمية في اختصاص التاريخ حيث أثبت النشر التقليدي عدم جدواه اقتصادياً، ودعم الأكاديميين الأغرار في انطلاقهم المهني، نظراً لمصاعب تنفيذ النشر بالطريقة التقليدية.

بعد دراسة عشرات تقارير حساب الخسارة والربح المالية، يتبين لي أن فهمي لاقتصاديات النشر كان في أفضل الأحوال، ساذجاً. لقد تصورتُ في البداية إمكانية وضع الكتب الإلكترونية على الويب مجاناً،

كمنشورات يكون الولوج إليها أيضاً مجاناً وتدعمها مؤسسات أو جامعات، تغطي الأكلاف لفترة كافية لاكتشاف إمكانية نجاح المشروع. وعندما استأنست برأي مؤسسة أندرو ميلون حول هذه الإمكانية في شباط/فبراير 1998، استلمت جواباً مشجعاً، إلى جانب سؤال مقلق: ما هي خطة عملي؟ لم أسمع قبل ذاك اليوم بخطة العمل. حقيقة، سبق أن كوّنت بعض المعرفة حول اقتصاديات النشر عندما عملت في هيئة تحرير دار نشر جامعة برنستون بين 1977 و1981. ولكنني لم أفهم النقص في معرفتي. وكهاوٍ مطلق، اعتقدت أن بوسع الكتب الإلكترونية تقديم وسيلة لحصر النفقات، ليس في الجانب التحريري، حيث تبقى الخبرة حاسمة كما كانت دائماً، ولكن في جانب الورق والطباعة والتجليد، إضافة إلى مصاريف التخزين والنقل والخدمات، والتوضيب في المكتبات.

إضافة إلى هذا، فقد بدت هناك إمكانية لبيع الكتاب الإلكتروني، وخاصة إلى مكتبات الأبحاث، لأنه قادر على التعامل مع الأبحاث بطريقة جديدة. ويعود الفضل إلى الرقمنة التي ساعدت المؤلفين على تقديم وثائق ورسوم وتسجيلات صوتية وأفلام ووصلات إلى إصدارات أخرى، وجعلها ممكنة الوصول والتقاطع لتصل إلى مدارك أبعد بكثير من الكتاب التقليدي. ولا شك أن مهنة التاريخ كانت رديئة السمعة بسبب تزمّتها في الأمور المهنية. ولكن إذا تمكنا من انتقاء أفضل الأطروحات وتشكيلها في إصدارات نموذجية، فإن نوعيتها ومستواها قد يتغلبان على جميع الشكوك. وكان نجاح الكتاب الإلكتروني في حقل التاريخ منطلقاً لوضع المعايير لمختلف الإصدارات الأكاديمية على الويب، وعبر اختراق الحواجز التي منعت النشر الطباعي، فُتحت الطريق أمام مهن أكاديمية جديدة.

لقد جعلت صعوبة النشر في حقول مثل الاستعمار في أميركا اللاتينية وفي بدايات أوروبا الحديثة، لعنة مقولة "إذا لم تنشر، قُضي عليك" ترخي بظلالها بقوة على الجيل الجديد من الأكاديميين. وللتأكد، فإنهم يواجهون مصاعب جغرافية واقتصادية إضافة إلى العديد غيرها في نضالهم للفوز بشرف التثبيت. ولكن ما يكاد حامل شهادة دكتوراة يواجه الحاجة إلى تحويل أطروحته إلى كتاب، حتى تنصّب على رأسه مختلف المشاكل الطارئة. وإذا تمكنا من تركيز جهودنا على هذا المفصل الحساس، فقد نتمكن من تطوير وسيلة جديدة لنشر المعلومات، وتشريع الكتب الإلكترونية الأكاديمية، وتَقدُم المهن الأكاديمية في آن معاً.

لقد قدمتُ هذا الملخص في تصوري الأولي للمشروع إلى مؤسسة ميلون في بداية 1998. وعندها، وكما اليوم، كان القيّمون على ميلون مهتمين بدعم التجارب التي حملت أملاً لجعل وضع التعليم في العالم أفضل. ولقد طوّرتُ صداقات معهم منذ تجربتي الأولى في "مؤتمر الشرق والغرب في دراسات القرن الثامن عشر"، الذي جمع أكاديميين أغرار من جهتيّ الستار الحديدي لمدة أسبوع من النقاش الحاد حول أسئلة تتقاطع حول مواضيع أكاديمية وسياسية. هذا المشروع الذي أدرته لسبع سنوات بدعم مشكور من مؤسسة ميلون، قد يكون وفّر لي أُذناً متعاطفة من مجتمع الكتاب الإلكتروني. وفي جميع الأحوال وبغض النظر عن الغاية، فإن القيّمين على مؤسسة ميلون كانوا إيجابيين لطلبي الدعم ومنحوني هبة أولية لتغطية مصاريف انعقاد جمعية من الخبراء، الذين تقصوا مختلف أوجه الخطة وأصدروا توصيات لاقتراح بمنحة نهائية.

كشفت اللجنة التي انعقدت في 10 تشرين الأول/أكتوبر 1998، والمكونة في معظمها من ناشرين خبراء وأُمناء مكتبات ضعف أفكاري.

فلقد نبّه سانفورد ثاتشر، مدير دار نشر بن الوطنية، إلى استحالة تأكيد أي الحقول بالتحديد يمكن اعتبار رسائلها العلمية معرضة للخطر. وفي الواقع، فإن أحد أعضاء اللجنة علّق "أجد نفسي محرجاً في تقرير أي الحقول هي المعرضة للخطر بينما جميعها مهدد بالانقراض". ولقد أصرَّ كولن داي، مدير دار نشر جامعة ميشيغن، أن إعداد إصدار إلكتروني هو أكثر كلفة، وليس أقل، بسبب التعقيدات التقنية وضرورات التصميم: كيف يمكن للمحررين والمهندسين إنشاء عمل يتمتع "بالشكل والملمس" المطلوبين للنجاح في إطلاق وسيلة اتصال جديدة؟. كما عرضت آن أوكرسون، الأمينة المساعدة لمكتبة جامعة يال، مكامن التعارض بين الأهداف الثلاثة التي حددتها. وسألت هل من الممكن إصابة ثلاثة طيور بحجر واحد؟ ورغم هذا، فإن اللجنة صادقت على الفكرة الرئيسية لتطوير رسائل علمية إلكترونية لتحضير طريقة للنشر الأكاديمي في مستقبل توافق الجميع على تحوله رقمياً، وقدمتُ في نهاية تشرين الأول/أكتوبر اقتراحاً أكثر تواضعاً، فوافقت مؤسسة ميلون على منح جمعية المؤرخين الأميركية هبة كريمة لنشر مجموعة من كتب التاريخ الإلكترونية المعروفة باسم مشروع غيتنبرغ الإلكتروني.

بين العامين 2000 و2006، كفلت جمعية المؤرخين الأميركية منافسة سنوية لأفضل الأطروحات في مادة التاريخ، والتي اختارتها هيئات من المؤرخين المخضرمين البارزين. أما المبادئ التي انطلق منها البرنامج، كما نص الاقتراح الأساسي (استخدم الاقتراح الأخير لغة أكثر شكلية) إلى "إقرار النشر الإلكتروني عبر إغداق الفائزين بالحفاوة والتكريم للفت نظر لجان التثبيت والإدارات الأكاديمية. وإذا نجحت هذه الفكرة، يمكن نشرها لتغيير قواعد اللعبة في الحياة الأكاديمية. كما يمكن لها تشجيع تواصل أكاديمي من نوع جديد في وقت يرتبك فيه

الناشـــرون والمكتبيون حول طريقة اتخاذ الخطوة الأولى نحو حقل النشر الإلكتـــروني الصعب والخطر". ولقد حصل كلٌّ من الفائزين على مبلغ 20,000$، تُوقـــع صرفه على المزيد من الأبحاث ولتطوير الأطروحات لتتحول إلى كتب إلكترونية.

كانـــوا بالتأكـــيد بحاجـــة إلى المساعدة. وكناشرين، فقد اخترنا أكثـــرهم دعمـــاً، دار نـــشر جامعة كولمبيا، التي كانت ملتزمة النشر الإلكتـــروني أصـــلاً بفضل نجاح موقعها "شؤون كولمبيا الدولية على الشبكة – CIAO"، والذي يضم مجموعتها من المقالات وأوراق العمل حـــول العلاقات الدولية والتي وفرتها على الشبكة لقاء اشتراك. وبينما نظمـــت "جمعية المؤرخين الأميركية – AHA" مباريات الجوائز، تولت كيت ويتنبرغ إدارة نشر مشروع غيتنبرغ الإلكتروني من كولمبيا، حيث نظّمت حلقات دراسية نصف سنوية، تدعمها منحة إضافية من ميلون، لكـــي يـــبحث الفائـــزون الجدد المختارون مشاريعهم كمجموعة، ثم ليجـــتمعوا علـــى انفراد مع المحررين ومهندسي الكمبيوتر والمصممين وغيرهـــم من المختصين بالكتاب. كما حضر الحلقات فائزون سابقون إضـــافة إلى محررين من دور نشر أخرى. وهكذا، بدأت الخبرات التي تكونت في كولمبيا تنتشر عبر صناعة النشر وعالم الجامعات.

قـــبل أن تثمر الحلقات الدراسية نتائجها، مرّت بنا صعوبات غير منتظـــرة. فقد كان هناك عدد قليل من المتقدمين، رغم الكم الكبير من الدعاية والتغطية الصحفية خلال سنوات المنافسة الأولى. ولقد علمنا أن مرشـــدي تحضير الأطروحات لم يشجعوا طلابهم على المنافسة، لأنهم كانـــوا يخـــشون أن لا يُعتبر الإصدار الإلكتروني على الشبكة ككتاب حقيقـــي عـــندما يحـــين وقت الترقية والتثبيت. ولقد ساهمت الأفكار الغامـــضة والجامدة حول مكونات الكتاب في حرمان الرسائل العلمية

الأولى في غيتنـــبرغ الإلكتـــروني من الانتشار والمراجعة. ولقد ساعد مايكل غروسبرغ محرر مجلة التاريخ الأميركي في تخطي هذه الإعاقة عبر تطويـــر نظـــام لمراجعة الكتب الإلكترونية بشكل عام، كما أرسلت جامعـــة كولمبـــيا نسخاً مطبوعة عن النصوص الإلكترونية للمراجعين الـــذين لا يودون البحث والقراءة عبر شاشة الكمبيوتر. ولتعزيز أرقام المرشـــحين لجأنا إلى فتح الباب أمام مجموعة أوسع من المواضيع، لنسلّم أخيراً بالأمر الواقع وهو فشل محاولاتنا إحياء الرسائل العلمية في الحقول التي تعتبر في خطر.

يعـــود الفضل في ارتفاع معدلات الترشح خلال السنوات القليلة الماضـــية مـــن البرنامج إلى جهود AHA والدعاية المكثفة عبر رسالتها الإخـــبارية Perspectives، وحفـــلات توزيع الجوائز خلال مؤتمراتها السنوية. عندها، مع ذلك، كان علينا مواجهة مشكلة أخرى: فمع أن الأطـــروحات الفائـــزة كانت رائعة، والفائزون أظهروا أرقى مواهب جيلهم، فإن القليل من المؤلفين استطاع إنهاء كتبه الإلكترونية في الوقت المحـــدد حـــسب الـــبرنامج الموضـــوع. ذلك أن عملية تأليف الكتب استنـــزفت وقتاً أكثر من الزمن الذي استغرقه إعداد الأطروحات، كما أن الكـــتاب الإلكتـــروني أظهـــر صعوبة مضاعفة في إصداره. ولقد واجهـــتهم عقبات في الحصول على أذونات حقوق النشر وشراء المواد التوضـــيحية والتـــزيينية. وخـــلال هذه المدة قام العديد منهم بتأسيس عـــائلات، والـــتحقوا بوظائف جديدة، وسهروا ليالِيَ طويلة في إعداد كتـــبهم أو في تربية أولادهم. ولكن، من أين لهم إيجاد الوقت والطاقة الكافيين لإعداد نوع جديد من الكتب؟

نتـــيجة لهذه الصعوبات، تعطّل خط إنتاج دار نشر جامعة كولمبيا ممـــا أثّر في المبيعات، التي كانت تتم عبر الترخيص للمكتبات بشرائها

عبر المواقع. أما الاشتراك السنوي للوصول إلى جميع الكتب كمجموعة رقمية فكان 195$، كما أن الكتب الإلكترونية المنفردة بيعت بسعر 49.50$. وبحلول كانون الثاني/يناير 2005 ومع انتهاء مفعول المشروع، تمَّ بيع 77 اشتراكاً مؤسسيًّا، مما يكفي، بناء لحسابات كايت ويتنبيرغ لتغطية التكاليف. وفي ذلك الوقت، فإن دار نشر جامعة كولمبيا وكغيرها من دور النشر الجامعية تعرضت لضغوط اقتصادية كبيرة. لذلك قررت عدم تمويل برنامج مختصر – أما AHA فقد أبدت استعدادها الاستمرار في إدارة المنافسة شرط أن تكون الجوائز شرفية وحسب – بعد انقضاء مفعول الدعم في 2005. وفي النهاية، أتاحت دار نشر جامعة كولمبيا كامل أعمالها الخمسة والثلاثين على منصة مجانية الدخول. وفي الوقت نفسه، تبنّى الكتب المجلس الأميركي لتعليم المجتمع في برنامج مواز للكتب الإلكترونية في الإنسانيات، والمتوفرة بناء لاشتراك لتُحفظ إلى أجل غير مسمى.

هل يمكن اعتبار مشروع غيتنبرغ الإلكتروني ناجحاً؟ أعتقد – ولنكون عادلين – أنه ينبغي وضع الكتب التي نشرها المشروع ضمن فئتين. الأولى تضم النوعية الأفضل والمعارف الأكثر إبداعاً من الخريجين الذين دخلوا المهنة في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. مثل "باب البحار"، الذي لا يختلف كثيراً في "شكله وملمسه" عن الرسائل العلمية العادية المطبوعة، لأنه يُقرأ بالتوالي صفحة إثر أخرى وفصلاً تلو آخر. أما الفئة الثانية مثل "ذكريات مُلزمة" فهي تكرّس الصوت والفيديو والصور والنصوص بالوصلات المتشعبة بطرق تدعو القارئ للقفز في عدة اتجاهات وراء وظائف ووصلات البحث. وبشكل عام فإن الكتب الإلكترونية قد استكشفت مجموعة واسعة من الإمكانات التي يمكن ابتكارها عبر التقنيات الرقمية.

أمـــا المراجعات فكانت بشكل عام مؤيدة ولكن دون حماس. و لم يـــناقش أي مُراجع جودة المعرفة، كما لم يقصّر أحد في إطراء المجلدات المنفردة. ولكن المجموعات كاملة بدت مخيبة لباتريك مانينغ، البروفسور في جامعة نورث إيسترن الذي نشر أوسع نقد لها. "إن مشروع كتب غيتنـــبرغ الإلكتروني يقدم مساهمة هامة في حقولهم، ولكنهم لم يحققوا أي اختـــراقات بشكل فردي أو عبر مجموعات"(*). أما سانفورد ثاتشر الـــذي تابع المشروع من مسافة حرجة من بداياته فكتب تقييماً إيجابياً يقول في نهايته: "لا زلنا بعيدين جداً من اكتشاف حل لتحوّل الرسائل العلمـــية مـــن الطـــباعة إلى البيئة الإلكترونية. ولكن مشروع غيتنبرغ الإلكتـــروني... يجب أن يبقى كمصدر إلهام ومعرفة اختبارية لسنوات قادمـــة، ولا شك أنه سيثبت على المدى الطويل صواب الاستثمارات التي وُظّفت فيه"(**).

يجـــب أن يصبح من الممكن في المستقبل غير البعيد الوصول إلى إجماع حول قيمة مشروع غيتنبرغ الإلكتروني، لأنه من الصعوبة بمكان مقارنـــة الـــتجارب في النشر الإلكتروني مع ظاهرة التاريخ العالمي التي تتحدى التفسيرات الحاسمة - ذلك النوع الذي طرحه ماوتسي تونغ في إجابته (على الأرجح المنسوبة له) على أهمية الثورة الفرنسية: "من المبكر الإجابـــة". فهـــل وقع مشروع غيتنبرغ في صعوبات جراء أخطاء في تصميمه أو لأنه سبق عصره؟ إني أُفضّل الإجابة الثانية، مع أنني منحاز بالتأكيد. ولكنني أعتقد أن المشروع عمل كتجربة ويمكن تطبيقه اليوم

(*) باتـــريك مانينغ، "دخول إلكتروني لمشروع غيتنبرغ الإلكتروني إلى هيئة تعليم التاريخ"، مجلة التاريخ الأميركي، 109 (كانون الأول/ديسمبر 2004)، 1506.

(**) ســـانفورد ثاتـــشر، "مـــن دور النـــشر الجامعية - ما بعد مشروع غيتنبرغ الإلكتروني: أو لماذا لا زال حلم روسّ اتكنسون حلماً"، مجلة Against The Grain (كانون الأول/ديسمبر 2008 - كانون الثاني/يناير 2009)، ص 72.

كمنشأة داعمة. وهناك جمهور متنام من مستخدمي الخدمات الرقمية الذي يفضّل القراءة عن الأجهزة. كما أن هناك الكثير من القراء الأكبر سناً الذين اعتادوا الإبحار في النصوص والبحث عن البراهين عبر الوصلات بدل تقليب الصفحات المتسلسلة. ورغم أن الكتاب التقليدي لا يزال مسيطراً، فإنه لم يعد المرجع الوحيد. ولا تزال التجارب قائمة على العديد من النماذج الرقمية والهجينة. وخلال هذا، فإذا كانت هناك من دروس للتعلُّم من مشروع غيتنبرغ، فيجب أخذ الأدلة الموثقة بعين الاعتبار. لذلك فإني أعتقد أن الوثيقتين التاليتين جديرتان بالاهتمام، لأنهما تظهران نوعية الإجماع في هذه المرحلة - بالنسبة للطموح المبدئي لمشروع غيتنبرغ وفوائده المعرفية - وكيف سيكون بعد خمس سنوات.

1. اقتراح المنحة في العام 1997

تطلب "جمعية المؤرخين الأميركية - AHA" الدعم لبرنامج من ثلاث سنوات يرمي إلى تشجيع نشر رسائل علمية إلكترونية عالية الجودة. وستنظّم الجمعية مباراة وطنية لثلاث جوائز تقدم سنوياً لأفضل الأطروحات في حقول تبدو الرسائل العلمية فيها مهددة بالخطر - أي، حقول أو فروع تتردد دور النشر الجامعية في طباعتها. وستخصص جائزة لأفضل أطروحة أو مخطوطة أولية لكتاب بقلم مؤرخ مستقل - أي، شخص لا تدعم أبحاثه مؤسسة ما. وتبلغ قيمة الجائزة $20,000 بشكل زمالة تُستخدم لاستكمال تأليف الكتاب ونشره، والذي ستضعه دار نشر جامعية على الويب، ليتم الوصول إليه عبر إجازات في مكتبات الأبحاث، رغم إمكانية الوصول إليه عبر الدفع عند الطلب.

الهدف

لا يهـــدف الـــبرنامج إلى مكافأة المبرّزين في العلوم بجوائز محترمة وحـــسب، ولكن للاستفادة من جو الفخامة الذي تشيعه – الشرائط الزرقاء التي تقدمها أفضل لجان التحكيم مع مرجعية كاملة للجمعية – لوضـــع معايير رفيعة للنشر الإلكتروني. كذلك نأمل تشجيع العلوم في حقول تجد دور النشر الجامعية صعوبة في تغطية أكلافها، كما نرمي إلى دعـــم الأكاديميين الناشئين الذين يجدون صعوبة في نشر نتاجهم. وعبر قونـــنة النـــشر الإلكتروني، قد تتمكن الجمعية من كسر طوق اللجان الجامعـــية التي ترفض اعتبار الإصدارات الإلكترونية كتباً حقيقية. وعبر الاســـتفادة القصوى من الوسط، فقد تمهّد إلى انطلاقة جديدة للكتاب نفسه كوسيلة معرفية.

التصميم

ســـتعلن الجمعية عن مباراة الجائزة عبر موقعها على الويب، وفي منـــشوراتها، وبشكل خاص مجلة Perspectives، نشرتها الشهرية، وفي مجـــلات أخرى مثل "مجلة التعليم العالي". وعبر وحدة خدمة الاتصال التي تصلها بجميع فروع التاريخ في البلاد، ستدعو عميد كل فرع يقدم بـــرنامج دكـــتوراه لاختيار أطروحة أو اثنتين نوقشتا خلال السنوات الـــثلاث الأخـــيرة. كذلك ستدعو المرشحين المستقلين والرسميين عبر المنظمات مثل المجلس الوطني للتاريخ العام، والتجمع الوطني للأكاديميين المستقلين، والجمعية الوطنية للكليات الملحقة.

وستكون المنافسة محصورة سنوياً في اختصاصات كان من الصعب عادة نشر رسائلها العلمية. وهذه الاختصاصات ستكون:

في 1999: أميركا اللاتينية وإفريقيا وجنوب آسيا المستعمَرة.

في 2000: أوروبا قبل العام 1800.

في 2001: التاريخ الديبلوماسي والعسكري، وليس الأميركي في المقام الأول.

ستقوم لجنة مكونة من ثلاثة مؤرخين مخضرمين بتحكيم المباراة. وإذا دعت الحاجة، فقد يتم إرسال بعض النصوص لمراجعتها من قبل أخصائيين، الذين يمكن انتقاؤهم من قاعدة بيانات المراجعين المحفوظة لدى مجلة المؤرخين الأميركية، ولكنهم سيصلون إلى قراراتهم الخاصة وسيشرحون أسبابها عند التنويه بالفائزين وسيتم استخدام ذلك كتقارير لناشري الأطروحات الفائزة. وسيعرض المحكّمون أسماء الفائزين بالتصفية الأخيرة، بحيث إذا رفض الفائز الأول الجائزة – لتفضيله النشر بالطريقة التقليدية – فستعود للمؤلف التالي، وهكذا دواليك نزولاً في القائمة. وسيرتبط المؤلفون بعقدٍ لنشر أعمالهم إلكترونياً يوقّعونه مع دار نشر جامعية، ستختارها جمعية المؤرخين كناشر لكامل السلسلة، كما أن العقد سينص على نشر كتاب ورقي بالطريقة التقليدية لاحقاً. وسيتم تجليد عدد قليل من الكتب بطريقة فنية للتقديم كهدايا وللمراجعين. وخلال عملية اختيار الأعمال الفائزة ستكون درجة امتياز العمل هو المسيطر. وستخدم تقارير اللجان كشهادات بأن الكتب الفائزة قد استوفت أرفع معايير التحكيم المهني.

ستحتفل جمعية المؤرخين الأميركية بالفائزين في احتفال كبير خلال مؤتمرها السنوي، كما أنها ستعمم أعمالهم بشكل مكثف في منشوراتها. وسيستلمون منحة $20,000 مع التفاهم على تكريسها لتحضير أفضل كتاب إلكتروني ممكن. وهكذا يمكنهم الحصول على إجازة فصل دراسي من جامعاتهم للقيام بالمزيد من الأبحاث. ولكن سيكون منتظراً منهم إعادة كتابة نصوصهم لتتلاءم مع النسق

الإلكتروني وذلك تحت إشراف محررين مختصين في دار النشر الجامعية.

للتمكن من تحويل الأطروحات الجافة والمسودات النهائية إلى كتب جاهزة، علينا الاستفادة من ما تدعوه دور النشر الجامعية "الخدمات الإضافية" - أي، العمل التحريري، ومراجعة النصوص، والتصميم، إضافة إلى الخبرة الإلكترونية. وبناءً لوجهة نظر دار النشر، فإن هذه التجربة قد يكون لها بعض الفوائد، لأنها قد تفتح الطريق أمام تطوير وتحسين برنامج النشر الإلكتروني. وفي الحقيقة، فإننا نأمل أن تعمّ الفوائد كامل صناعة النشر إضافة إلى المجتمع الأكاديمي. ولكن لتكثيف الفوائد، فقد وصلتنا نصائح تحذّر من توزيع الرسائل العلمية بين العديد من الناشرين أو إنشاء تجمع من الناشرين. لذلك، فإننا نقترح، ائتمان البرنامج لدار نشر جامعية واحدة تتعهد الالتزام المطلق بها. وسيستلم الناشر إعانة مالية يمكن صرفها بأي طريقة يراها مناسبة، كتوظيف موظفين وتدريبهم. ونحن نفضّل ترتيباً لمدة ثلاث سنوات لضمان الاستمرارية وتحضير قائمة خاصة: سلسلة جوائز الرسائل العلمية من جمعية المؤرخين الأميركية تصدرها دار النشر الجامعية. وستتولى دار النشر التسويق والمبيعات. كذلك ستقوم بتسلم العمل، رغم أن الجانب الفني ستتولاه مجموعة مكتبات الأبحاث (RLG).

وإذا تمّ هذا عبر دار النشر الجامعية أو عبر مجموعة مكتبات الأبحاث (RLG)، فإن عمليات التسليم ستتكون من:

1. **توجيهات للمؤلفين**: تطوير صفحات نموذجية لإرشاد المؤلفين والمحررين إلى معايير ذات مستويات متطابقة مع نوعية الوثيقة المطلوبة.

2. **تصميم فضاء إلكتروني**: آلية تخزين وبحث واسترجاع مع إمكانية الوصل مع وثائق أخرى وقواعد بيانات، ليتمكن القراء من الإبحار عبر الوثيقة، والباحثون على الويب من التعرف إلى موجز وقائمة المحتويات وربما فصل نموذجي.
3. **التسليم والبيع**: ننتظر من دور النشر الجامعية بيع مجموعة من ستة كتب فائزة إلى مكتبات الأبحاث لقاء مبلغ محدد، مفسحين المجال أمامها لتدبير أمر الطباعة للقراء. ويمكن لمجموعة مكتبات الأبحاث أن تعمل كوسيط لتأمين ضبط الولوج وبرمجة المدفوعات وإدارة تدابير الرخص. وقد تفضّل دور النشر الجامعية القيام بهذه المهمات بنفسها، وكذلك تجهيز خدمة القراءة على الطلب. ويجب أن يبقى هذا الجانب من البرنامج طيعاً. فالتقنية أصبحت سريعة التغيير، وتفيدنا تجاربنا الأخيرة مع ابتكارات جديدة مثل "دوكيوتك" DocuTech بأنه أصبح من الممكن حل مشاكل الطباعة والتجليد في المستقبل القريب.
4. **الفهرست**: يمكن لمجموعة مكتبات الأبحاث ضمان صحة فهرست الرسائل العلمية وأن معلومات الفهرست منتشرة عبر الخدمات المكتبية مثل RLTN التي تملكها وتديرها.
5. **الحفظ**: تحفظ مجموعة مكتبات الأبحاث نسخاً عن ملفاتها على الشبكة كما تخزّن نسخاً في أماكن أمينة وبعيدة. وهذه العملية هي في غاية الأهمية، لأن المكتبات لم تطور حتى الآن طريقة فعالة لحفظ النصوص الإلكترونية.

على دور النشر الجامعية أن تتمتع بحريّة قرار توكيل هذه الفعاليات إلى مجموعة مكتبات الأبحاث. وبغض النظر عن الطريقة التي ستدار بها، يجب أن تقدّم تجربة هامة في تطوير وتقدير أكلاف البنية التحتية.

عناصر إضافية

يجب على برنامج جوائز الرسائل العلمية الإلكترونية، العمل كمشروع تجريبي لتقديم المعلومات حول إمكانية تطبيق النشر الإلكتروني في حقلي العلوم الاجتماعية والإنسانيات. وبهذه الحالة، يجب التنسيق بينها وبين البرنامج الأوسع الذي يطوره المجلس الأميركي للمجتمعات المتعلمة، كما يجب تطويره وتوسيعه باتجاهات مختلفة. وعلى سبيل المثال يمكن لجمعية المؤرخين الأميركية والمجلس الأميركي للمجتمعات المتعلمة الاستفادة من بعض المؤرخين المخضرمين لنشر رسائل علمية إلكترونية بالتزامن مع كتب الجوائز. فإذا وافق شخص مثل برنارد بايلين أو ناتالي ديفيز على ذلك، فإنه سيدفع شرعنة الفعاليات قُدماً إلى الأمام. ولن يكون المال الدافع في مثل هذه الحالة، بل الفرصة للمساعدة في تطوير نوع جديد من الكتب، كتاب يذخر بوصلات وثائقية مكثفة إضافة إلى إمكانيات الإبحار.

كما يمكن وصل كتب الجوائز مع إصدارات جمعية المؤرخين الأميركية، وجعلها جميعاً متاحة للمكتبات كمجموعة متكاملة مترابطة بوصلات إلكترونية. هذه الإصدارات يمكن أن تضم: دليلاً للأعضاء يضم أسماء 15,000 مؤرخ مفهرسة بدقة لتضم جميع الأبحاث الحالية، ودليل المنشورات التاريخية من جمعية المؤرخين الأميركية الذي تنشره حالياً دار نشر جامعة أُكسفورد، إضافة إلى سلسلة كتيباتها التي تنشرها الجمعية، كما تنشرها دار نشر جامعة تمبل بشكل كتاب، ومجلة Perspectives، وإعادات لمراجعات من مجلة المؤرخ الأميركي (أو إعادات مترافقة مع مراجعات لمقالات خاصة في مراجعات للكتب من جمعية المؤرخين الأميركية)، وربما قوائم كتب قيّمة أو أعمال مفقودة من الأسواق. وبالطبع، فإن جميع المشاريع المماثلة تستدعي مفاوضات

معقدة مع أصحاب الحقوق، ولكن يمكن لها أن تكون مشتركة وداعمة ومؤسِّسةً لشيء أعظم وأكثر قابلية للحياة مادياً من مجموع مكوناتها.

نذكر هذه الإمكانات ليس كعناصر من البرنامج الحالي، ولكن كعناصر محتملة يمكن تطعيمها به في المستقبل، أو يمكن إلحاقها مع برامج أخرى - مثل المجلس الأميركي للمجتمعات المتعلمة أو مؤسسات أخرى مثل جمعية مكتبات الأبحاث ومؤسسة العلوم الوطنية، والتي تحاول تعميم النشر الإلكتروني (هناك برنامجان يتم تطويرهما حالياً تحت اسمي "بناء المكعبات" و"شبكة توزيع الدراسات التاريخية"). وفي هذه المرحلة من تطور برنامج جوائز جمعية المؤرخين الأميركية، يبدو من المستحسن المحافظة على الرسائل العلمية بشكل مبسّط. وعلى لجنة التحكيم التركيز على اختيار العلوم ذات النوعية الأفضل، كما يجب تشجيع المؤلفين على تحويل أطروحاتهم إلى كتب إلكترونية بطريقة مباشرة - أي، بدون وصلات معقدة إلى الوثائق وقواعد البيانات، أو "بهرجات"، بناء لثرثرات المجتمع الإلكتروني.

الإطار الزمني

خلال شهر كانون الثاني/يناير الماضي، وافق مجلس جمعية المؤرخين الأميركية على الإصدار الأولي من هذا البرنامج، والذي سمحت به مختلف أقسام ولجان جمعية AHA. ولقد عيّن جوزف ميللر، رئيس الجمعية لجنة من عشرة أشخاص، يرأسها روبرت دارنتون، الرئيس المنتخب، لدراسة البرنامج من جميع جوانبه للوصول إلى إصدار نهائي. وعقدت اللجنة المكونة من ممثلين من دور النشر الجامعية، والمكتبات، ومجموعة مكتبات الأبحاث، وباحثين علميين، مباحثات مطولة عبر البريد الإلكتروني والهاتف. كما حرّر خمسة أعضاء أوراقاً للنقاش حول

أكثـــر الأسئلة صعوبة. ولقد أثارت هذه الأوراق المزيد من المباحثات ونـــتج عنها جدول أعمال للقاء، عقد في واشنطن بتاريخ 10 تشرين الأول/أكتوبر. ورغم بعض الخلافات على بعض التفاصيل، فقد نتج عن اللقـــاء إجماع حول الشكل العام للبرنامج. ويؤكد الاقتراح الحالي هذا الإجماع، بعد تطويره إثر جلسة نقاش أخيرة بين ستة دور نشر جامعية: ســـانفورد ثاتـــشر مـــن دار بن ستيت، وكولين داي من دار جامعة ميـــشيغن، وكايت ويتنبرغ من دار جامعة كولمبيا، وجون أكرمان من دار جامعـــة كـــورنل، ولين ويثي من دار جامعة كاليفورنيا، وإدوارد باري من دار جامعة أُكسفورد.

وإذا تأمّن التمويل، سيتم تقديم البرنامج للموافقة من مجلس جمعية المـــؤرخين الأميركية خلال جلسته القادمة في كانون الثاني/يناير. ذلك أنـــه تمَّ إعـــلام المجلس خلال جميع مراحل العمل، وليس من المنتظر أن يـــواجه البرنامج معارضة خطرة. لذلك، يمكن الإعلان عن المباراة في مطلع العام 1999، كما يمكن تقديم الجوائز للفائزين خلال انعقاد مؤتمر AHA في شـــيكاغو في كانـــون الثاني/يناير 2000، وعندها قد تصدر الكتب الأولى خلال سنة من هذا.

وللتأكد، فإن هذه الرزنامة لا تترك الكثير من الوقت للتقييم كما لتطويـــر البرنامج. لذلك فالمطلوب وسيلة للتقييم، وربما تقرير من لجنة مـــستقلة أو من جمعية دور النشر الجامعية الأميركية (AAUP). ورغم هـــذا، فقـــد تمرُّ عدة سنوات قبل التمكن من الحكم إذا كان برنامج الجوائـــز يقـــدم نموذجاً صالحاً لتعتمده فروعٌ ودور نشر أخرى. يمكننا تحقـــيق الكـــثير خلال ثلاث سنوات، ولكن قد يتوجب علينا التقدم لتجديد المنحة في العام 2001.

مسائل ومشاكل

إن الأهداف المتعددة للبرنامج - تعميم النشر الإلكتروني، وإنقاذ الرسائل العلمية المهددة، وتسهيل الأمور أمام الأكاديميين الأغرار - تتوافق مع مجموعة من المشاكل التي تتقاطع في قلب الحياة الأكاديمية. وهذه المشاكل تتعلق بميزانيات المكتبات ودور النشر الجامعية وعملية التثبيت، ولكن لا يمكن حلها بوسيلة واحدة. وإذا تمكن عرضنا من تخفيف الضغط في قطاع واحد، فإنه قد يجعل الحياة أسهل في قطاعات أخرى، ولكنه قد يثير أيضاً خطر محاولة تنفيذ العديد من المهمات في وقت واحد أو العمل باتجاهات متعارضة. ولقد نبّه العديد من أعضاء اللجنة إلى الحاجة إلى تحديد الأولويات، وقررت اللجنة بشكل عام أن تطوير رسائل علمية إلكترونية من الطراز الأول لا بد أن يكون في طليعة الأولويات.

وعندما انطلقت أعمال اللجنة، اعتقدنا أن بمقدورنا تحديد الحقول التي تتهدد رسائلها العلمية. ولقد قام سانفورد ثاتشر باستفتاء غير رسمي بين أربعة عشر مدير دار نشر جامعية، استنتج منه أن دور النشر الجامعية مترددة في النشر في حقول مثل تاريخ إفريقيا والاستعمار في أميركا اللاتينية، ولكنه أبرز عدة استثناءات لهذه القاعدة جعلته يخلص إلى عدم إمكانية فصل أي حقل عن قائمة التهديد. ولقد شرح ذلك مدير إحدى دور النشر، "إن أكثر من نصف الإنتاج المناسب للنشر مهدد". ولكنه لم يستطع هو أو أي ناشر آخر قياس درجة الخطر بدقة، أو حصره بدقة في اختصاصات محددة. وفي الواقع فإن مطلق فكرة اختصاصات محددة ودائمة تبدو ملتبسة. فكتاب حول معتقد ديني كان شائعاً في البيرو خلال القرن السابع عشر مثلاً، يبدو وكأنه ينتمي إلى إختصاص شديد الخطر، وهو، أميركا اللاتينية المستعمرة، ولكنه قد يبيع جيداً بين

طـــلاب الـــدين والثقافة الشعبية، وعلم الإنسان. ولقد أكد بيتر غيقلر رئيس جمعية دور النشر الجامعية الأميركية (AAUP) نظرية الصعوبات هـــذه وحذّر أن الجمعية لن تنهي مسحها للحقول المهددة في المستقبل القـــريب. ولـــو أظهـــرت الجمعية مخططاً واضحاً للحقول، تظهر فيه إشارات التحذير من الخطر، لتمكنّا من تحوير برنامجنا بناءً عليه. وحالياً مـــن المستحسن التركيز على نواحٍ تظهر فيها أكبر الأخطار وكذلك تجـــنُب المواضيع المزدهرة والمطلوبة مثل أميركا الحديثة والحرب الأهلية ودراسات الجندر أو النوع الاجتماعي.

ولقـــد ناقشت اللجنة أيضاً ما دعته مشكلة "المخزون الخطر" التي أثارتهـــا مـــشاكل تسويق الكتب. لذلك حذّر الناشرون والمكتبيون في اللجـــنة أن مجموعة من الكتب حول مواضيع مختلفة في حقل جغرافية الـــتاريخ قد لا تبدو مشجعة للاقتناء من مكتبات الأبحاث، خاصة إذا كانـــت مـــرتفعة الأســـعار. وقد تبدو سلسلة حول موضوع محدد – دراســـات عـــصر النهضة، مثلاً – مغرية للاقتناء لمكتبة أبحاث، ولكننا نـــسعى إلى نشر المواضيع بشكل أكبر لجذب جمهور أكبر مؤيد داخل اختصاص التاريخ. وعبر تحديد المنافسة بين حقلين، وتغييرهما كل سنة، نأمـــل إيفـــاء حاجيّ التركيز والتنوع. ونحن لا نحمل أي أوهام حول اقتـــراح مجمـــوعة من النصوص المتآلفة في موضوعها لإنشاء وصلات متـــشعبة داخل مجموعة الفائزين بالجوائز. (بناءً لإحدى القواعد، هناك حاجة لوضع 500 كتاب في قاعدة بيانات قبل أن يتمكن قراء الشبكة من إجراء بحوثهم التقاطعية). ولكن إذا عمل هذا كمشروع اختباري، فقـــد يفتح الطريق أمام غيره، مثل محاولات أكبر كالبرنامج الذي يجب تطويره عبر المجلس الأميركي للمجتمعات المتعلمة. وعلى المدى الطويل، علينا التمكن من تطوير تواصل مهم.

حالياً، إننا نقف على خط الانطلاق في سباق قصير، ومن المؤكد أننا سنواجه صعوبات. وفي الواقع فإننا نواجهها حالياً. ثلاث منها استمرت في الظهور مع الناشرين: 1. رغم بعض الاختبارات المفيدة، فإن منشأة كهذه لم يتم اختبارها بعد ولا زال يكتنفها الكثير من الفرضيات. 2. إن أكثر التخمينات معرفة هي في تناقض متبادل، على الأقل في بعض التفاصيل الهامة. 3. رغم تناقضها، فإن جميع التقديرات تشير إلى إمكانية ارتفاع كلفة إنتاج الرسائل العلمية إلكترونياً، خاصة إذا كانت تعج بالبهرجات (الكماليات) التقنية. ولكن دار نشر جامعة كولمبيا والتي تتمتع بخبرات جمّة في النشر الإلكتروني تؤكد إمكانية إنتاجها لبرنامج مضبوط وقابل للاستمرار. وتشكل تقديراتها الأساس للميزانية التي ستتبع.

ماذا نستنتج؟ لا نجرؤ على إعطاء الوعود حول الأمور الأساسية والاستنتاجات، ولكن يمكننا وضع برنامج قابل للتنفيذ، يؤمّن انطلاقة لحلّ مجموعة من المسائل في قلب الحياة الأكاديمية في البلاد. وأقله، فإن هذا البرنامج سيولّد المعرفة الضرورية للحصول على معرفة أفضل عن هذه المشاكل. ولكننا ننتظر منه المزيد، إذ عليه فتح الطريق أمام نوع جديد من الاتصالات الأكاديمية، والرسائل العلمية المتماسكة. وتبدو بعض نماذج الكتاب الإلكتروني أهلاً للتكاثر في المستقبل القريب، ولكنها لن تكون ناضجة إذا لم تساهم منظمة مثل جمعية المؤرخين الأميركية (AHA) في تطويرها ووضع معاييرها وشرعنة المشروع بأسره في عيون المهنيين المتشككين.

روبرت دارنتون

الرئيس المنتخب، جمعية المؤرخين الأميركية

2. تقرير التقدم للعام 2002

الآن، وقد وصل مشروع غيتنبرغ الإلكتروني إلى منتصف طريق دورته الحياتية المكونة من ست سنوات، يمكنني تقديم بعض الانطباعات حول تقدمه، لقد أطلقنا أول كتب إلكترونية خلال مؤتمر جمعية المؤرخين الأميركية الذي عقد الشهر الماضي في سان فرانسيسكو. كانت لحظة سعيدة. كان الجو عابقاً بروح الانتصار، جراء عرضين قدمهما اثنان من الرابحين من فصلنا الأول، إغناكيو غالوب - دياز، ومايكل كاتن، مترافقين مع إعلان الرابحين الجدد، الذين يؤلفون فصلنا الثالث. وذاك قد يكون خطراً. إذ إننا قد نغرق في كمية متواضعة من تهنئة الذات، رغم أننا قد واجهنا بعض الصعوبات. وأحب أن أبحثها هنا، وأعرض اقتراحاتنا لحلها، تاركاً تفاصيل أنشطة السنة لتقرير فريق جمعية المؤرخين الأميركية، والتي تلي هذه الملاحظات.

ولقد عزمنا منذ بداية العام 1998 الإسراع في السير وأن يكون هدفنا عالياً. واليوم أعتقد أننا قد تسرّعنا. فالمنافسة الأولى جرت في العام 1999، وأُعلن الفائزون الأوائل في كانون الثاني/يناير 2000، وعقدت ورشات العمل الأولى بين 2000 و2001، ونُشرت أولى الكتب الإلكترونية في كانون الثاني/يناير 2002. ولكن كان هناك اثنان منهم فقط، رغم أن كتاباً ثالثاً تمَّ تقديمه في كانون الثاني/يناير، ورابعاً انتهى في آذار/مارس. إضافة إلى أن هؤلاء الذين فاتهم موعد التسليم كان لديهم أعذارهم الشرعية (في إحدى الحالات إصابة ابن أحدهم بمرض السرطان، وفي حالة أخرى حملٌ وولادة). ولكنني أعتقد أن الموعد الذي حددته دار جامعة كولمبيا - كان سنة في الأصل ومُدد إلى سنتين - لم يكن واقعياً. فالفائزون يواجهون مشاكل نشر كتبهم الأولى بينما يعالجون أموراً عديدة أخرى، كالحصول على وظيفة، والانتقال

مـــن مديـــنة إلى أخرى، وتحضير محاضراتهم الأولى، وتأسيس عائلات. لـــذلك قررنا تحديد مدة سنتين على أن نكون مرنين. ولن يكون هناك "إطلاق" سنوي لستة كتب، ولكن ستضعها كولمبيا على الشبكة عند توفـــرها. ولا شك أن بعضها سينتهي قبل الموعد المحدد. فغراغ براون مـــن الفصل الثالث يحتاج إلى عدة أسابيعَ لتقديم نصوصه الأخيرة والتي ستنـــشر قـــبل بعض الكتب الإلكترونية من الفصل الأول. والآن وقد ظهـــرت الكتب الأولى، فإن دار جامعة كولمبيا ستعرض فيضاً مستمراً مـــن المنـــتجات. وهذا قد يُنتج صعوبات في وجه قسم التسويق الذي خطط لبيع مجموعة سنوية مكونة من ستة كتب (يبلغ السعر الحالي 195$ للـــستة معاً، وهو سعر بخس برأيي). ولكن هناك حلول لهذه العقبات. مـــن جهـــتي أعتقد أنني أخطأت في رسم أحلام كبيرة. ففي السنوات الأولى، أكـــدت علـــى إمكانات الكتب الإلكترونية الإبداعية كوسيلة جديـــدة للتواصل الأكاديمي، ولقد شعر الفائزون الأوائل أنهم مكرهون علـــى الخروج بشيء متقن خلال فترة قصيرة. وفي أحاديث تحفيزية مع الفائـــزين، أكـــدت أهمـــية النوعـــية المطلقة وضرورة تجنب الميل نحو "البهرجة" (مع رجاء عذري لتكرار استخدام هذا المجاز اللغوي).

أمـــا المـــشكلة الثانية فتختص بأهدافنا السامية. لقد حاولنا إنجاز العديـــد من الأمور سوية: محاولة حل مشكلة الرسائل العلمية المهددة، وإبداع نوع جديد من الكتب، وشرعنته في عيون مجتمع مهنة التاريخ، لمـــساعدة المؤرخين الأغرار اجتياز المرحلة الأولى في مهنتهم، ولتكريم المؤرخين المستقلين الذين لا يعملون في التعليم العالي. وبدل أن نغرق في بحـــر من الترشيحات كما توقعت، استلمنا بعض الأطروحات في كل مـــن الـــسنوات الثلاث الأولى. ومع حلول مهلة تقدم متنافسي السنة الأخـــيرة، لم يكن بين أيدينا سوى أربعة تقديمات. ولقد أعدنا ترتيب

برنامجنا ووسّعنا أفق المنافسة لنجد بين أيدينا أسماء أربعين متنافساً. وفي النهاية، كنا سعيدين بالنتائج - ولكننا عوقبنا. والآن أعتقد أنه من الأفضل التركيز على إنتاج كتب إلكترونية مميزة، ذلك النوع القادر على تحديد المعايير وشرعنة الوسط في الوقت نفسه. لذلك فإننا نخطط لتوسيع مجال المنافسات التالية بدل حصرها في الحقول التي يصعب النشر فيها.

مشكلة ثالثة تجلّت في إدارة البرنامج. ففي السنة الماضية صوّت أعضاء مجلس جمعية المؤرخين الأميركية على سحب مسؤولية الإشراف اليومي على مشروع غيتنبرغ الإلكتروني من يدي ووضعها بين يدي قسم الأبحاث تحت إشراف نائب رئيس الجمعية. ولا أعتقد أن أحداً كان منزعجاً من إشرافي، ولكن كان هناك جو يوحي بأن مشروع غيتنبرغ يجب أن لا يكون لصيقاً باسمي بل يجب أن يعمل تحت جناح الجمعية. ولقد كان هذا القرار مناسباً لي، لأن المشروع استنزف كماً هائلاً من وقتي وقدراتي خلال سنوات أربع. وهكذا تراجعت إلى الصفوف الخلفية كعضو في اللجنة المشرفة، التي تهتم باختيار المواضيع وحكام المباراة السنوية. ورغم العمل الممتاز الذي قام به فريق الجمعية، فلم ينسّق شخص واحد جميع نواحي البرنامج. وهناك الكثير منها، وتشكل العقد الصغيرة عادة عقبات للمسيرة. لذلك، قررنا خلال اجتماع سان فرانسيسكو سحب مسؤولية إدارة البرنامج من قسم الأبحاث وتسليمها إلى المدير التنفيذي للجمعية، آرنيتا جونز التي تقدّر أهمية مشروع غيتنبرغ الإلكتروني لدى جمعية المؤرخين الأميركية، ولقد وعدت بتكريس جزء كبير من طاقاتها الضخمة لوضعه موضع التنفيذ. كذلك وظّفت مساعداً يحمل دكتوراه في التاريخ بدوام جزئي للمساعدة في الأعمال اليومية. وأعتقد أن هذا

الحل كان ممتازاً، وسأستمر في مشاركتي في البرنامج كعضو في اللجنة المشرفة.

يمكـــن دراسة تفاصيل أنشطة العام من التقارير المالية والأخبار. وأود ذكر موضوع واحد أخير: ما هو مصير هذه المبادرة عند نهاية البرنامج في كانون الثاني/يناير 2005؟ (لا شك أن مع تمديد موعد التسليم، فإن آخر الكـــتب الإلكترونية ستنشر في شهر كانون الثاني/يناير 2007). ولكن كونـــوا علـــى ثقـــة أنني لن أطالب بالتجديد. ولكنني أعتقد أنه على الجمعـــية أن تـــبني على الأسس التي أنتجها نجاح المشروع - ونجاحه واضـــح للعيان حتى في هذه المرحلة الأولى - لتحويل النشر الإلكتروني إلى نمـــوذج مشروع لنشر المعرفة. ورغم الضبابية التي تشوب أفكاري نـــوعاً ما الآن، فإني أعتقد أن على جمعية المؤرخين الأميركية استخدام مـــوقعها الجديد على الإنترنت "تعاونية التاريخ History Cooperative" لإنشاء سلسلة يمكن تسميتها "رسائل تعاونية التاريخ العلمية". وعليها نـــشر أطروحات رفيعة الجودة دون أي قيود في العدد أو الحقل، ولكن يجـــب ضمان نوعيتها عبر تقديمها إلى لجنة من الحكام الكفوءين. وقد تكـــون هناك عدة لجان، تمثّل كل منها حقلاً عاماً من الدراسات، أو لجـــنة من الحكام الكفوءين. وقد تكون هناك عدة لجان، تمثّل كل منها حقـــلاً عاماً من الدراسات، أو يمكن لهيئة تحرير مجلة التاريخ الأميركي الإشـــراف علـــى التحكـــيم، بشكل توسّع فيه أعمالها أبعد من تقييم المقـــالات. ويمكـــن نشر الأطروحات بوضعها الحالي، أو يمكن إعادة صياغتها ككتب إلكترونية. ولكن يجب ألاّ تتضمن التحول التحريري والإلكتـــروني المعقّد الذي ميّز كتب مشروع غيتنبرغ الإلكتروني. كما يجب إعطاء الفرصة لدار نشر جامعة كولمبيا لنشر السلسلة نفسها، إذا أرادت الاستمرار في مبادرة مشروع غيتنبرغ الإلكتروني بأسلوب آخر،

قـــد يـــضم محاضرات أكثر وتحريراً أقل. وقد تطلب دار نشر جامعة إيليـــنوي التي تتشارك مع تعاونية التاريخ أن تكون هي الناشر. وهناك العديـــد مـــن الإمكانيات التي يجب استكشافها، إضافة إلى العديد من المـــشاكل، بما فيها المالية، التي يجب حلها. ومهما حصل، فنحن ننصح بـــنوع مـــن المتابعة لمشروع غيتنبرغ الإلكتروني، إذ علينا التفكير الآن بالمستقبل الذي لا يبعد سوى أربع سنوات.

روبرت دارنتون

الرئيس السابق، جمعية المؤرخين الأميركية

الفصل السابع

الولوج المجّاني

كـــان الهدف من المقالة القصيرة التالية شرح فكرة الولوج المجاني قبل التصويت على قرار في كلية الفنون والعلوم في جامعة هارڤارد لتبني هذه الفكرة. ولقد نشرتها مجلة الجامعة Harvard Crimson، في 12 شباط/فبراير 2008، وتمَّ تبني القرار بالإجماع في اليوم ذاته. ومنذ ذلك الوقت تمَّ تبني العديد من القرارات المماثلة في كليات أخرى في هارڤارد وفي جامعات أخرى.

يسعى الاقتراح أمام كلية الفنون والعلوم، والخاص بالولوج المجاني إلى المقـــالات الأكاديمـــية إلى مساندة الانفتاح بشكل عام. وهو معني بتشجيع الوصول المجاني إلى المعرفة. وعبر المحافظة على حقوقهم لتحقيق أوســـع انتـــشار لأعمال الهيئة التعليمية، سيوفّر مجانية الولوج لأعمال أعـــضاء كلـــية الفنون والعلوم في أي مكان في العالم، كما أنه سيعزز مسعى جديداً مع هارڤارد لمشاركتها ثروتها الفكرية.

لقد اتخذت مكتبة الجامعة دوراً رئيساً في هذا المسعى. وبعيداً عن حفـــظ مواردها لبعض المحظوظين، شرعت برقمنة مجموعاتها الخاصة، لإتاحـــتها أمام الجميع على الشبكة بالتعاون مع غوغل في محاولة لجعل الكـــتب مـــتاحة للجميع، عبر العالم أجمع، والذي يمتد إلى كل مكان تصله شبكة الإنترنت. وإذ صوتت كلية الفنون والعلوم لصالح الاقتراح

في 12 شباط/فبراير، فإن هارفارد جعلت من أحدث أعمال أكاديمييها متاحة، تماماً كما تتيح الوصول إلى مخزن المقتنيات الذي راكمته منذ العام 1638.

يمثّل الاقتراح مناسبة لإعادة تشكيل المشهد الدراسي. ولقد أدى تحول في نظام نقل المعرفة إلى نشوء تضارب في قلب الحياة الأكاديمية، ونحن كأكاديميين نوفّر المحتوى للمجلات الأكاديمية. ونقوم بتقييم المواضيع كمراجع، ونعمل في هيئات التحرير، كما نقوم بالتحرير شخصياً، ورغم هذا فإن المجلات تفرض علينا إعادة شراء أعمالنا المنشورة بأسعار خيالية. والعديد من اشتراكات هذه المجلات تبلغ اليوم أكثر من 20,000 دولار سنوياً.

إن الارتفاع الصاروخي لأسعار اشتراكات المجلات قد أوقع أضراراً جمة في مكتبات الأبحاث، مُحدثاً تأثيراً ارتدادياً: ولتتمكن المكتبات من شراء هذه المجلات، لجأت إلى التخفيض من مستوى اقتنائها للرسائل العلمية، مما انعكس سلباً على دور النشر الجامعية التي خفّضت من مستوى نشرها، مما عرّض المستقبل المهني لجيل كامل من الأكاديميين في عدة حقول للخطر لاستحالة نشر أطروحاتهم. ومن السذاجة بمكان الافتراض بأن التصويت لكلية الفنون والعلوم في 12 شباط/فبراير قد يفرض على الناشرين تخفيض أسعارهم، ولكن عبر إقرار الاقتراح يمكننا البدء بمواجهة الانحرافات التي أدت إلى حجم كبير من الأذى.

وبالطبع، فإننا كأعضاء في الهيئة التعليمية لا ندفع الأكلاف العالية لشراء المجلات شخصياً، بل ننتظر من مكتباتنا تولّي هذه المهمة – مع جميع النتائج السلبية التي ذكرت. لذلك، فإن الاقتراح أمام كلية الفنون والعلوم يقدّم وسيلة لإعادة تنسيق أدوات التواصل بالطريقة الأفضل

للتعلُّم، مما سيشكّل الخطوة الأولى نحو تحرير المعرفة من براثن الناشرين التجاريين عبر جعلها حرّة الوصول من خلال مقتنيات جامعتنا. وبدل أن نتحول إلى ضحايا للنظام ونستسلم له، يمكننا الاستفادة من هذه المبادرة والسير بها إلى الأمام.

رغم أن هذه المبادرة موجهة إلى كلية الفنون والعلوم، ولكنها تهمُّ جميع كليات الجامعة، فجميعها تواجه المشاكل نفسها. فعلى سبيل المثال، فإن كلية الطب في جامعة هارڤارد تعمل على طرق لمساعدة أفراد هيئتها على الاستجابة لتشريعات الكونغرس الأخيرة التي تنص على ضرورة إتاحة جميع المواضيع التي ترتكز على الأبحاث التي تمولها مؤسسات الصحة الوطنية عبر قاعدة بياناتها PubMed Central والتي تحتفظ بها مكتبة الطب الوطنية.

ستؤسس مكتبة جامعة هارڤارد مكتباً للتواصل الأكاديمي لجعل الولوج المجاني إلى المقتنيات الرقمية وسيلة للوصول والبحث عبر مختلف الاختصاصات بروحية بيئة "الجامعة الواحدة" التي يطرحها كتالوغ HOLLIS لمقتنيات جميع المكتبات، وهناك أكثر من تسعين منها عبر النظام الجامعي. وسيشجع مكتب التواصل الأكاديمي أقصى تعاون من الهيئة التعليمية. وهناك العديد من المحفوظات الرقمية في جامعات أخرى، ولكنها لم تحظَ بنسبة كبيرة من مواضيع الهيئة التعليمية. وتبلغ نسبة الإيداع في جامعة كاليفورنيا 14 بالمئة، وهي أكثر انخفاضاً في معظم الجامعات الأخرى. وعبر تكفُلها الحفاظ على حقوق النشر عبر وضعها بين أيدي المؤسسات التي ترعى المحفوظات الرقمية، فإن الاقتراح سيهيئ الشروط المناسبة لنسبة مرتفعة من الإيداع.

إن الذي يميز اقتراح هارڤارد ويضعها في فئة مختلفة عن الآخرين هو تدبيرها الاحتياطي للانسحاب. وفي حين تعتمد المقتنيات الرقمية

الأخرى على تقديمات الهيئات التعليمية عبر التطوع لتوفير نسخ رقمية من أعمالهم، فإن نظام هارفارد يُلزم جميع أعضاء الهيئة التعليمية منح رخص غير حصرية للرئيس وزملائهم في هارفارد لجعل مواضيعهم مجانية الوصول عبر نظام المقتنيات الرقمية المفتوح، وسيكون النظام تعاونياً ولكن غير قسري. حيث بوسع أي شخص يحصل على قبول إحدى المجلات لنشر موضوعه حصرياً، المطالبة بوثيقة تنازل من الجامعة للانسحاب، وهي ستُمنح له مباشرة. ولا شك أن المتعاونين مع النظام سيحافظون على حقوقهم كاملة لنشر أعمالهم. وعبر مشاركة هارفارد بهذه الحقوق، فإنهم لن يتنازلوا عن أي شيء؛ وسينعمون بدعم هارفارد وراءهم إذا قرروا معارضة طلب مجلة علمية الحصول على حقوق نشر مواضيعهم حصرياً. ولقد صممنا مذكرة قانونية تحت عنوان "ملحق المؤلف" لدعمهم في مفاوضاتهم مع دور النشر التجارية.

وقد يستدعي تطبيق هذا الاقتراح جهوداً للتوعية، وسيكون هذا تدبيراً جيداً، لأن القليل من أفراد الهيئة التعليمية يعرف مدى إعاقة الوضع الحالي لعملية وصول المعرفة. ويوفّر الاقتراح لهارفارد إمكانية وضع نموذج للتعميم. وعوضاً عن نظام مُكلف ومغلق ينتفع به المحظوظون فقط، فإنه سيفتح عالم المعرفة أمام كل راغب - كما سيساهم في التعليم، لأن مكتب التواصل الأكاديمي قادر على تحديد طريق الوصول إلى مجتمع رقمي، حيث يمكن للأفكار الانتقال بحريّة في جميع الاتجاهات. ويمثّل اقتراح هارفارد خطوة واحدة فقط باتجاه هذا الهدف. ولكنه يُظهر كيف يمكن للتقنيات الحديثة فتح المجال لتجسيد مُثل قديمة، جمهورية رسائل تمنح مواطنيتها للجميع.

الباب الثالث

الماضي

أنشودة شكرٍ للورق

نُشرت هذه المقالة في العام 2001، وهي تصف عالمًا فقدناه، عالمًا كانت الأخبار فيه لصيقة الورق، وكانت الصحيفة المصدر الأساسي للمعلومات. منذ ذلك الوقت بدأت الصحف تختفي، لأنها تعتمد على الإعلانات التي هاجرت بدورها إلى الإنترنت، ولم يعد باستطاعتها في الكثير من الأوقات تغطية مصاريفها. وتظهر الأخبار اليوم على الويب، وغالبًا في رسائل قصيرة يتناقلها الناس العاديون بدل المحررين. اليوم، صار القراء العاديون يكتبون الأخبار.

رغم هذا، فإن "أنشودة الشكر للورق" التي وضعها نيكولسن بايكر في كتابه Double Fold، والتي مهدت لهذه المقالة، تبقى مناسبة في عصر الإنترنت، حيث استنكر بايكر استبدال الجرائد والكتب بالمايكروفيلم. أما اليوم فإننا نعتمد على الرقمنة، رغم أن النسخ الرقمية هي أكثر قابلية للعطب والتلف والاضمحلال من المايكروفيلم. ويعمد المكتبيون باطّراد إلى اقتناء الأعمال التي "وُلدت رقميًا" أو التي تظهر بصيغة رقمية، رغم أنهم لا يملكون وسيلة آمنة للمحافظة عليها، ولا يزال الورق الوسط الأفضل للحفظ، ولا تزال المكتبات بحاجة لملء رفوفها بكلمات طُبعت على الورق، إضافة إلى أن نتيجة الرقمنة كما هي حالتها على باحث كتب غوغل قد تكون خاطئة تمامًا كما كان

المايكروفيلم قبل أربعة أجيال. ويستحق كتاب Double Fold وقفة تأملية كونه يحذرنا عبر إثارة مواضيع تأبى الاستكانة.

عندما يناقش الصحفيون مهنتهم فإنهم يستحضرون كليشيهات متناقضة: "صحيفة اليوم هي المسودة الأولى للتاريخ"، و"ليس من شيء أكثر موتاً من صحيفة الأمس".

وفي الواقع، فإن العبارتين صحيحتان: فالأخبار تغذّي التاريخ بالوقائع، رغم أن معظمها يطويه النسيان. لنفترض أن الصحف اختفت من المكتبات: فهل سيختفي التاريخ من الذاكرة الجماعية؟ هذه هي الكارثة التي يتوقّعها نيكولسن بايكر في كتاب Double Fold: المكتبات، والحرب ضد الورق، اتهام موجه إلى مهنة المكتبات.

لقد أزال المكتبيون الصحف عن رفوفهم، يوضح بايكر، لأنهم يتصرفون وفق هواجس غير مبررة لتوفير المساحات في المكتبات. كما ضللوا أنفسهم ليصدّقوا أنهم لم يخسروا شيئاً، عندما استبدلوا الورق بالمايكروفيلم. فالمايكروفيلم غير مناسب، وناقص، ويخطئ ولا يُقرأ باستمرار. والأسوأ عدم وجود حاجة له من الأساس، لأنه بعكس وهم منتشر، فإن الورق على رفوف المكتبات لم يتحلل. ورغم بنيتها الكيميائية - حيث تتأثر عجينة الورق المصنعة بعد العام 1870 بالأحماض (الأسيد) - فإنها صمدت جيداً. ولقد امتدت مجزرة الورق هذه إلى الكتب. وهي أيضاً تباع، وترمى، وتُتلف اليوم بأساليب رعناء وبشعة يدعوها تجارب للحفاظ عليها. إن المؤتمنين على ثقافتنا هم الذين يدمروها اليوم.

وفيما تستمر حفلات الندب والرثاء، تتبدى ملامح جديدة. فالشر في أميركا يقدّم مادة مناسبة للنواح والعويل منذ أيام البيوريتانيين (التطهريين - طائفة متزمتة من البروتستانت). ولكن عوضاً عن لوم

زانـــية بابـــل، فإن بايكر يوجه نقمته نحو أمينة المكتبة - ليست تلك القابعة في مكتبة متواضعة في قرية صغيرة، ولكن نحو رؤسائها أصحاب الأفكـــار الهدامة: باتريشيا باتين، على سبيل المثال، أمينة مكتبة جامعة كولمبـــيا، التي قادت "الهجوم على مادة الورق" والذي شنته عبر هيئة الحفـــظ والولوج واستحقت جائزة من الرئيس كلينتون في العام 1999 "لإنقـــاذ الـــتاريخ"، حيث يتهمها بايكر بتدمير التاريخ ويشير إليها في كتابه كأحد الأوغاد الرئيسيين. أما الباقون فهم من مؤسسات (فورد، مـــيلون)، ومكتـــبات أبحـــاث (يـــال، شـــيكاغو)، والوقف الوطني للإنسانيات، وفي طليعتهم مكتبة الكونغرس.

وهـــم ينـــسجون تـــوزيعاً غريباً لأدوارهم: جزّارو الكتب غير المـــرغوب فـــيهم في عالم الكتاب. ويصفهم بايكر كأشخاص لطفاء ومهـــذبين وبشكل عام أنيسين - ذلك النموذج المتواضع الذي تقابله عـــبر مكتبه الخشبي في الأروقة التي تحتشد فيها الكتب. وعبر الاستفادة مـــن موهبته الروائية يقدم لنا وصفاً لكلٍّ من الشخصيات. إنهم يضعون وشـــائح حريـــرية، وربطـــات عنق احتفالية، ويلبسون بذّات تتصنّع البـــساطة. ينظرون إليك من تحت "حواجب حكمتهم" و"جباههم التي تنـــضح حـــبوراً" وعـــبر "نظاراتهم المستقيمة المماثلة لتلك التي تضعها جويس كارول أوتس في أفلامها". تقول لنفسك إن شخصيات كهذه لا يمكن أن تكون مخرّبة. وهذا الانطباع يضعك في مواجهة نوبة بايكر البلاغـــية، لأنـــه يحاول التنبيه إلى أن البرابرة ليسوا على الأبواب: إنهم داخـــل المعـــبد، يخرّبون الكنوز بطريقة احترافية لأنهم يتحركون بكل لطف وكياسة.

تُحرِّك لغة الخطابة هذه آلية النقاش، ولكن ما هو النقاش بحد ذاته إذا جردناه إلى مجموعة من الأفكار؟ وهي تأتي كالآتي:

1. *إن مـــادة الورق جيدة التحمُّل، حتى تلك الأنواع المستخدمة لطباعة الـــروايات الرخيصة بعد العام 1850*. يراجع بايكر كيميائية الأكسدة مُـــسلّماً بـــنقاط بسيطة: إن مادة الورق ذات القلوية المنخفضة تكون أضـــعف من تلك منخفضة الحموضة، كما أن ورق الصحف المطعّم بمـــادة "alum-rosin"(*) سيتحول إلى اللون الأصفر لدى تعرّضه الطـــويل للـــنور. ولكـــنه يبرز نقطته الأساسية: رغم جميع التوقعات باضـــمحلالها، فإن مادة الورق المصنوعة في نهايات القرن التاسع عشر لا تـــزال صـــامدة و لم تتحلل، ويمكن قراءتها دون تعريضها للخطر، وليس هناك من سبب للاعتقاد بأنها لن تدوم لمائة سنة أخرى.
2. *المايكروفيلم ليس بديلاً مناسباً لمادة الورق*. إن بنيته الكيميائية أسوأ مـــن الورق، حيث أصابت شرائحه، المفترض صمودها إلى الأبد، شوائب وفقاعات. كما أن ألوانها بهتت إلى درجة عدم الوضوح، إضـــافة إلى تمزقها وتغيّر أحجامها ونمو فطريات عليها تثير روائح مزعجة، وذوبانها على الملف إلى قطع من السلولوز. ويضم إعداد الـــصحف علـــى المايكـــروفيلم فراغات حيث قفز التقنيون عن صـــفحات أو أخفقـــوا في ضـــبط البؤرة. ولقد اعتبر المكتبيون المايكروفيلم "كاملاً" إذا كان ناقصاً ستة بالمئة من محتوياته الأصلية بـــسبب العمـــل غير المتقن. ومجموعات المايكروفيلم هذه مرتفعة الأكـــلاف بـــشكل ملفـــت، فخلال موجة "الحفظ" الأولى على المايكروفيلم تخلّصت مكتبة بنسلفانيا الوطنية ومكتبة فيلادلفيا الحرة من مجموعات كاملة من جريدة Philadelphia Inquirer، لنكتشف اليوم أن تكلفة تصويرها على المايكروفيلم هي 621,515$.

(*) هـــي ســـلفات الألمنيوم التي تستخدم لتعزيز اللحمة بين ألياف الورق ليشتد نسيجه ولمنع حبر الطباعة من خرقه.

أمـــا القراءة عن المايكروفيلم فهي رهيبة. ذلك أن ساعات تقضيها في تحـــريك صـــور ضبابية تحت أنوار حارة بينما تحملق في شاشة يمكنها أن تبعدك عن أبحاثك وحتى تشعرك بالغثيان. ويخبرنا بايكر عـــن قـــارئ مايكروفيلم في أرشيف أونتاريو وضع كيساً خاصاً بدوار الطيران إلى جانبه احتياطاً. وإذا كان المايكروفيلم مزعجاً أو لا، فإن نُسخ الصحف على المايكروفيلم هي كل ما لدينا في العديـــد مـــن الحالات، وهي في الكثير منها غير كاملة. وهناك سنوات كاملة ناقصة من صحف هامة، وليست هناك مجموعات أصـــلية كاملـــة منها في أي مكان، لأن المكتبيين تخلصوا منها. وينـــبري بايكـــر قائلاً: "كان يقرأ جريدة *"العالم"* من بوليتزر مليون شخص يومياً، واليوم فإن مجموعة أصلية منها نادرة أكثر من كتاب شكسبير الأول أو إنجيل غيتنبرغ". لا شك أن بايكر استفزازي، ولكنه على حق.

3. *يتوق المكتبيون للمساحات الفارغة*، إذ إن الرفوف الفارغة بالنسبة إلـــيهم تشبه الوقت، أي المال، والمال عزيز عليهم، لأن ميزانياتهم مطـــوّقة. ورغـــم هذا فإن أعداد الصحف والكتب تنهال عليهم، ويتـــضخم حجمها بشكل لا يرحم عاماً بعد آخر. وتشعر أمينة المكتـــبة وكأنهـــا ساحرة تحت التدريب. كيف يمكنها إيقاف هذا الـــسيل؟ وإيجـــاد رفوف كافية؟ إطالة اعتمادها المالية وملحقاتها؟ والإجابـــة الواضـــحة، التقزيم: استبدال المجلدات بأجزاء مختصرة، والتخلص من النسخ الأصلية، وتوسيع مقتنيات المكتبة مع المحافظة على الرفوف كما هي. ويرينا بايكر كيف استولت هذه الروحية على خيال نخبة مكتبيي الأمة وأدت إلى تعرية رفوف المكتبات من مقتنـــياتها - "مـــنع التعاظم" بلغة علم المكتبات. وهو يشرح هذه

النقطة بوضوح، مستشهداً بخطب، ومذكرات، ونشرات مهنية. وهو يذهب أبعد من هذا:

4. *لقد تحوّل الاستحواذ على المساحات الفارغة إلى "إيديولوجيا"*. وإذ يسوقهم الخوف من "التكاثر الشيطاني"، عمد مكتبيون أساسيون إلى "إسقاط اللعنة على مادة الورق". إنهم يكرهون هذه المادة ويودون التخلص منها بأي ثمن - والكلفة باهظة إلى حدٍّ باستطاعته تحريك ثورة بين دافعي الضرائب، إذا لم نذكر محبّي الكتب. وإتقاءً من هذا الخطر عمد نخبة المكتبيين في البلاد إلى نشر إشاعة مرعبة حول التدمير الذاتي للكتب الورقية، ثم سوَّقوا تقنيات لتدميرها تحت غطاء الحفاظ على الكتاب. وهنا، أستدركُ لأقول، إن بايكر قد سرح في نقاشه بعيداً عن الصدقية. فبدل تقديم تفسير موثّق لأسباب تفريغ المكتبيين لرفوفهم، فإنه يحوّلهم إلى أشرار وشياطين من صنعه - متخفّين بتفاصيل كالأوشحة الحريرية وربطات العنق الاحتفالية. ورغم ذلك فإنه يثير قضية عادلة.
5. *كان الحفظ يعني التدمير*. ليس دائماً بالطبع. فبعض المؤسسات مثل مكتبة بوسطن العامة لم تمس مجموعاتها. والبعض مثل مكتبة نيويورك العامة، حافظت على بعض مجموعات الصحف بعد تحويلها إلى مايكروفيلم. ولكن مكتبة الكونغرس كانت السبّاقة في مجزرة الكتب والصحف وعبر نسب مذهلة. وللتمكن من تحويل الأعمال المطبوعة بعد العام 1870 إلى وسط المايكروفيلم، لجأت المكتبة إلى سياسة "التشريح" - مما يعني تجريد الكتاب من شكله الأساسي ليتحول إلى صفحات طليقة ليتم تصويرها بسهولة. ورغم إمكانية إنقاذها، فإن مجلداً غير مغلّف، وخاصة إذا كان يجمع صحفاً قديمة، يتحول إجمالاً إلى المهملات. وإذا لم تتخلص

المكتبات منها، فإنها تبيعها بأسعار سخيفة، وهناك دائماً من يشتري - وليس بالضرورة من القراء الذين سيحافظون عليها، ولكن من التجار الذين يسعون لإنزال المزيد من التدمير فيها. وتمكّن بايكر من الوصول إلى مستودع الأرشيف التاريخي للصحف، حيث احتشدت الصحف على مساحة 25,000 قدم مربع، لتُسحب من مجموعاتها وتُرسل كتذكارات للأشخاص الذين يحتفلون بأعياد ميلادهم أو أي مناسبات أخرى. ولقد اكتشف مجموعة تذكارية من جريدة نيويورك هيرالد تريبيون في حالة ممتازة، والتي يعتقد أنها حُفظت لدى مكتبة نيويورك العامة بطلب من مالكة الصحيفة السيدة أوغدن رايد. وكانت قد شُرِّحت كتذكارات، ولكن بايكر تمكن من شراء أعداد أسبوعين منها يعودان للعام 1934 بمبلغ 300$.

6. *لم تكن هناك من ضرورة للتدمير.* ابتداءً من العام 1957 رعى مجلس موارد المكتبات، الذي أنشأه فيرنون كلاپ، الشخص الثاني في مكتبة الكونغرس، اختبارات لتحديد مدى حياة عجينة الورق. حيث قام التقنيون بتجريد كتب طُبعت بين العامين 1900 و1950 من أوراقها، محاولين معرفة مدى قدرتها على الصمود، عبر طيّها جيئة وذهاباً في أجهزة صُممت خصيصاً. وبعد عشر سنوات وتدمير 500 كتاب، استنتجوا بأن معظم إصدارات النصف الأول من القرن العشرين لن تستمر حتى العام 2000. أما الإحصاء العام للصفحات فبلغ عدده 1,75 بليون صفحة، ما يكفي لإثارة الرعب بين مسؤولي مكتبات الأبحاث في البلاد.

وللتمكن من تحديد حجم الخسائر في مجموعاتهم، استخدم المكتبيون اختباراً مبسطاً لورق الكتب: حيث قاموا بطيّ

الصفحات جيئة وذهاباً بقوسٍ قدره 180 درجة. فإذا تمزق ورقها بعد طيتين أو ثلاث مزدوجة - يرافقها بعض الأحيان بعض الضغط - حُكم عليها بالإعدام وأُضيفت إلى قائمة الكتب التي ستستبدل بالمايكروفيلم قبل أن تتحلل على الرفوف. وفي مكتبة جامعة يال وحدها اختبر مكتبيوها ومساعدوهم من الطلاب أكثر من 36,500 مجلداً. أما النتيجة فهي: أن 1,3 مليون مجلد ستتحلل تلقائياً قبل حلول القرن الحادي والعشرين. ولقد اتبعت مكتبة يال سياسة "شرِّح ثم احرق" للتحويل إلى مايكروفيلم، مما أدى إلى زوال نصف مجموعتها الرائعة عن التاريخ الأميركي. وكان يمكن لهذه الكتب البقاء حتى اليوم لو لم ينصع المكتبيون لسياسة اختبار طي الورق، ذلك أن هذا الطي ينجم عنه تغضّن وندوب تؤدي إلى التمزق، مقابل القراءة التي لا تستلزم سوى تقليب الصفحات. والصفحات التي سقطت في اختبار الطي يمكن قراءتها مئات المرات دون أي أذى. والكتب التي قيل إنها ستتحلل على الرفوف منذ زمن طويل بناء على أكثر علوم المكتبات تقدماً، لا تزال بيننا وبأفضل حال، عدا تلك التي دمرها المكتبيون بحجة المحافظة عليها.

7. *كان التخريب وحشياً.* كان من الممكن تحويل الكتب إلى صيغة المايكروفيلم دون تعريض المجلدات للأذى، وذلك عبر وضعها ضمن أُطر خاصة وضبط الكاميرا على زاوية مناسبة. ولكن هذه العملية تستنزف مزيداً من الوقت، وكان المكتبيون في عجلة من أمرهم لإنقاذ الكتب والصحف من موتها الذي أُسيء تشخيصه إلى درجة إعدامها على "مقاطع الورق" - عبر تجريدها من أغلفتها للتمكن من تصوير الصفحات بسهولة. وبحالتها هذه، كانت الكتب تذهب هباءً.

كذلك فإن المتخصصين بمكتبة الكونغرس ومجلس موارد المكتبات قاموا بإعدام كتب ليطبقوا عليها تقنيات إزالة حموضة الورق. وأكثر تجاربهم إثارة كانت باستخدام مادة تدعى DEZ، وهي اختصار "ديثيل الزنك". ولدى مادة DEZ قدرة على التخلص من الحموضة في مادة الورق عبر تشبيعه بحاجز قلوي في ثنايا أليافه، رغم حمله لأعراض جانبية مؤذية: فهو ينفجر ألسنة نارية عند تعرضه للهواء، كما ينفجر إذا تعرّض للماء. ورغم عملها بشكل أفضل بكثير في القنابل والصواريخ منها في الكتب، فإن تجارب المكتبات على هذه المادة كانت أساسية لإزالة الحموضة من مليون كتاب سنوياً. وفي الواقع، وكما يضعها بايكر، فإنهم صمموا "قنبلة كبيرة من الهواء والوقود التي صادف واحتوت كتباً". وبالفعل فإنها قد انفجرت أثناء تجارب قامت بها NASA في مركز غودارد للطيران الفضائي بين العامين 1985 و1986. كما أن تجارب أخرى أنتجت المزيد من الكوارث، وبعد آلاف الكتب وملايين الدولارات تمّ الاستغناء عن البرنامج.

خلال هذا، استنبط فريق الحفظ والوقاية تجارب أخرى، بما فيها مشروع كلفته مليون دولار يقضي بجعل مجموعة من الجرذان تتنشق غبائر أكسيد الزنك لإثبات إمكانية شم الكتب المعالجة ضد الحموضة وعدم قدرتها على التسبب بأي أذى للإنسان. وبالتعاون والتضامن ما بين فنيي المايكروفيلم، ومحبطي تكاثر الكتب، وفرق التدمير، فإنهم شرَّحوا، وقطّعوا، وشوَّهوا، وعالجوا بالأسيد، والغاز، والنار، والمواد الكيميائية كميات هائلة من المطبوعات. وقد يبالغ بايكر في لغته وينحرف في توصيفه التقني بشكل يحوّل المكتبيين إلى مجموعة من العلماء المجانين. ولكنه يقدّم براهين دامغة لجعل محبي الكتاب يتقززون.

8. *كانت عملية الإبادة مرتفعة الثمن.* يأتينا بايكر بالكثير من النماذج عن كتب وصحف أُتلفت أو بيعت بأسعار سخيفة إلى التجار، ليعيدوا بيعها بأسعار مرتفعة جداً، كما يوثّق لحالات تثبت أن كلفة تحضير مايكروفيلم لكتاب تفوق ثمن الكتاب الأصلي. وبعد مراجعة عدة حالات لحلول مكلفة لمشاكل أُسيء تدبيرها، يقترح حلاً بسيطاً ورخيصاً: تخزين النسخ الأصلية في مستودعات مكيّفة، حيث ستبقى للأبد. وباختصار، عدم التصرف: "اتركوا الكتب، أقول، اتركوها، اتركوها". ولكنّ المكتبيين فضلوا صرف مبالغ طائلة من المال لتنفيذ ما أملته عليهم وظائفهم: حوّل إلى مايكروفيلم ثم أتلف. فماذا كان الثمن؟ يقدّر بايكر بأن المكتبات الأميركية قد أتلفت 975,000 كتاب تقدر قيمتها بـ 39 مليون دولار. فاقتصاديات كامل المشروع تبدو غير عقلانية تماماً مثل الحجج العلمية التي تقف وراءه.

أما الخسارة الثقافية فلا يمكن تقديرها. فالمكتبات كانت تُخلي رفوفها من الصحف التي تعود إلى سنة 1870 حتى تاريخه – أي، عندما بدأ الانتشار الكثيف للصحف اليومية. ومع نهاية القرن، ومع انخفاض أسعار الورق، وبروز آلة "لينوتايب" للتنضيد، وآلات الطباعة الضخمة، تحولت صحف بوليتزر، وهيرست، وغيرهما من أساطين الصحافة إلى علامة بارزة في الحياة الأميركية. ولم تكتفِ بجلب أخبار الحرب الإسبانية الأميركية إلينا، فهي وثّقت لنشوء الثقافة العامة، والمجتمع الاستهلاكي، والرياضة الاحترافية، إضافة إلى مساحات كبيرة من الأدب الأميركي – أبدعها في معظمها صحفيون تحولوا إلى مؤلفين. كيف يمكن للمؤرخين دراسة هذه المواضيع دون قراءة الصحف اليومية؟ وكيف يمكنهم قراءة

الصحف اليومية وقد اندثرت؟ فالمايكروفيلم لا يمكنه التعويض عنها، ليس لأنه مخروق بالأخطاء والهفوات، ولكن لأنه غير قادر على ترجمة ملمس الصفحة المطبوعة – طريقة وضع العناوين العريضة، التصميم، اللمسات اللونية، والملمس المميز لمختلف أنواع الورق التي تعرّف القارئ وتقوده عبر مجموعات من الفقرات المطبوعة. وبناءً لإعلان للمايكروفيلم الجامعي، فإن إلغاء الصحف من المكتبات كان "برنامجنا للتخفيضات في مسلخنا الوطني". ويقترب بايكر أكثر من الحقيقة: "لقد ألغت هذه الدولة مائة وعشرين سنة من تاريخها".

9. *قد يكون دافع المكتبيين مبنياً على نوايا حسنة، ولكنهم تصرّفوا بإيمان رديء.* بعد أن أقنعوا أنفسهم بأن رفوفهم لم تعد تتسع للمزيد من المقتنيات، وأن المايكروفيلم هو الحل، قاموا بتلفيق كارثة مصطنعة لتفريغ رفوف مكتباتهم. فقالوا إن الكتب كانت تحترق. لقد استخدموا عبارات مختلفة: تتحلل، تتعفّن، تندثر. "تتحول إلى غبار" كانت مقولتهم المفضلة، والتي خدمت حرفياً إيحاءهم بأن هناك نوعاً من التفاعل الكيميائي الذي يتلف الكتب وهي رابضة على الرفوف. ولكن ما هو نوعه؟ لم يُبرز أيٌّ من المكتبيين تحليلاً دقيقاً. ولم يكتشف أحد مجلداً واحداً يحترق، أو رماداً أو دليلاً من أي نوع. وبغضّ النظر: فإن فيلم الرعب *حرائق بطيئة* الذي أنتجه مجلس موارد المكتبات، قام بنشر الفكرة المصطنعة حول الاحتراق، مما أدى إلى انتشار وعي خاطئ داخل صفوف المكتبيين، ألهبته أوهام أطلقها مسؤوليهم، مثل باتريشيا باتين: "إن 80% من الأعمال في مكتباتنا مطبوعة على ورق حمضي ولا شك أنه سيتحلل. ولقد أفادت مكتبة الكونغرس

منفـــردة بأن 77,000 مجلد من مجموعاتها تنتقل سنوياً من الوضعية المهـــددة، إلى حالة الهشاشة ومن ثم إلى التحلل. وبعد إعادة النظر في التعداد تحوّل رقم 77,000 (أو في بعض الأقوال 70,000) مجلد متحلل إلى حقيقة واقعة، رافقته تأكيدات من علوم المكتبات تقول: إن المجموعات تتضاعف كل ست عشرة سنة، وسيتلاشى 3,3 مليون مجلد خلال عشرين سنة، وسيكلف إنقاذها عبر المايكروفيلم 358 مليـــون دولار، رغـــم أن الأكلاف ستكون توفيراً بالفعل، لأنها ستؤســـس لإمكانية تحرير مساحات الرفوف بالتخلص من 16,5 مليون نسخة موزعة دون فائدة عبر البلاد.

تشكّل هذه الأفكار التسعة اتهاماً رهيباً لمهنة مهيبة. ألا توجد أي بـــراهين مضادة للدفاع؟ عوضاً عن عرضها بتجرد، فقد أطلق بايكر العنان لما يدعوه "دافعه المزعوم". فهو يراكم الدلائل لصالحه، ولـــيس عبر تحريفها، ولكن عبر أدوات بلاغية، كوضع المزدوجات خـــارج الـــسياق، وحـــشر التعليقات فيها. وفي روايته لمقابلة مع باتريـــشيا بـــاتين، على سبيل المثال، يُدخل ملاحظات خارجية إلى تعلـــيقاتها، والتي تبدو أنها تدحضها إضافة تفنيدات من طرفه. وفي موضـــع محـــدد يجعلها تخبره، "لا أعتقد أن الحفاظ على المساحات الخالـــية كـــان هو المعضلة". ثم يستشهد بمقالة لإحدى زميلاتها في كولمبـــيا: "فكّر في أكلاف المساحات الخالية..." ويصل هذا القول بتعليق مثير حول انهيار الكتاب من مقطع آخر في المقالة نفسها: "إن المجمـــوعات المركـــزية في المكتبات الرئيسية ستدان قريباً كمطامر نفايـــات غير صحية - مكبّات نفايات العالم الفكرية". ثم يعود إلى بـــاتين: "ثم أضـــافت قائلة لي بصوت صادق، "لا أعتقد أنهم أمناء المكاتـــب الـــذين سعوا إلى التقزيم للحصول على مساحات فارغة

أكثـــر". إن التلاعب بالنصوص بهذه الطريقة يشكل اتهاماً لنا لأننا محاطون بمتهمين.

إن إشـــاعة جـــو من الشعور بالذنب هو هدف الدافع المزعوم، ولكنه في سعيه لإدانة بعضٍ من أبرز مكتبيي البلاد، فإن بايكر يشوش الأمـــور بعـــض الأحـــيان. فلا شك أن توفّر المساحات الفارغة في المكتـــبات هو مشكلة أساسية، ولكن لا يتم حلّها عبر تنفيذ "مؤامرة شـــيطانية" أو تحميل مسؤوليتها على مهووس مصاب بعقدة نحو مادة الـــورق. فالمايكروفيلم يحفظ بعض السجلات التاريخية، على الأقل، رغـــم أنـــه لا يمكن أن يكون بديلاً مناسباً للأعمال الأصلية. ولقد توقفت المكتبات عن تشريح المجلدات لتحويلها إلى مايكروفيلم ثم إلى رميها في القمامة. وتعود معظم قصص الرعب التي يسردها بايكر إلى فترة مضت تاركة آثار دمارها، ولكنها تؤرخ أيضاً لردات الفعل التي صدرت ضد هذه السياسات الرديئة. فإثر بعض الفضائح حول اختفاء كـــتب ثمينة، التزمت مكتبة نيويورك العامة موقفاً ثابتاً ضد الاستغناء عن قسم من مجموعاتها، ولقد حذت مكتبات أخرى حذوها. والآن وقـــد زال هذا الخطر، فإن بايكر يحذّر وعن حق أن الحماسة الحالية الفائقـــة للـــرقمنة يمكن لها إثارة موجة أخرى من عمليات استئصال الكتب من المكتبات، رغم أنه يركز غضبه على ممارسات تمّ التخلص منها.

إن أسلوب "إني أتهم" لا يعمل جيداً عند تطبيقه على الماضي. فهو أكثـــر ملائمة للصحافة مقارنة مع التاريخ. وفي شكله الأساسي، فإن هجوم بايكر صدر كمقالة صحفية في مجلة نيويوركر، وقد تلقى صدى باهـــراً لأنه أسس لعلاقة بين هذه الممارسات الخاطئة وفضيحة حالية. فالمكتـــبة البريطانية كانت مستمرة في "تنظيف" رفوفها من مجموعتها

الرائعة من الصحف الأميركية التي تعود للقرنين التاسع عشر والعشرين، وكان التجار يشترونها بأسعار تافهة لإعادة بيعها كتذكارات. وعندما وصلت أخبار التدمير هذه إلى مسامع بايكر حاول يائساً إيقافها. ولكن المكتبة لم تعره أذناً صاغية، حتى إنها لم تتح له ولزملائه الوقت الكافي للقيام بأي عمليات إنقاذ. وفي النهاية تمت إبادة كنز لا يقدّر بثمن، وتمت خيانة أمانة وطنية، ولكن تمّ إنقاذ جزء يسير من المجموعة استطاع بايكر شراءه، بعد دفع مدخراته وتأسيس مؤسسة غير ربحية بالاشتراك مع بعض المؤسسات. وتربض الآن مجموعات كاملة من صحيفتي "العالم" و"هيرالد تريبيون" إضافة إلى يوميات أخرى رائعة في مخزن أسس له بايكر قرب منزله في ماين. "في بعض الأحيان أقف مذهولاً عندما أتبيّن أنني تحولت إلى مكتبيّ للصحف، وأتحمل مسؤولية المحافظة على هذا المخزون الأصيل من التراث الورقي"، ويضيف أنها قصة رائعة يتلوها بمتعة وفكاهة خاصة عندما يتمثل له دون كيشوت يبارز المكتبة البريطانية ليربح منها جولة واحدة على الأقل، رغم أنها لا تمثل جزءاً هاماً من التاريخ.

وعندما حوّل بايكر مقالته في مجلة نيويوركر إلى كتاب، واجه مشكلة دمج روايته ضمن بحث عام عن إدارة المكتبات في الولايات المتحدة والعالم منذ الحرب العالمية الثانية. ولقد قسّم مقالته إلى جزءين لم يجرِ عليهما تعديلات أساسية، مستخدماً الأول كفصول أولى، والثاني كخاتمة، وأدخل بينهما سيرة تاريخية. ولكنها لم تكن قصة عادية، ذلك أن النص لم يتبع ترتيباً زمنياً محدداً، أو نسقاً منظماً واضحاً. وعوضاً عن ذلك، تكوّن من مقاطع، وتقارير مختصرة تمّ ربطها ببعضها بعضاً بطريقة تصدم القارئ وتثير سخطه مع تبدّي الأحداث الشاذة واحداً تلو الآخر.

وسط كل هذا، كان بروز منطق تغييري جديد واضحاً، والذي يمكن تلخيصه كالتالي. ففي العام 1944 تقدم مكتبيٌّ نافذ اسمه فرمونت رايدر باقتراح "القانون الطبيعي" لنمو المكتبات. وكان يبدو أنه يُثبت عبر معادلات حسابية مؤثرة أن المكتبات الأميركية كانت مندفعة نحو كارثة دراماتيكية في المساحات الفارغة المهيأة للمقتنيات الجديدة. والحل الوحيد بناءً لرايدر كان يكمن في التقنية التي طوّرها مكتب الخدمات الاستراتيجية خلال الحرب العالمية الثانية: يمكن استبدال الكتب بالبطاقات المصغّرة أو عبر منتج تصغيري. ولقد حمل فيرنون كلاپ، الرجل الثاني في مكتبة الكونغرس، هذا اللواء جامعاً المؤيدين له في مجلس موارد المكتبات الذي أصبح مديره في 1956. وعبر ثلاثين عاماً على رأس عالم المكتبات، شجع كلاپ الاختبارات الرامية إلى "الحفظ" والتي أدت إلى نشوء تقنية المايكروفيلم وخسارة ملايين الكتب والصحف، حيث قام مكتب الحفظ والمايكروفيلم في مكتبة الكونغرس بين العامين 1968 و1984 بتصوير 93 مليون صفحة "وأعدم ما قيمته عشرة ملايين دولار من الأملاك العامة".

لقد استلزم مجهودٌ كبيرٌ لإقناع مدراء مكتبات الأبحاث الآخرين بأن "حفظ" الكتب لا يعني "المحافظة" عليها. وهكذا سار خليفة كلاپ في المجلس وورن هاس على خطاه مثيراً حملة إعلامية مزعجة وموظّفاً باتريشيا باتين، أمينة مكتبة جامعة كولمبيا البارزة، لنشر الدعاية من هيئة الحفظ والولوج. وعبر المقالات، والمحاضرات، والأقاويل، ومناظرات الكونغرس، والثرثرات المتنقلة بالتواتر، انتشرت الأخبار بأن مصير مقتنيات مكتبات البلاد من الكتب مصيرها الاضمحلال، إذا لم يتم إزالة الكتب والمجلدات الورقية عن رفوف المكتبات والاستعاضة عنها بالمايكروفيلم. ولقد بلغت نوبة جنون تحويل الكتب إلى مايكروفيلم

ذروتها في العام 1980. ولكن هذا المد تراجع في العام 1994 مع استقالة باتريشيا باتين من اللجنة، وإطلاق حملة واعية بقيادة مكتبيين مثل توماس تانسيل، حيث وفّرت حملة إبادة الصحف في المكتبة البريطانية فضيحة مؤثرة أدت إلى نهاية هذه الرواية في العام 1999.

وكما تذهب الرواية فإنها كانت بسيطة جداً. شخّص مجموعة من المتحمسين المشكلة بطريقة سيئة، مما أنتج كارثة وطنية، عبر نشر أخبار غير صحيحة. ذلك أن التفاوت بين السبب والنتيجة يستدعي الكثير من التفسير. ما الذي كان يجري خلال ذلك؟ غباءٌ مطلق؟ خلل في المؤسسات؟ تأثير شخص أو اثنين فاعلين، وإغراء تطبيق بعض الأفكار الجديدة؟ إن أسئلة كهذه تميّز ما بين الصحافة والتاريخ. ولكن بايكر لا يطرحها، أنه يشير بإصبعه إلى الجهات المتهمة. ولكن هناك تفسير ضمني لهذا اللوم.

هناك عدد مفاجئ من الأشرار في هذه المؤامرة الذين لهم اتصالات بوكالة الاستخبارات المركزية CIA، وأبحاث العمليات، والدفاع الجوي، ووزارة الدفاع، أو أحد فروع الصناعات العسكرية. ويؤكد بايكر بأن حمى استخدام المايكروفيلم التي أصابت المكتبات، مماثلة لحمى وكالة الاستخبارات المركزية التي استحوذت على مكتب الخدمات الاستراتيجية خلال الحرب العالمية الثانية. ولقد نشر هذه المعلومة فيرنون كلاب من مكتبة الكونغرس عندما كان مستشاراً سرياً لدى وكالة CIA، ويصلنا خط المستشارين هذا مباشرة إلى المكتبي جيمس بيلينغتون الذي تبرز علاقته بوكالة CIA عبر تاريخ طويل من النشاط. ويتبين أن "علماء الحرب ومستشاري CIA" يمثلون الحضور الأكبر في مجلس موارد المكتبات - حضور كثيف بشكل جعل ملخصات بايكر القلقة عن سيرهم الشخصية تلمّح إلى وجود عميل سري في جميع زوايا المجلس.

تستحضر رواية بايكر للتجارب المجنونة لإعدام الكتب، أموراً أكثر إيذاءً – إبادة منظمة عبر ما يسميه "التدمير للحفظ". هذا الاقتباس من صحيفة واشنطن بوست يثير ارتباطاً مماثلاً: "هل على مكتبة الكونغرس إتلاف الكتب لإنقاذها؟" ولا يسع القارئ سوى التفكير في تلك التعليقات المزعجة من أيام حرب فيتنام: "كان من الضروري تدمير القرية لإنقاذها". وتتوالى سلسلة الترابط المظلم، عندما يتحدث بايكر عن "وضع الكتب في غرف الغاز الخانق". وهنا يخرج الغمز من السياق المنطقي، فالمكتبيون لم يقوموا بعمليات إبادة كتلك التي نفذها النازيون.

هل يجب إدانتهم أيضاً، كما يطلب بايكر، لتدميرهم التاريخ؟ ربما، إذا اعتبرنا أن الصحف هي المسودة الأولى للتاريخ، ويبدو أن بايكر يتبنى وجهة النظر هذه عبر استعارة مفعمة بالحيوية – كوصفه على سبيل المثال شحنة مكونة من 4600 مجلد من صحيفة شيكاغو تريبيون على أنها "ست عشرة بالة، عشرة أطنان من تاريخ المدينة الأساسي". ولكن، تماماً كما يجب أن لا نخلط بين المايكروفيلم والوثائق الأساسية، يجب عدم المساواة ما بين التاريخ ومصادره. إنه نتيجة للدليل وليس الدليل بحد ذاته.

ولو اتبع بايكر خط التفكير هذا، لتمكن من تعزيز موقفه، لأن دراسة الصحف كمصادر، يفتح الباب أمام إمكانات كبيرة لتعميق فهمنا للماضي. ليس لأنها نوافذ مفتوحة على عالم مضى، كما يعتقد بايكر. إنها مجموعات من القصص التي كتبها مهنيون ضمن أعراف مهنتهم. ولكن إذا تعاملنا معها كقصص – قصص إخبارية، نوع غريب من الحكايات – فإنها تعكس الطريقة التي يؤوّل فيها المعاصرون الأحداث وتؤسس لتفسير الفوضى المدويّة والمنتشرة في العالم حولهم.

بالنسبة للعديد من قراء اليوم، فإن صفحة صحيفة نيويورك تايمز الأولى تقدّم خارطة لأحداث الأمس، وهم يقرأونها كما يقرأون خارطة، للوجهات الصحيحة – عادة من اليمين إلى اليسار، أو من العنوان الرئيسي نزولاً إلى الأسفل، باتباع ألغاز العنوان الرئيسي، والتوقف عند الصور، والانحراف تحت الطية أو إلى الصفحات الداخلية، بناء لتجاوبهم لاقتراحات التصميم والبنية. ويأخذ محررو الصحيفة هذه التصرفات بعين الاعتبار عند تصميمهم الصفحة الأولى عند الساعة الخامسة يومياً. وينشأ حوار حول هذا المفهوم بين منتجي الخارطة الدليلية والمستهلكين الذين يستفيدون منها. وتتغير تصاميم المواضيع وأشكال البنية العامة مع مرور الوقت، لتعكس تحولاً بارعاً في رؤية العالم – وهو ليس شيئاً ملموساً بدقة ولكنه يدعم التجارب التي يحاول المؤرخون فهمها. إذ إنهم لا يمكنهم الوصول بتاتاً إلى فهم مناسب إذا كانوا سينطلقون بعملهم من المايكروفيلم.

من المؤكد أن تأريخاً لأفكار العالم يستدعي أكثر من قراءة لمجموعات أصلية من الصحف. ولقد أوضح بيركهاردت وهوزينغا الطريقة عبر مراجعة الأدلة حول كل شيء، من آداب المائدة وشعائر الموت إلى أسلوب الحديث وطريقة اللباس. ولقد أظهر الأنثروبولوجيون كيف يمكن لمادة كهذه أن تدخل في السرد المنظم للثقافات، ولكن هذه الأدلة تتلاشى خلال محاولة المؤرخين الأنثروبولوجيين الولوج بشكل أعمق في التاريخ. كانت الكراريس والإعلانات الورقية أكثر أنواع المطبوعات شعبية في أوروبا الحديثة – وهي انتشرت إلى حدٍّ لم تفكر المكتبات حتى بحفظ نماذج منها. ولقد بحث المؤرخون مثل روبرت ماندرو في بقاياها في سعي لتكوين *عقلية جماعية*، ولكن النتيجة كانت محبطة. كيف يمكن للمؤرخين تكوين صورة للعقلية الأميركية في فترة

مـــا بعـــد الحرب الأهلية إذا لم تكن لديهم صحفٌ – صحف حقيقية كاملة وبالألوان الكاملة – للتنقيب فيها؟

باختـــصار، فإن بايكر يدين تدمير مجموعات الصحف كخسارة تاريخـــية، رغم تمتعه بمفهوم غير مناسب عن التاريخ ويعجز عن كتابته شخـــصياً. وإذا أخـــذنا نصوصه بشكلها الأدبي فإن كتابه هو ناجح بـــتفوق. وكمـــا ذكرت سابقاً، فإنه ينتمي إلى اختصاص فريد، المرثية الأميركية. ولكن هذا يثير بعض الإشكالات، لأنه سبق تنبيه الأميركيين إلى أن الـــسماء تـــنهار، والمحيطات ترتفع، والأرض تزلزل، والاقتصاد يتـــراجع، والرئاسة تتلاشى، والعائلة تختفي، وأن أيام الكوكب الأخيرة تقتـــرب. فكيف يمكنهم تضخيم موضوع الصحف والكتب القديمة؟ والأبقـــار يـــصيبها الجنون، والحيتان تلجأ إلى الشواطئ، وجبال الجليد تـــذوب، والغابات تحترق، والسلالات تختفي، والرئات تنهار، وطبقة الأوزون على وشك الاضمحلال، والضمان الاجتماعي كما نعرفه قد زال. فلماذا ننقُم إذاً على المكتبيين؟

لإثـــارة النقمة، ينشر بايكر مجموعة متكلفة من الإجراءات. يختار نـــبرة ممتازة في انتقاء أسلوب السرد. وأساساً فإنه يتبنى منطق البراءة. كـــيف انغمـــست في هذه الفوضى؟ يسأل القارئ بسذاجة مصطنعة: "قـــررت في العـــام 1993 كتابة مقالات حول مواضيع تافهة – آلات العروض السينمائية، وأدوات تقليم الأظافر، وعلامات الوقف، وتاريخ الخشب عبر العالم". وقبل أن تتاح لنا فرصة معرفة سبب اهتمام بايكر بالكـــتابة عـــن مُقلّمـــات الأظافر، تجتاحنا رواية رهيبة حول مكتبيين يدمرون الكتب.

نرافق بايكر في رحلته في عالم أمانة المكتبات الغريب، وهو يدفعنا برفق بطريقة خفيّة وسط المقابلات وعبر تعليقات معترضة وملاحظات

تحريـــرية. وعلى سبيل المثال، وبعد عرضه مجلداً جميلاً ولكن مرمياً من صحيفة شيكاغو تريبيون يظهر على غلافه شعار جامعة هارفارد ويحمل ملـــصقاً يفيد أن اقتناءه تمّ عملاً بوصية إيشابود تاكر، الذي تخرّج في العام 1791، يتصل بأحد مكتبيي هارفارد لمعرفة ما إذا تمّ بيعه كنسخة ثانـــية. "ليس لدينا أي نسخ ورقية تعود لذاك الزمان – ببساطة لأنها لا تدوم" أجابته. وهو يرد مباشرة عبر ملاحظة هامشية: "إنها لن تدوم يا عزيزتي، إذا لم تحافظي عليها".

إن الـــتعابير العامـــية وأسلوب الاقتباس الشعبي الذي يستخدمه بايكـــر، يقـــرّبنا مـــن الكاتب ويسهّل فهمنا للتفاصيل الخاصة حول الـــتفاعلات الكيميائية والتصدير المايكروي، والذي بعد تفسير طريقة ابـــتداع العلماء للاختبارات وتصميم القوائم لتتّبع ظاهرة غير معروفة كاضـــمحلال مادة الورق عبر دقة رياضية، ينفجر قائلاً: "إنه بالتأكيد جنون وهراء كاملان".

ونحـــن نود أن نقول له: "إنك على حق، استمر بهذا". وتُعتبر الـــسرية عاملاً هاماً، حيث يحتاج بايكر إلى إثبات مصداقيته داخل المختـــبرات وإضـــفاء شعور لدى القارئ بتواجده هناك..." هناك حـــيث تـــتم الاختبارات في مكتبة الكونغرس التي تشبه مستشفى للمجانين:

> إن مـــادة ديثيل الزنك DEZ (أو ديز كما تحلو تسميتها) كانت المكـــوّن الفعـــال فـــي تقنـــية مـــسجلة تمّ تطويرها في مكتبة الكونغـــرس فـــي بداية السبعينيات، حيث توضب الكتب التي ستعالج بها داخل صناديق خاصة، ليتم إدخال كل خمسة آلاف نـــسخة ســـوياً داخل نفق يشبه عربات القطارات، ليتم إغلاق جميع المنافذ وسحب الهواء من النفق، وإفساح المجال لضباب DEZ ليتسرب ويتغلغل عبر صفحات الكتب.

إن هذا الوصف يضم تقنيات كافية لجعلها تبدو صحيحة، إضافة إلى مزدوجات كافية لجعلها تبدو سخيفة.

ويستخدم بايكر التقنيات ذاتها في رواياته: تفاصيل منمنمة، يقدمها مباشرة ولكن بما يكفي من اللغة الضبابية لجعلها مضحكة أو مرعبة.

ومع ذلك، فإن كتاب Double Fold يقدم نفسه كتحقيق صحفي. فهو يصف أناساً حقيقيين، يحصلون على علاج فرط الواقعية نفسه كالإجراءات التي تنفذ في المختبر: لذلك كانت التفاصيل حول اللباس. فتشندرو شاهاني هو العالِم الرئيسي في مكتبة الكونغرس. وهو "رجل لطيف في بذة رمادية". وڤيرنون كلاپ هو "رجل متعدد الثقافات يضع ربطة عنق احتفالية"، أما دانيال بورستاين فهو "مزمن في وضع ربطات العنق الاحتفالية". (يبدو أن بايكر لديه مشكلة مع ربطات العنق الاحتفالية). ويُلحق بايكر ألقاباً وصفية بكل شخص يقدمه لنا، وهي في معظمها جيدة: "البسَّام الذي لا يلفت النظر إليه"، و"المهذب الأنيق"، و"الفاتن الفظ". وعبر الشعور بإحساس الألفة مع الشخصيات التي يتعرف إليها القارئ، فإن قناعته بإيجابية بايكر تترسخ.

كما أن التفاصيل تجعل الاتهامات واقعية، لأن بايكر لا ينسب الدوافع السيئة إلى الأشرار في القضية. هو يسجل بكل بساطة الكوارث الناتجة عن السياسات غير المدروسة. ويبدو وكأنه يتعامل مع المشهد بكل براءة تؤكد حياده وتجعله جديراً بالثقة. وتبدو "أنا" الراوي هنا كالكاميرا، تسجل كل شيء وتُظهر الاهتراء الذي أصاب النظام.

إن فرط الواقعية كرواية أخلاقية: هي عرض للقوة رائعة للقراءة. ولكن هل هي حقيقية؟ بشكل عام، أعتقد أنها كذلك، رغم أنها أقل براءة مما تظهر. ويجب أن تُقرأ كمرثية صحفية أكثر منها كدراسة

مـــتوازنة حول تاريخ المكتبة في الخمسين عاماً الأخيرة. كما يجب أن تُقـــرأ لاقتـــراحاتها الإداريـــة. وبايكر يقدم أربعة منها، جميعها جديرة بالاهتمام:

1. علـــى جميع المكتبات التي تتلقى دعماً عاماً نشر لوائح شهرية على مـــواقعها الإلكتـــرونية تُظهر الكتب التي ستتخلص منها، وذلك ليتمكن الناس من تمييز أي مكتبات تعمل بمسؤولية تجاه مجموعاتها.
2. علـــى مكتبة الكونغرس استئجار أو بناء مبنى كبير قرب واشنطن، حـــيث تـــضع، بناءً لترتيب رقمي، جميع الكتب التي تستلمها من الناشـــرين ولا تريد أو لا يمكنها ضمها إلى مقتنياتها. وإذا كانت المكتـــبة غير مستعدة لتنفيذ هذه المهمة الأساسية كمخزن وطني، عندها على الكونغرس توكيل مكتبة أخرى وتمويلها لحفظ الكتب.
3. علـــى عـــدة مكتبات عبر البلاد البدء بحفظ صحف البلاد الحالية بشكل مجلدات.
4. علـــى "الوقـــف الـــوطني للإنسانيات" إما إلغاء برنامجي الصحف الأميركـــية والكـــتب الهشة تماماً، أو الاشتراط لقاء حصوله على الـــدعم المـــالي عدم تدمير نسخ الكتب الأصلية بعد تصويرها أو مسحها إلكترونياً، وبالتالي إعادة حفظها.

ومـــاذا عن تلك المجموعات الرائعة من الصحف التي اختفت عن رفـــوف المكتبات؟ إن القليل منها لا زال معنا، ولكن أغلبيتها فقدت، فقـــدت للأبـــد، عكـــس الثور الأميركي والغابات التي انقرضت ثم أعـــدناها. إن الحكمـــة المستقاة من هذه الرواية تخدم كمعرفة إضافية للـــصحفيين: فـــلا شيء هو في عداد الموتى أكثر من صحيفة الأمس، سوى صحيفة الأمس المدمرة.

الفصل التاسع

أهمية أن تكون ببليوغرافياً(*)

مـــا هـــي أهمية الببليوغرافيا؟ إذا لم تكن سوى قائمة من عناوين الكـــتب، فمـــا الفائـــدة منها؟ يحمل السؤال أهمية خاصة الآن، وقد تعاظمت الإصدارات بين أيدينا، وانحدرت مصداقيتها في الوقت نفسه بشكل عام، مع وجود الإنترنت، حيث يلجأ الطلاب عادة إلى تنـــزيل النـــصوص من الكمبيوتر دون السؤال عن مصادرها، وعادة ما تكون تافهة. ولكن هذه المشكلة ليست بجديدة.

في قـــراءة لإحـــدى الفقرات من النسخ الأولى المطبوعة في العام 1619، مـــن مسرحية *تاجر البندقية*، لوليم شكسبير، نكتشف استحالة قراءة كلماتها الغريبة، وبالتالي فهم معانيها المبهمة، ليس لنا فحسب، بل كـــذلك علـــى الأرجـــح لمعاصـــريها مـــن قراء القرن السابع عشر. ولاستكـــشاف تـــراكيبها اللغـــوية ومعانيها الغامضة، اضطر المحررون اللغويون إلى الاستعانة بالتراث، وعلوم فقه اللغة، وعلوم الآثار، وتاريخ الـــديانات، إضافة إلى حدسهم الشخصي، لفك رموزها. وهذا النوع من التحليل النصي المترافق مع تعليقات مختلفة في الهوامش والملاحق هو عادي لدى قراء شكسبير. ولكن ماذا يمكن لببليوغرافي الإضافة إليه؟

(*) الببليوغرافي هو أخصائي في علم المكتبات، يهتم بتاريخ الكتاب وبنيته وتبويبه، وبمقارنته بأعمال أخرى مماثلة و/أو متعلقة به.

عبر تحليل ماديّ للنسخ الأصلية، استطاع الببليوغرافيون اكتشاف أن المنضّد الذي وضّب نسخ الكتاب، هو نفسه الذي عمل على تسع مسرحيات أخرى لشكسبير في العام نفسه، وبالأسلوب "المهمل" نفسه، مستخدماً طبعات قديمة كمرجع يتبعه. وعندما كانت تعترضه جملٌ يعتبرها ناقصة، كان يجتهد على "تحسينها"، لذلك فإن تلك النسخ بشكل خاص لا تمتُّ إلى لغة شكسبير بالكثير، خاصة أنها يشوبها كمعدل عام خطأ واحد واضح في كل 23 سطراً منها. لذلك، لا يكفي أن نكون ناقدين أدبيين للتمكن من تكوين فهم واضح لأعمال شكسبير واستيعابها، بل علينا أن نكون ببليوغرافيين أيضاً، أو على الأقل أن نعرف بعضاً من تقنياتهم لفهم طريقة صنع الكتب في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر.

هذا النوع من الببليوغرافيا – يدعى عادة "وصفيًّا" أو "تحليليًّا" لتمييزه عن "التعدادي" – تحوّل إلى قوة لها تأثيرها في العلوم الإنسانية خلال النصف الأول من القرن العشرين. ولكن ماذا كانت الببليوغرافيا تماماً، وهل كان لها أي تأثيرات أخرى على أي شيء إلى جانب تحرير النصوص؟ لقد عرّف سير والتر غريغ، المرجع الأول في اختصاص الببليوغرافيا على أنها "علم انتقال مكونات الوثائق الأدبية"(*). ولكن البعض طعن في هذه الصيغة معتبراً أن كلمة "علم" كانت تنحو كثيراً نحو الفلسفة الإيجابية، بينما اعتبروا أن كلمة "الأدبية" كانت محدودة جداً، حيث إن التحليل الببليوغرافي يمكن تطبيقه من ناحية المبدأ على أي نص أو شكلِ تواصل. غير أن التركيز على "المكونات" لاقى

(*) صدر تعريف غريغ الذي لم يقصد به أن يكون "رسالة عرش" عن العلم، في مقالته في العام 1912 تحت عنوان: "ما هي الببليوغرافيا". وللبحث حولها، راجع ج. توماس تانسيل، "الببليوغرافيا والعلوم" في مجلة دراسات في الببليوغرافيا، المجلد 27، 1974، ص 62.

استحسان جميع الببليوغرافيين، لأنهم جميعاً درسوا الكتب كأشياء ملموسة. وعبر التعرّف إلى طريقة تبييت النصوص على الورق كفقرات وفصول وتنسيقها للقراء كصفحات مجلّدة، أملوا فهم جانب أساسي من الأدب نفسه.

بدأ غريغ وماكرو العمل على أسس مفاهيم وتقنيات "الببليوغرافيا الجديدة"، كما دُعيت، عندما كانا طالبين في كلية ترينيتي، كامبريدج، في العام 1890. ومع نشر *مقدمة إلى الببليوغرافيا لطلاب الآداب* من تأليف ماكرو في العام 1928، و*مبادئ الوصف الببليوغرافي* من فردسون باورز في العام 1949، برزت الببليوغرافيا كمدرسة متماسكة ذات معايير بديهية منصهرة فيها. ومع حلول العام 1950، تحولت الببليوغرافيا إلى مُقررٍ في برامج تخرّج الدكتوراه في العديد من الكليات الإنكليزية. ولقد درس الطلاب المتخرجون إلى جانب علم فقه اللغة والمهارات المهنية كيفية التعرف إلى التدبيج اللغوي، وأنواع الحروف، والعلامات المائية الخفية (water marks)، وتحليل التصاميم الفنية، وتمييز أساليب التجليد المختلفة.

ازدهرت الدراسات الشكسبيرية بشكل خاص في هذه البيئة، لأن الطبعات الأولى لمسرحياته، صدرت في مرحلة بدائية من تاريخ الطباعة، وكانت مليئة بالأخطاء ولا يمكن تصحيحها استناداً إلى مخطوطات أصلية. وبناءً على معلوماتنا عن شكسبير، فلم تكن له علاقة شخصية في إصدارها. ويبدو، أن بالنسبة إليه، كان الأداء المسرحي هو الأهم، وأغلب الظن أنه داوم على تنقيح النصوص وتجديدها مع تطور مسرحياته على خشبات المسارح. ويمكننا تصوّر نصوصه الأولية وكتبه المتسرّعة، ولكن، للوصول إلى النصوص علينا تقصّي النسخ الخاطئة المرمية في مطابع زمانه، وبداية، ظهرت مسرحية *هاملت* في العام 1603

بطبعة جيب بدائية، ثم في طبعة جيب أخرى في العام 1604-1605، ولكن في عدد صفحات مضاعف، ثم في العام 1623 بمقاس كبير يضم 85 سطراً جديداً وتختلف كثيراً عن الطبعتين السابقتين. وتقدم مسرحية *الملك لير* عدداً كبيراً من الأحاجي إلى درجة أن محرري طبعتيها الأخيرتين أصدرا كتابين مختلفين عنها. وهما مختلفان جذرياً، مع أنهما يلتزمان بالمعايير الببليوغرافية ويمثل كل منهما إصداراً اعتبره شكسبير في وقت من الأوقات على أنه الإصدار النهائي. وهكذا بات لدينا مسرحيتان من *الملك لير*، إضافة إلى طبعات قديمة ملتبسة منها تمثل كلها غنىً إضافياً لنا، والشكر يعود هنا إلى الببليوغرافيا(*).

شكلت ألغاز نصّية كهذه إلهاماً لعدة أجيال من الأكاديميين لتحقيق إنجازات أكثر براعة. وعبر التمعن بطبعات قديمة، تمكنوا من تقصّي دلائل إنتاج طباعي متعددة الأنواع - أخطاء إملائية، مخالفات فنية، حروف مكسورة، أي شيء قد يساعدهم في إعادة تمثيل آلية الإنتاج في ورشات الطباعة في العصر الإليزابيثي، للاقتراب أكثر وأكثر من نُسخ شكسبير المفقودة. ولقد تعلّم بعضهم التنضيد اليدوي وتحولوا إلى طابعي تيبو. وتحوّل معنى الدكتوراه في أذهانهم إلى مرادف للعمال الأوائل الذين حوّلوا كلمات شكسبير الأولى إلى كتب. وبما أنها كانت أفكاراً غير سليمة، لذلك لم تعمّر طويلاً.

ولم تختفِ الببليوغرافيا، ولكنها وُضعت جانباً من قِبل اتجاهات الأكاديميين الأدبيين الأخيرة. فمع *النقد الحديث* في العام 1940، إلى التفكيكية في الستينيات، والتأريخ الحديث في الثمانينيات، أصبحت

(*) ستانلي ولز وغاري تايلور، شكسبير أُكسفورد الكامل (دار جامعة أُكسفورد، أُكسفورد 1987)، وستيفن أورغل وأ. ر. برونمولر، محررين، ويليم شكسبير، الأعمال الكاملة (بنغوان، لندن ونيويورك، 2002).

دراسة النصوص أكثر انفصالاً عن مضمونها في الكتب. وتحولت الببليوغرافيا إلى شبه اختصاص غامض متعلق بتحرير أعمال شكسبير، وله صلات ضعيفة بفهم الآداب الحديثة. ولقد شكّلت بعض الأعمال الحديثة، من *باميلا* إلى *عوليس*، مشاكل ببليوغرافية هامة، ولكن أمكن تحريرها بمعظمها عبر ملاحظات حول اختلافات نصية. وفي العام 1968 أثار إدموند ويلسن عاصفة انتقادية ضد رعاية جمعية اللغة الحديثة لإصدارات مفرطة في الببليوغرافيا - ولقد أشار إلى مشروع كان يستعد فيه ثمانية عشر محرراً لإصدار نسخة من كتاب *توم سوير* عبر قراءة عكسية للنصوص - ومع خمود المجادلات حول هذا الموضوع، كانت الببليوغرافيا قد خسرت الكثير من ألقها. فاختفت من برامج التخرج وحتى من كليات علوم المكتبات. ولجيل شهد سقوط المواثيق وصعود الإنترنت، لم يعد التحليل الدقيق في الكتب القديمة يمثل أي جاذبية له.

* * *

وسط هذه الأسئلة التي تطرح نفسها وقع المحتّم: بدعة. فمن الطبيعي أن تولّد جميع البديهيات زنديقات، ولكن المصلح الببليوغرافي الأول، دونالد ماكنزي، شكّل خطراً خاصة على الحرس القديم، لمقدرته على التغلب على معظمهم في عقر دارهم. فبعد اعتناقه مبادئ باورز، ليتحول إلى فني طباعة، انتقل من وطنه نيوزيلندا إلى كامبريدج، إنكلترا، حيث كتب أطروحة الدكتوراه تحت إشراف أستاذ الببليوغرافيا، فليب غاسكيل، والتي تحوّلت إلى كتاب *دار نشر جامعة كامبريدج، 1696-1712*، وصدر في العام 1966، واعتُبر كأحد الأعمال الأكثر صرامة التي كُتبت بناءً على أسلوب غريغ وماكرو. ولكن كان لها جانبٌ مقلقٌ، ليس لأن ماكنزي قدّم تحليلاً ببليوغرافياً لكل كتاب

أنتجته دار جامعة كامبريدج، خلال ستة عشر عاماً، بل لأنه نسب الدليل المادي إلى مخطوطات في محفوظات الدار، ولقد كشفت المخطوطات بأن الأمور لم تجرِ كما يجب بناءً على الممارسات التقليدية.

لم يزود المنضدون الطبّاعين *بالفورمات* (صفحات متكاملة من الحروف من معدن الرصاص موضبة ضمن إطار معدني وجاهزة للطباعة) بوتيرة مستمرة. وعلى العكس، فإن منضداً قد يرسل *فورمة* كاملة إلى أي طبّاع متوفر. وهكذا وفي مواضع عديدة ومختلفة لم يعد لدى جميع الطباعين في الورشة نسخاً من كتاب محدد. وقد يتولون تنضيد *فورمة* لمقالة مثل Principa، التي نشرتها CUP في العام 1713، ثم ينضدون بوليصة شحن أو إيصال قبض، لينتقلوا بعدها إلى تنضيد كتب خُطَب. كانت بعض هذه المهام تستغرق وقتاً أكثر من غيرها، كما أن بعضها كان يتسم بضرورة سرعة التنفيذ. لذلك كان المسؤول يلجأ إلى توزيع مهام العمل بأنسب الطرق، وهكذا كان يتم إنتاج عدة كتب في الوقت نفسه، عبر إيقاع غير منتظم لكل منها. ولقد عوضت استمرارية الإنتاج على مستوى الورشة عدم الاستمرارية الإنتاجية لكل طبّاع، وهو أسلوب لتنظيم العمل دعاه ماكنزي "الإنتاج المتزامن". ولقد بدا هذا وكأنه فكرة بريئة، ولكن عندما توضّحت جميع عواقبه، بدا وكأنه يستنزف الأسس التقليدية للببليوغرافيا.

افترض ببليوغرافيون سابقون أن كل كتاب يجب أن يتم تنفيذه عبر سلسلة إنتاجية مستمرة، أي نمط خطّي: حيث يزود المنضد الطبّاع *بالفورمة* عند آلة طباعة محددة، الذي يقوم بدوره بطباعتها، ولتذكر في معظم الأوقات آلية الإنتاج في أعلى الصفحات، وفي أسفلها خطوط الاتجاه أو أرقام المطبعة (هي أرقام تحدد عمل كل طبّاع). لذلك كان من الممكن تكوين مجموعة من الدلالات بالعودة إلى الوراء عبر آلية

الإنـــتاج من النسخ المطبوعة، إلى آلة الطباعة، ثم المنضد، وإلى حدٍّ ما علـــى الأقـــل، المخطوطة الأصلية، حتى ولو كانت مفقودة، كما هي الحال مع شكسبير بشكل خاص. فالبحث عن نصوص موثوقة لمسرحياته كان الأساس في هذا الميدان.

سمح أهم ببليوغرافيين لأعمال شكسبير، غريغ وشارلتون هنمان بمخالفـــات. ولقـــد أظهـــر أفضل الكتب عن عصر شكسبير، *طباعة ومـــراجعة كـــتاب شكسبير الأول* (1963) من تأليف هنمان، طريقة إنـــتاج كتابه الأول، *فورمة* إثر أخرى، في الوقت نفسه الذي كان يتم طـــباعة كـــتب أخرى في المطبعة ذاتها. ويذكر هنمان في موضع محدد عبارة "إنتاج متزامن". ولكن معظم الببليوغرافيين تناولوا الكتاب منفرداً بدلاً من كامل إنتاج المطبعة كوحدة للتحليل، وهذا الخط من التقييم، الـــصالح فقـــط ضمن حدوده الخاصة، أدى بهم إلى نسج استفهامات فرضـــية حـــول الأشخاص الذين أنتجوا النسخ الأولى من شكسبير. وعوضـــاً عن عمال من لحم ودم - كان الحرفيون قبل الثورة الصناعية يعملـــون في نـــوبات غير منتظمة، ويتوقفون لمدة من الوقت مع بعض شخـــصيات مـــسرحيات شكـــسبير - استبدلوهم بأشخاص وهميين تجـــريديين مثل المنضد "أ" يحيط به المنضد "ب" و"ج" وآخرون، الذين يُعـــتقد أنهم أنتجوا كتب جيب ومتوسطة بإيقاعات منتظمة بناءً على مبادئ علوم الببليوغرافيا.

لا يعـــني هذا أن هؤلاء الرجال الوهميين عملوا كرجال آليين. بل علـــى العكـــس، إذ بدا ممكناً إثبات أن أحدهم كان ضعيفاً بالإملاء، وآخـــر كان يخطئ في الألفاظ المتجانسة، بينما ثالث كان يعمل على طقـــم حـــروف غير مناسب، في حين تركوا جميعاً آثاراً مميزة لهم عبر الـــصفحات في أنساق كشفت عملهم المميز عن شكسبير. وعبر تمييز

المقاطع التي عبثوا بها، أملَ الببليوغرافيون عزل العناصر الغريبة في أعظم أعمال اللغة الإنكليزية. كانت عملية إلغاء، وبالأساس سلبية في نتائجها، ولكنها قرّبت القارئ المعاصر مما كتبه شكسبير فعلياً.

ولو عملت المطبعة بناءً على مبدأ الإنتاج المتزامن، لكان من الصعب بمكان أن نحدّد بثقة مقاطع قام بتنضيدها عمّال معيّنون، ولانقطعت سلسلة الاستدلال في مواقع حاسمة، ولتحوَّل المنضدون "أ" و"ب" و"ج" إلى أشخاص مفترضين يحركهم خيال ببليوغرافيين موتورين، مجرد "طبّاعين وهميين". وهذا كان عنوان مقالة لماكنزي في العام 1969، والتي هزّت قاعات عالم الكتب النادرة كزلزال أرضي. ولجيل يليه ناقش الأكاديميون مبادئ الببليوغرافيا بكل الشغف الذي بمقدورهم ضخه في التساؤلات الأكاديمية، وكانوا بشكل عام مهمَلون من العالم بأسره، الذي كان مشغولاً بأمور أخرى خلال تلك السنوات. ولكن الرهانات أمام الببليوغرافيين كانت هائلة. فلقد بدا وكأن ماكنزي قد أماط اللثام عن خطأ مزلزل خرق صفوفهم.

لقد دافع الببليوغرافيون التقليديون عن مواقعهم عبر حجتين: الأولى، أن دار نشر جامعة كامبريدج، وهي مؤسسة تجارية صغيرة في قرية ريفية في مطلع القرن الثامن عشر، لا يمكن اتخاذها كمثل لأسلوب عمل المطابع الأكبر في العاصمة لندن قبل مائة عام؛ ثانياً، أن الأدلة الموثّقة لم تُبطل المبدأ الأساس في استخدام تحليل الكتب كعناصر ملموسة للوصول إلى استنتاجات حول أسلوب إنتاجها - كما يظهر في النسخ القديمة من شكسبير، لأن هذا ما أثار معظم الجدل المستعر. فإذا لم تتمكن الببليوغرافيا من تقديم طريقة موثوقة لتحرير النصوص الشكسبيرية، فما نفعها؟

تعاطى ماكنزي مع الحجة الأولى معتمداً على أدلة في أوراق ويليم بوير، وهو صاحب مطبعة لندنية كبرى، كانت اكتشفت في العام 1963، وأكدت مبدأ الإنتاج المتزامن وأظهرت كماً كبيراً من أنساق العمل المركبة وغير المنتظمة، والتي كانت تتشارك فيها غالباً عدة مطابع عبر العديد من المهنيين. بعد هذا بعدة سنوات، أكد جاك ريشز تحليل ماكنزي عبر ممارسات ماثلة في مطبعة مدينة نويشاتل السويسرية. وللتأكيد، فإن مكونات أرشيف كل من كامبريدج، ولندن، ونويشاتل، تعود كلها إلى القرن الثامن عشر، ولكن لم يكن هناك تغييرات حاسمة في تقنيات الطباعة منذ العام 1500 (أو ربما حتى في عصر غيتنبرغ) حتى العام 1800. ولقد أكدت مصادر المخطوطات الثلاث – إضافة إلى وثائق من مطبعتين لندنيتين تعود إلى القرن الثامن عشر، صحة تحليل ماكنزي: إن الإنتاج في المطابع خلال بدايات العصر الحديث لم يتبع النسق النظامي الذي ينسبه إليها الببليوغرافيون التقليديون.

ولكن، هل يمكن لمخطوطات من القرن الثامن عشر إبطال حجج مبنية على تحليلات مادية لكتب شكسبير بحجمي الجيب والمتوسط؟ ولكن ماكنزي لم يذهب بعيداً إلى هذا الحد. وفي الواقع، فإنه أظهر تقريراً كاملاً لأسلوب المنضد "ب" المهمل في *تاجر البندقية*. ولم يكن هناك من خطأ أساسي في تنسيب مقاطع محددة إلى منضدين يمكن تسميتهما "أ" أو "ب" أو أي شيء آخر. حتى إننا نعرف القليل حول الرجال الفعليين الذين عملوا في مطبعة ويليم جاغارد حيث أُنتج الكتاب الأول بين العامين 1622 و1623 – بمن فيهم شخص يدعى جون شكسبير، وهو ليس قريب لويليم، كان يخدم كمتدرب لدى مطبعة جاغارد من العام 1610 حتى العام 1617. وعبر دراسة دقيقة

للكتاب قسماً إثر آخر، اعتقد هنمان أنه توصّل إلى طريقة للتعرف إلى المنضدين الذين كانوا وراء النصوص، وهكذا أخذوا يقتربون "... أكثر قليلاً من حقيقة ما كتبه شكسبير"(*).

بعد أربعين سنة من نشره كتاب *طباعة ومراجعة كتاب شكسبير الأول*، يبدو أنه هو أيضاً كان على حق. ولقد أكدت الدراسة الأخيرة للكتاب، والتي قام بها بيتر بلايني، وهو أحد مؤيدي ماكنـــزي، معظم اســـتنتاجات هنمان. ولقد تعرّف بلايني إلى المزيد من المنضدين وعدّل مـــن رواية هنمان حول المراجعة والتدقيق. ويبدو اليوم أن الممثلين في فرقة شكسبير المسرحية قاموا بتدقيق النصوص قبل أن يشرع المنضدون بإضـــافة تعديلات مفاجئة خلال عمليات الطباعة. وقد شملت الطبعة الأولى ثلاثـــة أمـــور هامة: فإحداها ضمت خمسة وثلاثين مسرحية، وأخرى ضمت ست وثلاثين بما فيها Troilus and Cressida، ولكن دون المقدمـــة، وثالثة ضمت ست وثلاثين بما فيها Troilus ومقدمتها. ولقد أشار الطبّاعون إلى هذه المغالطات عبر إشارات في النصوص. وفي بعـــض الحـــالات شـــطبوا صـــفحة لا داعي لها من مسرحية *روميو وجوليـــيت*. وفي حالات أخرى تركوا تعديلات أُضيفت يدوياً خلال التدقيق الأخير. فالنصوص كانت دائمة التغيُّر والتحول حرفياً من حالة إلى أخرى.

* * *

يُعتـــبر هـــذا الـــدرس المقدّم من "أكثر الكتب أهمية في الأدب الإنكليـــزي"، وكما تضعها هيلين غاردنر(**)، فقد حمل مسألة أخرى

(*) شـــارلتون هـــنمان، طباعة ومراجعة كتاب شكسبير الأول، (أُكسفورد عبر مطبعة كلارندون، أُكسفورد، 1963)، I، ص vii.

(**) شكسبير والبيليوغرافيا الحديثة، ص X.

أثارهـــا بدع ماكنـــزي الظاهرة: يمكن للببليوغرافيا المساعَدة في حل بعض الصعاب الخاصة بتحرير أعمال شكسبير، ولكن ما الذي يمكنها تقديمه للفهم العام للأدب؟ ولقد عالج ماكنـــزي شخصياً هذه المشكلة في مقالـــة في العـــام 1977 عـــنوانها "التيبوغرافيا والمعنى: مسألة ويليم كونغريف"، والتي أحدثت تأثيراً مماثلاً لمقالته "مطابع الفكر".

لقد شكّل كونغريف قضية استثنائية ومشوقة للدراسة، لأنه عاصر عهـــدين من التيبوغرافيين. وكانت النسخ الأولى من مسرحياته والتي طـــبعت مـــصادفة بمقـــاس الجـــيب في العام 1690 بسيطة جداً مثل مسرحيات شكسبير، بينما قدّمت الأجزاء الثلاثة المنشورة من أعماله في العـــام 1710 مـــستوى مرتفعاً من العمل الفني الفخم. أيهما الأفضل: كونغريف القرن السابع عشر أم الثامن عشر؟ لقد واجه ماكنـــزي هذا الخـــيار عـــند تحضيره نقداً لأعماله. فبدأ برفض تمييز غريغ الشهير بين "الجوهـــر"، أو نـــص الـــرواية الأساســـي، و"الطوارئ"، المكونات التيبوغـــرافية مثل الإضافات الثانوية أو التوسيعات التي يضيفها المطبعي لفـــصل مـــشاهد المسرحية عن بعضها. كانت "الطوارئ" بالنسبة إلى غـــريغ ليست سوى ديكور لا يؤثر على معاني النص. أما بالنسبة إلى ماكنـــــزي فكانـــت أساســـية في توسط الاختلافات بين نوعين من التجارب: متابعة مسرحية على الخشبة مقابل قراءة نصها من صفحات كـــتاب. ومهمـــا كانت التأثيرات التي كانت تدور في رأس الكاتب المسرحي عند وضع السيناريو أساساً، فإن روايته اكتسبت معنى جديداً عندما تحولت إلى كتاب، لأن تخيّل العمل الدرامي عند هذه المرحلة لم يعد ممكناً من القراء الذين يتابعون أفكاراً تيبوغرافية.

لقـــد شارك كونغريف عن وعي في التحول من وسط إلى آخر، لأنه ومع حلول العام 1710 كان قد توقف عن الكتابة للمسرح مُركّزاً

علـــى نشر مسرحياته. ولقد شكلت النسخة الكبيرة الحجم من أعماله معـــياراً للـــشكل الجديد من الكتب التي برزت في القرن الثامن عشر. وعكس مقاسات الكتب المتوسطة المرهقة، ومقاسات الجيب المتسرعة من العصر الأقدم، فإنها كانت صغيرة الحجم لتُحمل باليد وأنيقة كفاية لـــتجذب أذواق مجتمع استهلاكي جديد. ولقد تخلّص كونغريف من بعـــض المقاطـــع السفيهة، ولكنه حافظ على معظم النصوص الأصلية. ولكـــن الـــذي وفّر لها معنىً جديداً فكان تصميم الكتاب، الذي جاء نتيجة جهد مشترك بين كونغريف وصديقه المقرّب وناشره، جاكوب تونسون وطبّاعه الماهر جون واتس.

عبر استخدام أوراق كبيرة الحجم (ولكن صفحات أصغر، حيث إن هـــذا الحجم يتم طيه ثلاثاً، بينما يتم طي حجم الجيب مرتين قبل توضـــيبه بشكل مجلد) وتوسعات أكثر تناسقاً، استطاعوا تقديم كتاب أنـــيق ومتسق. وبدلاً من التوجيهات النادرة في كتب الجيب القديمة – عـــادة لا شيء أكثر من "دخول" أو "خروج" في الإشارة إلى مشاهد جديـــدة – قامـــوا بتمييز المشاهد عبر أرقام، ونقوش تزيينية، وقوائم بالشخـــصيات، وهكذا، أصبح بوسع القارئ أن يتخيّل من كان على خـــشبة المسرح في أي وقت من الأوقات وإمكانية رؤية كيف اندمجت جمـــيع الأجزاء مع الكل. وكانت جميع المشاهد والمسرحيات والأعمال الكاملـــة موضـــحة بنظام كما في الطراز المعماري التقليدي الحديث. وهكـــذا، حـــصل كونغريف على موقعه إلى جانب شكسبير – الذي ظهرت أعماله في حلة قشيبة مماثلة قبل عام – مما شكل انطلاقاً لقواعد كلاسيكية جديدة.

عـــند هـــذه النقطة، تقاطعت حجج ماكنـــزي مع المواضيع التي طُـــوِّرت في حقل أبحاث موازٍ، تاريخ الكتاب. وعكس الببليوغرافيين،

فإن مؤرخي الكتب كانوا يدرسون جميع نواحي إنتاج وتوزيع الكلمة المطبوعة، بما فيه علاقتها بالتحولات السياسية والاجتماعية. وبالنسبة إليهم، فقد شكّل العام 1710 نقطة تحول في تاريخ حقوق النشر. فهي كانت السنة التي وافق فيها البرلمان على قانون حقوق النشر الأول "وثيقة لتشجيع التعليم عبر إناطة مسؤولية نُسخ الكتب المطبوعة بمؤلفي أو مشتري هذه النسخ خلال الأوقات المنشورة هنا". وكما يُظهر عنوانه، فإن القانون أعطى المؤلفين أهمية أكبر. ورغم عدم ذكرهم فعلياً في النص، فإنه أقرَّ بحقهم بمنتجهم الذي أبدعه خيالهم. ولقد أظهر ألكسندر بوب أن المؤلفين كانوا قادرين على العيش من بيع حقوق كتبهم. ومع حلول منتصف القرن مثّل صموئيل جونسون صورة المؤلف المحترف، الذي عاش حياة كريمة من جهد قلمه عوضاً عن الرعاية والاسترزلام، وذلك من موقعه في تأمين طلبات السوق الأدبي. وكانت الآداب تبرز كنظام شبه مستقل منتظم حول الكتاب المطبوع، مقابل عالم الرسائل من القرنين السادس عشر والسابع عشر. وخلال العصرين التيودوري والستيوارتي كان التواصل في الحقل العام يتم بشكل أساسي عبر العروض - عبر المسارح والمنابر والقصور وفي الشوارع. ولكن الكلمة المطبوعة سادت في العصر الجيورجي رغم أن الكتب المخطوطة استمرت في الصدور (فإذا كانت الكمية المطلوبة من أحد الكتب أقل من مائة نسخة، فإن إنتاجه عبر إيكاله إلى الخطاطين كان أقل كلفة من دفعه إلى المطبعة) بينما حافظت الأخبار على انتشارها عبر الثرثرات.

لذلك فإن إصدارات كونغريف جاءت ضمن عملية عامة، تُحوّل الرسائل إلى مادة أدبية، ولقد أعلن ماكنزي أنه يجب فهمها من زاوية واسعة، أطلق عليها "علم اجتماع النصوص". ومن العلوم إلى علم

الاجتماع، لا شيء قد يكون أبعد من نظامي غريغ وماكرو، ولكنهما فتحا طريقاً للببليوغرافيا الأنغلوأميركية لتتقاطع مع "قصة الكتاب" الفرنسي، تلك المجموعة الواسعة والمتنوعة من كتب التاريخ التي طورها لوسيان فيڤر وهنري - جان مرتان. وفي كتاب L'Apparition du Livre الصادر في العام 1985، ربطا تأثير اختراع غيتنبرغ بظاهرة اجتماعية واقتصادية طويلة الأمد مثل إنشاء معزل للمؤلفين، وأسعار الخرق البالية والبرشمان، وتطور الخطوط التجارية. ولقد أكدا الحاجة إلى دليل كمّي لقياس الاستمرارية مقابل التغيير. وكمؤيدين لمدرسة Annales (السجلات والحوليات) للتاريخ، استطاعوا تقصي أنماط طويلة الأمد من الثبات البنيوي، والتي أدت بهم إلى تحدي الأفكار المتعارف عليها، بما فيها الاعتقاد بأن غيتنبرغ أطلق ثورة مباشرة في صناعة النشر.

حاول ماكنزي القيام بشيء مماثل عبر التحوّل من التحليل الدقيق لكتب محددة إلى دراسة متكاملة لتجارة الكتاب في لندن، والتي تقصّاها عبر عمليات مسح لجميع السجلات الموجودة للأعوام 1644 و1668 و1689. واستلزمت أبحاث كهذه حجماً هائلاً من العمل، حيث جمع ماكنزي المتغيرات من مصدرها الأساسي، دليل د. ج. ونغ للكتب الصادرة بين العامين 1641 و1700، عبر دراسة كل نسخة استطاع الوصول إليها في مكتبات الأبحاث الرئيسية. وعبر إحصاء عدد الصفحات في كل كتاب، استطاع الوصول إلى تقدير أفضل لمجموع الإنتاج عوضاً عن إحصاء العناوين، كما حصل على نظرة متكاملة عن المشهد الأدبي من زاوية إنتاجية واقتصادية.

قدّم ونغ مع بعض المصادر الأخرى، في العام 1668، ما مجموعه 491 عنواناً، والتي تمكّن ماكنزي عملياً من دراسة 458 عنواناً منها. ولكنه لم يتمكن من تحضير وصف تحليلي لكل منها، رغم أن عينه

الخبيرة تمكنت من رصد جميع اتجاهاتها واختلافاتها. ولم تظهر أسماء المطابع في أكثر من نصف العناوين. وكانت الطبعات الثانية تشكل ثلث مجموع المنتج. كما أن 52 كتاباً منها فقط حمل شكلاً من حقوق النشر أو الرخص الرسمية للنشر، رغم صدور قانون 1662. فبائعو الكتب كانوا حريصين أساساً على الحفاظ على حقوقهم الخاصة، وتمّ ذلك عبر "اتفاقات" غير رسمية بين بعضهم بعضاً، مثل ترتيبات مشتركة للتسويق والمبيعات. ويبدو أن المطابع وتجار الكتب مارسوا أعمالهم دون الاكتراث للسياسة أو تطوير أي قابلية للتجديد.

ولقد سيطرت المصالح التجارية المحافظة على التجارة خلال فترة الثورة. وعبر مسح كل ما نشر في العام 1644 في ذروة الحرب الأهلية الإنكليزية تقريباً، اكتشف ماكنزي درجة مفاجئة من الاستمرارية الإنتاجية. كما أنه رفض النظرية التي قدّمها كريستوفر هيل وكيث توماس أن انفجاراً غير مسبوق للإصدارات السياسية تمّ في مطلع العام 1640 نتيجة لحرية الصحافة، حيث يجادلهما ماكنزي مصراً أن لا نهاية السيطرة الحكومية في العام 1641 أو إعادتها في العام 1643 أثّرا في تجارة الكتاب، لأن بائعي الكتب استمروا بجني الأرباح بطرق مماثلة دون أي اهتمام بأي تغيرات في القوانين. حتى إن كتاب ميلتون Areopagitica المتعارف عليه كبيان سياسي للصحافة الحرّة، لم يكن ضد قانون 1643 لإصدار التراخيص، ولكنه كان في الواقع رداً على المضايقات التي تعرّض لها خلال إجراءات طلاقه.

وعندما أطلقت ثورة 1688 تغيراً جديداً في قواعد اللعبة وتوقفت الرقابة المسبقة على المطبوعات في العام 1695، شهد ماكنزي ازدهاراً للاستمرارية والمصالح الاقتصادية عوضاً عن انتصار الحرية. ورغم خسارة شركة قرطاسيي لندن لاحتكارها تجارة الكتب، فإن

أعضاءَها استمروا في سيطرتهم على هذه التجارة عبر نقابة كانت تدعى "الأنقليس" (congers). حتى إن المؤلفين ظلوا غافلين عن التغيرات في المناخ السياسي عندما استمروا في الظهور العلني أمام الجماهير عبر وضع أسمائهم على صفحات الكتب الرئيسية. ولقد حملت 40 بالمئة فقط من العناوين في العام 1644 أسماء المؤلفين و43 بالمئة في العام 1668. وفي إنكلترا كما في فرنسا، فإن التقديرات أدت إلى نتائج معدلة: حيث بدت الاتجاهات الاجتماعية – الاقتصادية طويلة الأمد أكثر أهمية من التحولات السياسية المؤقتة.

* * *

كان ماكنزي الببليوغرافي الوحيد القادر على تحدي الأفكار المتعارف عليها، عبر العمل على سجلّين ببليوغرافيين: حسابي وتحليلي. ولكن لم تكن له الكلمة الأخيرة، ولقد قدّم في كتابين نُشرا بعد وفاته في آذار/مارس 1999 كشفاً بالإنجازات التي حققها وبالآفاق التي فتحها أمام الآخرين للاستمرار بنهجه. الأول، *إحداث معنىً*، أما الثاني *مطابع الفكر ومقالات أخرى* والذي حرره اثنان من طلابه السابقين، بيتر ماكدونلد ومايكل سواريز، فهو يجمع أهم مقالاته في مجلد واحد منسق فنياً بناءً على المواضيع المقدمة بشكل يُظهر تميزها، وهو يضيء على طريقة عمل ماكنزي، مفككاً *المعتقدات المتحجرة* ومستخرجاً أفكاراً جديدة من المواد المستعصية. والكتابان يثيرا مسألة أهمية الببليوغرافيا أبعد من حقل النقد النصي حيث نشأت.

خلال هذا الوقت كان المؤرخون مستمرين في تقصّي الألغاز التي تعود إلى عصر غيتنبرغ. وفي سنة 2000، عند الاحتفال بمرور ستمائة عام على ولادته – يفترض أنه ولد في العام 1400: ونحن نعرف عنه أقل مما نعرف عن شكسبير – صدر سيل من المنشورات التي تشهد

علـــى حـــيوية علوم الببليوغرافيا. وعبر تقنيات حديثة لتحليل الورق، والحبر والحروف المستخدمة، تمكّن مختصون مثل بول نيدهام، وريتشارد شـــواب، وبليز أغيارا يأركاس، من تصحيح معرفتنا حول طريقة إنتاج الكتب الأولى. وفي العام 1991، أقامت مكتبة فولغر معرضاً لكنوزها، حـــيث شـــرحها بيتر بلايني في كتاب صغير، *كتاب شكسبير الأول*، والـــذي جمـــع أكثر معارف شكسبير اللغوية تقدماً والتي يمكن للقراء العاديين فهمها. ولقد أظهر أن حيوية الببليوغرافيا لم تستكن ولا زالت قادرة على التوجه إلى الجمهور العام.

وبالعودة إلى الماضي يبدو واضحاً أن الخلافات حول الحدود التي وقعـــت في الـــسبعينيات من القرن العشرين لم تتمكن من تدمير هذا الاختـــصاص، ولدى الببليوغرافيين فرصٌ هامة للعمل في جهود تعاونية مـــع مؤرخي الكتب لاستكشاف مواقع جديدة. وتبدو المشاكل التي بحاجـــة إلى حـــل اليوم شديدة البعد عن النصوص الشكسبيرية. وهي تظهر في أنظمة المعرفة المتنوعة، بما فيها الإنترنت، حيث تبدو النصوص الـــرقمية منفصلة عن الكتب المطبوعة، وتترك الرسائل الإلكترونية آثاراً يسهل اختفاؤها. هذه هي بعض المشاكل التي فتنت دونالد ماكنـــزي عـــندما توفي، شاباً، في العام 1999. وهو كان أشد البعد عن تقويض الببليوغرافيا، بل إن بدعه أعطتها حياة جديدة.

الفصل العاشر

خفايا القراءة

في زمـــن مضى، حرص القراء على الاحتفاظ بكراريس يدونون فيها أفكارهم وخواطرهم. وعندما كانوا يصادفون مقطعاً بليغاً، كانوا يقومـــون بنـــسخه في كراريسهم تحت العنوان المناسب، مضيفين إليه ملاحظـــاتهم مـــن يومياتهم المعاشة. ولقد بيّن لهم المُصلح الاجتماعي إراسموس Erasmus(*) الطريقة لتحقيق ذلك، وإذا لم يستطيعوا الوصول إلى كتابه الشهير De Copia، كانوا يعودون إلى نماذج مطبوعة منه أو إلى استشارة مدير المدرسة الأقرب إليهم. هذه الممارسات انتشرت في كـــل مكـــان في بدايات إنكلترا الحديثة، بين القراء العاديين كما بين الأدبـــاء أمـــثال بايكون، وبن جونسون، وجون ميلتون، وجون لوك، واكتـــنفها أسلوب خاص لتقبُّل الكلمة المطبوعة. وبعكس قراء اليوم، الـــذين يتـــبعون انسياب السرد النصي من البداية حتى النهاية، (إلا إذا كانوا قراءً رقميين ينقرون طريقهم عبر الصفحات على الكمبيوتر) كان أوائل الإنكليز يقرأون البدايات وبتقطُّع، وكانوا يقفزون من كتاب إلى آخر. كما كانوا يُجزِّئون النصوص إلى أقسام، ليعيدوا جمعها في أنساق جديـــدة عبر إعادة كتابتها في أقسام مختلفة من كراريس خواطرهم، ثم

(*) ديزايديـــروس إراسمـــوس (1469/1466 - 1536) فيلـــسوف هولندي اهتم بالتجديد الفكري والتعليمي في عموم أوروبا. (المترجم)

ليعيدوا قراءتها وترتيب أنساقها مضيفين إليها المزيد من المقتطفات. لذلك كانت القراءة والكتابة نشاطين متلازمين. وهما انتميا إلى جهد متواصل لإضافة معنى للأشياء، لأن العالم مليء باللافتات: يمكنك قراءة طريقك عبره؛ وعبر المحافظة على سجل بقراءاتك، يصبح بإمكانك إنشاء كتابك الخاص، كتاب يحمل بصمتك الشخصية.

وصل عهد كراريس الخواطر إلى أوجّه في أواخر عصر النهضة، رغم أن عادة التدوين ابتدأت على الأغلب في القرن الثاني عشر وبقيت منتشرة في العصر الفيكتوري. وهي اختفت قبل حلول عهد "التصاريح القصيرة"، ورغم هذا فإنها لا تزال تُمارس في بعض الأماكن. وأفضل نموذج لكرّاس خواطر في القرن العشرين هو كراس جفري مادان، الذي نشرته دار جامعة أُكسفورد في العام 1981. وقد يكون هو آخر الكراريس، إذ إنه لم تعد طباعته وذهب إلى النسيان، ما عدا في صالات القراءة في بعض الجامعات البريطانية الهامة. وهو لا شك يستحق الإنقاذ من النسيان لأنه رائع للقراءة، خاصة لشخص مهتم بالقراءة للقراءة فقط كوسيلة لفهم معنى العالم.

تخرّج مادان من جامعتي إيتون وأُكسفورد، ثم نجا من جراح أُصيب بها في الحرب العالمية الأولى، ليصاب في العام 1924 بالتهاب السحايا ويتقاعد بقية عمره معتاشاً من مدخول خاص، مراقباً الكوميديا الإنسانية من نوادي لندن ومنابر أُكسفورد. وعندما قام بتدوين خواطره التزم بمبادئ إراسموس القاضية بتقطير الأشياء للوصول إلى جوهرها لتصبح صالحة للنخبة في أحاديثهم المستقبلية. وكما اقترح إراسموس، فإن مادان صمم نقوشه الخاصة لتزيين صفحاته وتمييزها. ولكن هذه النقوش كانت منسجمة مع عالم الرجل الأنيق في العشرينيات من القرن العشرين، بدل أن تتماشى مع روحية إنسانية

ودينية تعود إلى القرن السادس عشر. ولقد قاربت ذائقة مادان للنوادر حدود عدم اللياقة، وقد دوّنها مختصرة تحت باب "فكاهة لا تنسى".

كما أن باب "أكاديمية" وفّر له مادة لسخرية مباشرة بلمسة إيتون - أُكسفورد. أما باب "جمال، فتنة، وجهات نظر" فضمّ ملاحظات مادان إلى جانب آخرين متمكنين من كشف التفاصيل أو التقاط الجُمل اللاذعة. ولكن فكاهته تحولت قاسية بعد الحرب العالمية الأولى، حيث تحول كل شيء سوريالياً بما فيه الوطنية والدين.

عبر كراس خواطر مادان تفيض الاقتباسات والأقوال الذكية دون توقف، ولكن بدل إعطاء انطباع بخربشات فوضوية، فإنه يحمل نظرية متجانسة إلى العالم، نظرة شخصية حادة وأخرى مفاجئة تحمل طعم عصرها. وتمزج خواطر مادان بين "الإدواردية" المتكلفة ونبل ما بعد الحرب، وهو يجمعها دون توضيح أو تفسير، حيث يصفّف بكل بساطة هذه التعليقات المتنافرة والمختارة من قراءته ومحادثاته.

* * *

ولكن لماذا هذا التوقف عند كتاب شخصي غامض؟ لأنه يرينا كيف يمكن لشريحة بشرية سالفة أن تفرض قواعدها على ممارساتنا في العصر الحديث. ولقد خدمت كراريس الخواطر بفعالية أكبر في هذا المضمار قبل عدة قرون، عندما كانت هي وسائل القراءة شبه الوحيدة المتاحة، وعبر دراستها، اقترب المؤرخون والأكاديميون إلى مسافة أقرب من فهم القراءة، كممارسة ثقافية محددة وكطريقة عامة لتفسير العالم. ولكنها عملية معقدة، خاصة عندما ينتقل الباحث من الأسئلة حول من هم القراء وماذا يقرأون، إلى المشاكل حول إدراك الغاية من الكتاب.

يعتبر توماس جفرسون نموذجاً في هذه المسألة. فعندما نُشر كراس خواطره بداية في العام 1928، عَمّم محرره جيلبرت تشنارد أنه مفتاح

سيقود إلى اكتشاف شخصيته العصيّة، وكذلك معرفة نظرته إلى العالم. وهذه النظرة وصلت إلى اختصار التنوير الأميركي، ولكنها بدت غريبة كمجموعة من المقتطفات من قراءات جفرسون الشاب. فمن سن 15 إلى 30 سنة، دوّن مقتطفات على مطويات من أوراق فولسكاب. وفي أواسط الثلاثينات من عمره قام بتصنيف المطويات التي أراد حفظها وقام بتجليدها في جزء من 123 ورقة، والذي عاد إليه مقتبساً منه لبقية حياته، رغم أنه لم يضف خلالها شيئاً جديداً إليه.

إنه كراس خواطر "أدبي"، في مواجه دفتر الخواطر "القانوني" الذي استخدمه في عمله كمحام. ومن أصل 407 إدخالات هناك 339 منها هي اقتباسات شعرية، بما فيها 14 من الشاعر الإيرلندي البطل أوساين، الشخصية التي ابتكرها جيمس ماكفيرسون، والذي اعتبره جفرسون "أعظم شاعر خُلق". وكانت نظرة جفرسون إلى الروايات دونية ما عدا رواية لورانس ستارن Tristram Shandy، إذ كان يفضّل الروايات الكلاسيكية التي درسها صبياً في المدرسة على يد القس جيمس موري، وكطالب في كلية ويليم وماري: هوميروس ويوريبيديز وهوراس وڤيرجيل وأوڤيد - ولكن ليس أفلاطون الذي كان يحتقره. أما مثله الأعلى فكان الفيلسوف الإصلاحي الغامض شيشرو صاحب *المناقشات السكولائية*(*) وليس الخطيب المفوّه. ولقد ضمت قائمة شعرائه البريطانيين أسماء معاصرة مثل إدوارد يونغ وجيمس تومسون إلى جانب شكسبير وميلتون وپوپ. ولكن مختاراته الشعرية كانت أقل توقعاً من شعرائه. وعلى سبيل المثال، فقد اعتبر عمل صموئيل بتلر الشعري البطولي الساخر *انتحال الشخصية* كمصدر أخلاقي جدّي، عكس ڤيرجينيين آخرين، استخدموه ليسخروا من زهد الأميركيين الشماليين (اليانكي). وفي الواقع، فإنه ما أساء بأي

(*) نسبة إلى مسقط رأس شيشرو.

شـــكل إلى روح الفكاهة في كراس خواطره، فلا شيء فيه بعيد عن عالم جفري مادان، رغم أن الأخير كان أكثر براعة في كلاسيكيته.

"عـــالم تـــوماس جفرسون الضائع"، كما دعاه دانيال بورشتاين، كـــان مـــساحة جدّيـــة، مشبعة بالفلسفة التنويرية، ولكن القليل من الفلاسفة ظهر في كراس خواطره، ربما لأن جفرسون استخدمه أساساً كسجلٍ لقراءاته الكلاسيكية والأدبية المفضلة. أما الاستثناء فكان هنري ســـانت - جـــون، فيكونت بولينغبروك، والذي تمثل نسبة أعماله التي صنّفها جفرسون في مجلده الأخير الأربعين بالمائة، والذي قام بتجليده في العـــام 1780. ولقد أُعجب ببولينغبروك كمعلّق شجاع على الإنجيل، وقـــام بتدوين مقاطع من ملاحظاته كهذه: "والآن هناك عيوب كبيرة، وبطـــلان ملموس في كل صفحة تقريباً من صفحاته، ويبدو جوهرها بـــشكل لا يقبله أي إنسان يعترف بوجود خالق أعلى كامل". وكان بولينغبروك مصدر نصيحة جفرسون الشهيرة لابن أخيه: "ثبّت العقل في مكانه بشدة، واطلب كل حقيقة وفكرة إلى محكمته... ثم اقرأ الإنجيل كما تقرأ المؤرخين الرومانيين ليفي وتاكيتوس".

قـــد يـــبدو هذا مألوفاً ومعروفاً: فجفرسون، الأب المؤسس كان أعزب عقلانياً وعلمانياً، ولكن ما الذي دفعه لتدوين مقاطع غريبة من ميلـــتون، مـــثل مرثية آدام في *الفردوس المفقود*؟ ولماذا اختار جفرسون الـــشاب مقطعاً غير معروف من سجلات كراهية النساء؟ ولماذا اختار مقطعاً ملعوناً مماثلاً من *شمشوم اليوناني* الذي كتبه ميلتون أيضاً؟

يَدّعـــي دوغـــلاس ويلسن الذي أصدر أحدث الكتب وأكثرها أكاديمية حول مدونات جفرسون، أن لديه الجواب، فهو دوّنها، إضافة إلى أخـــرى مماثلـــة في إزعاجهـــا - أوصافاً غاضبة وكريهة لحوادث مـــوت - خلال فترة اضطراب عاطفي. لقد كتب أولى مقتطفاته بعد

وفـــاة والده بقليل، عندما كان في الرابعة عشرة من عمره، والتي تلتها وهـــو في شبابه، عندما كان يواجه صعوبة في التوافق مع أمه المتسلطة على منـــزل والده. وتتزامن الإشارات العدائية ضد النساء مع عزوبيته المـــزمنة، والـــتي وصلت إلى نهايتها بزواجه السعيد في العام 1772 من مارثـــا ويلزسكلتون، حيث توقف عن التدوين في الوقت نفسه تقريباً. وعـــندما كرّس نفسه لمهنتي المحاماة والسياسة، توقف عن كتابة الشعر وأغلـــق كراس عواطفه السابقة، رغم أنه أعاد فتحه مرات عديدة بقية حياته لاستمزاجه والاقتباس منه.

هذا التفسير لم يلقَ صدىً لدى كينيث لوكريدج. ففي أطروحة مميزة وســـاحرة وغـــير تقلـــيدية نشرها في العام 1992، اعتبر كراس خواطر جفرسون واحداً من أهم إعلاني نوايا في كراهية النساء في ڤيرجينيا خلال القرن الثامن عشر. أما الآخر فكان مدونة ويليم بيرد، وكانت مجموعة من الـــسوالف حـــول نـــساء شرهات ورجال ضعاف، تتداخل فيها التقاليد الـــشعبية، ويشكل بيرد هدفاً سهلاً، فكما يصفه لوكريدج فهو يتكون من مزيج كريه: عجوز عاجز، ينفّس عن كبته الجنسي والاجتماعي، وإخفاقاته السياسية، بغضب ضد النساء. ولكن ماذا عن توماس جفرسون؟ إنه يحمل "حقـــداً أبـــدياً" وأكثـــر، بناءً للوكريدج. صحيح أن جفرسون لم يُرفق اقتباســـاته في كـــراس مدوناته بتعليقات شخصية: ولكن عبر انتقاء أكثر التعلـــيقات إفراطاً في التعبير عن كراهيته للنساء من المنشورات المتوفرة لديه والتي لا تنتهي، استطاع ضخ حجم هائل من الرعب والكراهية في تصوره للحـــرب بـــين الجنسين، وكما يرى لوكريدج، فقد استطاع التعبير عن رهاب مَرَضي حول "الجندر" (النوع الاجتماعي) في روحه وثقافته.

لإثبات نظريته، يبرز لوكريدج علاقات جفرسون الصعبة مع أمه، التي استولت على جميع أملاك والده بعد موته. وهو يقول إن جفرسون

اختار زوجة مطيعة في مارثا ويلز وتجنب العلاقات العاطفية بعد موتها. وبـــدلاً من الزواج ثانية، أعاد تصميم منـــزله ليحوله إلى جناح خاص بـــه كرجل أعزب دون إتاحة المجال لحياة عائلية. كذلك عندما سبق له وأتاح مساحة عائلية، فإنها أخذت طابع الأولويات الأبوية لتكشف عن قلقه الخفي. من هنا كان تحذيره لابنته البالغة الحادية عشرة من عمرها حول النظافة: "تعتقد بعض السيدات أن بإمكانهنّ تحت ستار امتيازات الراحة المنـــزلية اللجوء إلى ثياب فضفاضة ومهملة عند الصباح. ولكن علـــيك أنـــت أن تكوني نظيفة ومهندمة من لحظة نهوضك من الفراش حتى موعد العشاء أو تناول الشاي".

مـــع المزيد من البحث في الأدلة، نكتشف أنها ظرفية، ولقد قمنا بهـــذا سابقاً، عبر البحث في السير النفسية التي تدّعي الغوص في أرواح الموتى عبر قراءة تاريخهم الشخصي وكأننا ننجّم في فناجين القهوة. ولا شـــك أن معظـــم الأكاديميين يفضّلون أدلة أكثر صلابة، مثل الهندسة الوراثية، لمعرفة علاقة جفرسون بسالي هيمنغز – التي لا تظهر في نظرية لوكـــريدج رغـــم أنهـــا قابلة للدراسة. ولكن قراءة لوكريدج لكراس خواطـــر جفرسون تتحدى الحكمة العادية بطريقة مؤثرة. فهو يتعامل معه كاختبار "رورسكاتش"(*) طالباً مساعدة فوكو عوضاً عن فرويد. وتـــبدو الشذرات والعبارات الأدبية التي نسّقها جفرسون وكأنها حقل معرفي: فالعلاقات والمسافات بينهما توحي بأسلوب وصايا لاشعوري. والـــرعب من جنس النساء يشتقّ عنه خوف من عجز ذكوري، وقلق من النظام الأسري، ورعب من الفوضى، وهواجس الموت.

لمـــنح نظـــريته هـــذه حقها، علينا قراءة كل ما دوّنه في كراس خواطـــره مـــع مواصلة ملاحظة التشابهات التي تدعم تماسك مدوناته

(*) اختبار نفسي يتم عبر قراءة رسوم تلقائية تشكّلها بقع من الحبر الصيني.

كـــوحدة متكاملة. حيث يكتشف لوكريدج نسقاً، رغم أنه لم يتمكن من استيعاب استثناءات له مثل قصيدة *Venice Preserved* من توماس أوتواي. ولو تقبّلنا استنتاجات لوكريدج أو لم نتقبلها، فلقد كشف لنا أن عالم توماس جفرسون المفقود لم يكن ذلك السعيد بوصاياه المنطقية الـــذي تخيّله كتّاب سيرته السابقون. والأهم من هذا أنه أظهر إمكانية دراسة كراريس الخواطر بنفس طريقة دراسة العلوم الكونية.

* * *

لدراسة أوسع ومعرفة أغنى بكراريس الخواطر، علينا دراسة كتاب كفـــين شـــارب الجديد عن ويليم دريك، القارئ النهم واللاعب في الأزمـــات التي هزت إنكلترا منذ العام 1640 حتى 1660. ودريك لم يتميز عن الأسياد الآخرين في عصره سوى بحبه للكتب. وهو تعلّم في أُكـــسفورد، ثم درس المحاماة في لندن، وأدار أملاكاً في بكينغهامشير، وانتُخب في البرلمان في العام 1640.

مثل الكثير من نواب البرلمان، فإن دريك تجنّب مناصرة أي من الفريقين المتناحرين مع انزلاق إنكلترا نحو الحرب الأهلية. وهو نشر في العـــام 1641 خطاباً داعماً للبرلمانيين ولقيام سلطة إدارية قوية. كمـــا أنه قدم في العام 1642 مبلغ 200 ليرة إسترلينية للحفاظ على الخيول الرسمية العائدة للبرلمان والعرش. ومع احتدام المعارك في العام 1643 غادر إلى القارة الأميركية واستقر هناك خلا بعض الزيارات القصيرة إلى إنكلترا، ليعود نهائياً مع إعادة التنصيب، ويتخذ مقعده في البرلمان كمناصر لتشارلز الثاني في العام 1660 وحافظ على ذلك حـــتى مـــوته في العام 1669. وهو كان من الأعضاء السطحيين في الـــبرلمان أكثر منه عضواً فاعلاً، مراقباً للسياسة من مسافة آمنة في المقاعد الخلفية حيث بقي دائماً.

رغم أن دريك لم يشارك في أحداث أواسط القرن الكبيرة، ولكنه تابعها عن كثب عبر الصحافة، جامعاً المعلومات التي انتقاها من المطبوعات والنشرات مع اقتباسات من قراءاته الواسعة في التاريخ والفلسفة. ثم وضعها في كراريس مدوناته: ما مجموعه خمسة عشر كراساً جمعها بين العامين 1627 و1640، واثنان وعشرون بين العامين 1640 و1650، إضافة إلى سبعة عشر مجلداً ضمّنها ملاحظات ورسائل مختلفة. ويمكن إلحاقها بمفكرة سياسية تضم إدخالات بين سنة 1631 و1642، وكتب من مكتبة دريك، تحمل حواشيَ وهوامشَ مكثفة. هذه المجموعة من المصادر توفّر أغنى كنز من المعلومات حول قارئ وقراءاته في هذا الكون.

للأسف، فإن دريك لم يعلّق على الأحداث إلا لماماً، ربما لأنه لم يسعَ للمصالحة مع نفسه. كما تُعتبر مفكرته مخيبة لآمال أي شخص يسعى لمعرفة تفاعل "جالس في المقاعد الخلفية" مع الثورة، إضافة إلى صعوبة تقصّي تواريخ مدوناته، رغم أنها تُظهر كيف فَهِمَ موضوع القراءة واستفاد منه. فبالنسبة إليه كانت القراءة عملية استيعاب إثر استخلاص جوهر الكتب ودمجها في النفس. وهو كان يفضّل مَقاطع نصيّة قصيرة ومختصرة يمكن تطبيقها واستخدامها في حياته اليومية. ذلك أن القراءة بالنسبة إليه يجب أن لا تستهدف المعرفة، بل أن تدفع القارئ قُدماً في العالم، وأن أهم أجزائها وأكثره فائدة هو الذي يأتي من الأمثال والقصص الخرافية وحتى من الشعارات التي تظهر في كتب الرموز.

انتمت قراءاتٌ كهذه إلى عالم فكري بعيد عن عالمنا، رغم أننا قد نقرأ لأهداف تطبيقية. ولكن عقلية دريك الغريبة تبرز في مثال حكمة الأمثال التي دوّنها في كراريس خواطره. ولا شك أن هذه الأمثال يمكن

ترجمتها إلى مائة تفسير مختلف، وليس هناك من وسيلة واضحة لجمع مئات الاقتباسات من كراريس خواطر دريك تحت عنوان واحد. ولكن يمكننا الاستفادة من دراسة لمواد مماثلة من ليزا جاردين وأنتوني غرافتون(*)، اللذين نشرا تحليلاً رائعاً ومبتكراً للهوامش التي دوّنها غبريال هارفي، المحامي وسكرتير إيرل ليستر في العصر الإليزابيثي. فقد قرأ هارفي إصداراً يعود للعام 1555 عن *تاريخ روما* كتبه المؤرخ الروماني ليڤي، وأعاد قراءته عدة مرات لفترة 22 عاماً، تاركاً فيضاً من التعليقات الهامشية، التي يمكن ربطها دائماً بأحداث معاصرة. وفي الواقع، فقد ملأ الهوامش بتعليقات ومراجعات ليحوّل الكتاب إلى ما يشبه المخطوطة المحرّفة أو كراس مدونات داخل كتاب. ولقد وجدا أن هارفي لم يقرأ يوماً كتاب ليڤي كاملاً، بل كان ينتقي مقاطع متوافقة مع مقتضيات ظروفه الحالية لينسّقها مع مقتطفات من أعمال كلاسيكية أخرى، للاستخدام كذخيرة في معارك البلاغة أو كنصائح لزبائن مستقبليين، ولقد وقعت هذه المعارك الفعلية أمامه في المحافل الدبلوماسية والمناظرات القضائية. أما مهمة هارفي فكانت تجهيز الذخائر الأدبية على أمل أن ينجح أحد زبائنه في تسجيل انتصار بواسطتها ليحصل هو على مكافأته. فالثقافة الأدبية ارتبطت بصعود وسقوط البورصة السياسية، وكان هارفي حريصاً على التقدم على هذا الطريق عبر القراءة ليس ليرقّي معرفته ولكن ليتقدم مهنياً.

عندما انطلق كڤين شارب باحثاً عن المنطق المؤسس لكراريس مدونات دريك، استطاع تقصّي الثقافة السياسية الكلاسيكية عينها التي اكتشفها غرافتون وجاردين بين سطور وحول هوامش هارفي في

(*) "Studied for Action": How Gabriel Harvey Read his Livy, "Past & Present, no. 129 (November 1990), 31-78.

كتاب ليڤي. ولقد استخدم هارڤي ودريك المصادر نفسها بعد حرفها بالاتجاه نفسه: نحو الحركة بدل التأمل، ونحو نجاح دنيوي بدلاً من حكمة دائمة. ولقد ظهر هذا التوجه الشعبي من خلال المعاجم المختصرة والمراجع الدليلية. وكما فعل هارڤي، فإن دريك استشهد بليڤي باستمرار. كما أنه استشهد بمكيافيللي وباستشهادات مكيافيللي بليڤي. ثم أعاد تنسيق استشهاداته مضيفاً إليها المزيد من المؤلفين ومُدخلاً تنويهات من التاريخين الحديث والقديم. وانطلاقاً من اللاتينية والإيطالية إلى الإنكليزية، ومن روما القديمة وفلورنسا النهضة إلى إنكلترا الستيوارتية، فإن كل شيء كان ينعكس متحولاً نحو كل شيء آخر، مع تماسكه كنظرة موحَّدة نحو العالم بناءً لمبدأ الطلب: ارتجالٌ هاوٍ للمكيافيللية.

استشهد دريك بمكيافيللي أكثر من أي مؤلف آخر، ولكنه لم يتفاعل مع الجوانب القومية والجمهورية من كتاباته. وهو طفق يبحث فيها عن أقوال مأثورة قد تساعده في جهوده لتحسين موقعه في الحياة بينما كان حكم آل ستيوارت ينهار من حوله. وأكثر ما يلفت النظر في عملية الانتقاء هذه كان ماديتها. فبينما كان أبناء الوطن يقتتلون بسبب نزاعات حول "كتاب الصلاة العام"، وقانونية القساوسة، ومعنى الأسرار المقدسة، لم يرَ دريك فيها سوى نزاعات قوى، ولم يُظهِر أدنى تعاطف مع المفهوم المعروف بأن إنكلترا يجب أن تبقى مملكة مسيحية واحدة. ولقد أبدى قلقاً من إساءات الامتيازات الملكية في العام 1630، وضرورة تعزيزها بعد العام 1642، ولكنه لم يتعرض للمضامين الروحية في سلطة الملك. حتى إنه فسّر الإنجيل على أنه مجموعة من القصص التحذيرية حول ثور مَن يجب أن يُسلخ، واضعاً مراجعَ لمقاطع من الإنجيل مع استشهادات من مكيافيللي وغويتشارديني، وكلاهما يتنافسان في علمانيتيهما.

وعـــندما كانت تعترض دريك مواضيع كالحب والصداقة، فإنه كان يترجمها بروحية ساخرة مماثلة، وكأنه آمنَ بأن الموت سيقضي على الحـــب، لـــذلك فإنه لم يتزوج يوماً. كما أنه انتظر وفاة والده بحماس متأملاً وراثة أملاك العائلة، ويبدو أنه لم يكن على وفاق مع أقربائه. أما في الحـــياة الاجتماعية، فقد بذل قصارى جهده لإخفاء عواطفه وتجنُّب الصداقات الحميمة، إذ إنه لم يجد في العالم حوله سوى الخبث والخداع: كـــل إنـــسان يسعى إلى مصالحه الخاصة، مهما ادعى وبصوت مرتفع بـــولائه لقضايا محقة. فالحياة ليست سوى حرب الجميع على الجميع، والـــسياسة هـــي حكـــم القوي، والتاريخ هو حراك دوري من وإلى الفوضى. عدم الاكتراث هذا يذهب معه بعيداً إلى درجة يبدو فيها أنه يمزج مكيافيللي بهوبز.

هذا كان تفسير كڤين شارب، وهو يتابع بجهد حثيث عبر مئات الصفحات من الاقتباسات التكهُنية عبر مصادر واسعة من المخطوطات المتفرقة، من التاريخ إلى الأساطير، إلى الأمثال، إلى كتب الرموز، وإلى عودة دائرية مدوخة للترجمة. إنها دورة عنف، ولكن هل هي حقيقية؟

يـــستنتج شارب أن "دريك تفوّق على حنكة مكيافيللي ومكره" حـــتى "علـــى الـــشيطان نفسه" وأصبح من أتباع هوبس قبل أن يقرأ أعمالـــه. ولكـــن هذا قد يثير مشكلة، لأن دريك قام بجمع العديد من الاقتباسات معاً، بينما كتب مكيافيللي وهوبس مقالات منتظمة. ولقد ثـــبّت هـــوبس نظريته السياسية عبر فلسفة مادية دقيقة البنية. بينما لم يـــتعامل مكيافيللي مع السياسة كلعبة قوى: راقبَ المبادئ قيد العمل أثـــناء صـــراع القوى، وتجاوزها لجميع المبادئ العليا – أي الفضائل الوطنـــية مثل الروح الحضرية التي أمل أن تنقذ الجمهورية الفلورنسية. بالمقابل، فإن مجموعة دريك من الأمثال الساخرة والأقوال الدنيوية تبدو

وكأنها تمثل وسيلة للتخفيف من حدة الأوهام التي تصوّر السياسة على أنها صراع قوى.

غير أن شارب يصرّ على أن دريك "ابتدع نظاماً فكرياً خاصاً" – "مبدأً مكيافيللياً كاملاً" مبنيًّا بمواد من هوبس تعيد تكوين السياسة كجزء من "ثقافة فكرية وسياسية جديدة". أسَّس دريك إدراكاً جديداً للأنا، وفي الواقع ابتدع نظرة جديدة إلى العالم غيّرت المشهد الفكري في بدايات إنكلترا الحديثة، رغم أنه لم يوضح أياً من أفكاره. ولكن كيف جسّد هذه الخدعة؟ عبر القراءة. وبناء لشارب، يمكن مقارنة رحلة دريك عبر الكتب بعبور إنكلترا نحو القرن السابع عشر.

رغم تطرّف هذه النظرية، فإنها تستحق أخذها بعين الاعتبار. ذلك أن دريك انكبَّ على القراءة منتقداً ومقتبساً نصوصاً ليجمعها في أنساق تُعبّر عن نظرة معمّقة إلى العالم. وهو كان يقرأ دون وجل من المراجع العليا، دينية كانت أو زمنية، وعبر تصرّفه هذا مارس حكمته الشخصية كفرد مميز. ولقد حملت كراريسُ خواطره بصمة وعيه هذه، وعبّرت خلال قرن من التوهج السياسي والديني عن سلوك سيظهر بعد قرن من هذا، في عصر التنوير: حين حلّت الأفكار الاستقلالية، والتشكيكية، والعلمانية، والمنفعية، والعقلانية والدينية إلى جانب المؤمنة بالله.

أما وقد انغمس شارب تماماً في قراءته لدريك، فقد أصبح بمقدوره الوصول إلى الكثير من الأدلة على هذا العقد من الأفكار لوصله إلى نسق ثقافي مضمّن في كراريس خواطره. غير أنه يعارض فكرة الدليل أساساً. وبالنسبة إليه فإن رائحة الإيجابية تفوح منه، وهي ناحية من نظرية تاريخية، يدّعي أنها وصلت بدراسة التاريخ البريطاني إلى طريق مسدود.

ولتثبيت هذا الاتهام، يمهّد شارب كتابه بمقالة عن الأسلوب وبمسح تاريخي. وهو يستعرض النقاشات الكثيرة التي باعدت ما بين مؤرخيّ بريطانيا في القرن السابع عشر خلال الخمسين عاماً الماضية، مشدداً على المواجهة بين "الحرس القديم" من المؤرخين الاجتماعيين مثل لورانس ستون وكريستوفر هيل، و"التصحيحيين" مثل كونراد رسل ومثله. وكما يرى، فإن التصحيحيين قد دمروا فكرة الحرس القديم القائلة بأن الحرب الأهلية في إنكلترا كانت ثورة أشعلتها الأزمة الاجتماعية والانقسام الإيديولوجي. ولقد أثبتوا العكس: انهارت الملكية كنتيجة غير مقصودة لنزاع قاتل بين النخبة السياسية التي تشاركت في استفتاء أساسي حول السياسة والدين. أما وقد وجّه التصحيحيون كبارهم واحتلوا الميدان الرئيسي في معركة كتابة التاريخ، فقد وصلوا أخيراً إلى مشكلة: ما التالي؟ سرد تفصيلي لا ينتهي من الأحداث السياسية التي لا تؤدي إلى شيء. ولكن عبر اتباع دليل شارب، تمكنوا من الوصول إلى مخرج من "ما بعد التصحيحية" - وبالذات، ما بعد الحداثة، أو قفزة كبيرة نحو النظريات.

وبناءً للنظريات، فإن شارب يعني مزيجاً من أعمال ميشال فوكو، وجاك دريدا، وجاك لاكان، وفرديناند دوسوسير، وميكائيل بختين، وبيار بورديو، ورولان بارت، وهايدن وايت، وكليفورد غيرتز، وكوينتن سكينر، وجون بوكوك، وهانس روبرت جوس، وولفغانغ إيزر، وستانلي فيش، وستيفن غرينبلات، إضافة إلى المتهمين الآخرين عادة. وهو يقول إنهم يشكلون "معرض غير المعروف" لأوائل المؤرخين الحديثين وهو مستغرب، آخذين بعين الاعتبار التشبع في المراجع المتوفرة لهم من المجلات الأكاديمية خلال الثلاثين سنة الأخيرة. والأكثر غرابة

المفهـــوم أن "النظرية" هي كلٌّ متماسك، شيء يمكن استخدامه لإنقاذ المؤرخين الذين غرقوا في مياه الإيجابية الضحلة.

ويـــبدو مـــن المشكوك فيه أنه عبر توسّله "أدلة" و"حقائق" تمكّن الجـــيل القديم من المشاركة في إيجابية غبية متعددة. وكما يبدو فإنه من غـــير المـــتوقع إنقاذ الذين سيغرقون مستقبلاً، عبر وسائل ممهدة لتدمير الذات عبر الطريقة والنظرية. وستتسبب رواية شارب حول النقاشات التاريخية وادعائه الفرادة بإزعاج للعديد من القراء. ولكن، سيكون هذا مؤســـفاً، لأنـــه ســـبق وعمل على كمية كبيرة من المواد غير المعروفة وتوصّل إلى بعض الاستنتاجات التي تشكل تحدياً.

أعتقد أنه على حق، فللتعامل مع كراريس الخواطر كمواقع، يجب التنقيب فيها عن معلومات حول كيف يفكر الناس في ثقافة مبنية على افتراضـــات مختلفة عنا. وعبر اختيار وتنسيق نبذات من مخزون أدبي لا حـــدود له، وفّر رجال إنكلترا الحديثة الأوائل حرية الحركة لإجراءات شـــبه واعـــية لتجربة إدارية. وتكشف التشابهات المنتقاة والتي تُجمع اختياراتها ضمن أنساق، كيف تعمل نظرية المعرفة في الخفاء، ولا يظهر هـــذا الـــنوع من الظواهر في البحث التقليدي، ولا يمكن فهمه دون الاستعانة بالنظرية. ولعل أفضل مدخل نظري مساعد يقدمه فوكو هو كون أسلوبه "البحث عن آثار المعرفة" طريقة لدراسة النصوص كمواقع تحمـــل آثـــار أنشطة نظرية المعرفة، والتي تتمتع بميزة إضفاء العدالة إلى البعد الاجتماعي للفكر.

أما الأبعاد، فيمكن على الأقل التكهن بوجودها بفضل دراسات أخرى حول كراريس الخواطر والهوامش. حيث يقوم شارب بتقييمها، مستخرجاً ما يكفي من المادة لإثبات بعض التشابهات المماثلة في آليات القراءة، لدى رجال إنكلترا الحديثة الأوائل. ولقد كوّنوا أفكاراً متنوعة

وقرأوا مختلف أنواع الكتب. ولكنهم كانوا يقرأون بالطريقة نفسها – بالتجـــزئة، عبر التركيز على مقاطع نصية محددة، والقفز من كتاب إلى آخـــر، عوضاً عن القراءة المتسلسلة، كما يفعل القراء بعدهم بقرن من الزمن، عندما دفع صعود الأعمال الروائية بعادة المطالعة الدقيقة للكتب من الغلاف إلى الغلاف قُدماً إلى الأمام. ولقد أرغمت القراءة بالتجزئة ممارســـيها علـــى القراءة بنهم، واتخاذ أحكام حساسة، وفرض أنماطهم الخاصـــة علـــى قراءاتهم. كما تم اعتمادها في "القراءة التنفيذية"، وهو أســـلوب مناسب لرجال مثل دريك وهارڤي وجون دي وجون روس وســـير روبـــرت كوتون وإدوارد هايد وغيرهم من معاصريهم الذين استعانوا بالكتب لتحديد اتجاهاتهم ومواقعهم العملية، وليس سعياً وراء المعرفة بذاتها أو للترفيه عن أنفسهم.

عـــبر إتقـــان كمٍ كبير من المواد وتنسيقها على نحو ملائم، قدّم شـــارب مساهمة هامة في تأريخ القراءة. ولكنه كان يسعى إلى المزيد – لإثـــبات أن تاريخ القراءة هو المدخل إلى التاريخ بشكل عام، أو على الأقل تاريخ القرن السابع عشر. أما بالنسبة إلى دريك ومعاصريه، فهو يصرّ على أن التصنيف الذهني الذي رافق كراريس الخواطر أثبت أهميته في البحث عن سبيل عبر السياسات الملتهبة في القصور. وكانت النتيجة عقلـــية مكيافيللية – ولا يعني هذا أن جميع مثقفي النخبة تبنّوا الفلسفة ذاتهـــا، غـــير أن كل شخص كان يميل إلى قراءة العالم بالطريقة المخيّبة للآمال عينها.

ثم إنهـــم حوّلـــوا قراءاتهم إلى كتابة، ذلك أن كراريس الخواطر حوّلتهم إلى كتّاب. وهي أجبرتهم على تأليف كتبهم الخاصة، وعبر هذا طـــوّروا أحاسيس أكثر دقة عن شخصياتهم كأفراد مستقلين. واتخذت "الأنا" التأليفية مكانها في كراريس خواطر الإنسان العادي، وليس فقط

في أعمـــال الكـــتّاب الكبار. وهي انتمت إلى الميول العامة التي دعاها ستيڤن غرينبلت "بناء شخصية عصر النهضة".

رغـــم أن هـــذه الفكرة قد استُهلكت تماماً عبر أكاديميي عصر النهـــضة، فإن شارب يحاول وضع روح جديدة فيها عبر تطبيقها على الـــسياسة. وعـــبر الانصراف نحو "الكتابة الشخصية" يحاول إثبات أن دريـــك "كتب أيضاً نصوصاً للمجتمع والدولة". ولقد ساهم كل من وضـــع ملاحظات هامشية وجَمَعَ مراجع في "بناء ثقافة سياسية" عند هذه النقطة من النقاش، حيث تحمل الاستعارة كماً كبيراً من الإجهاد، فـــإن شـــارب يرى أن الإنكليز "كانوا قادرين... على تعيين أنفسهم كعملاء سياسيين" عبر القراءة، إذا كانت قراءاتهم تدور حول سياسات الدولة، لأن السياسة كانت "نوعاً من الوعي"، وكانت النفس "نصوصاً سياســـية". "تحولت الحرب الأهلية نفسها إلى نصوص موضع نزاع". لذلك كانت القراءة هي كل شيء: "إننا ما نقرأ".

قـــد يكون هذا الشعار أفضل من الذي سبقه، مثل شعار *الألبان الخـــضر*: "إننا ما نأكل". ولكن هل هو صحيح؟ رغم جبال كراريس خواطـــره والمجلدات التي علّق على هوامشها، فإن دريك لا يقدم مادة مثالية لدراسة حالة، إذ لم يستطع تقديم قراءة مقنعة للسياسة في إنكلترا بـــين العامين 1643 و1660، ذلك أنه قضى معظم هذه الفترة خارج البلاد. وهو لم يذكر الحرب الأهلية، أو نقاشات پوتني، أو تطهير پراید من البرلمان، أو محاكمة تشارلز الأول وإعدامه، أو صعود كرومول إلى الـــسلطة، أو الكومـــنولث، أو أي شيء ذي أهمية خلال هذه الفترة التاريخية. وعوضاً عن دراسة المعركة، فقد هرب منها وأغلق الباب على نفسه داخل حجرته. وتشير مدوناته حول روما القديمة وعصر النهضة في فلورنـــسا إلى اهـــتمامه بالأحداث المدهشة عبر القنال الإنكليزي،

ولكن هل كانت هي مدوناته فعلاً؟ إذ إن 15 فقط من أصل 37 كراساً تنسب له كُتبت بخط يده. وقد يكون أملى البقية على سكرتير، ولكن طبيعة تأليفه إن وجدت تبقى موضع سؤال. وهناك الكثير من الفرضيات التي قد تتداخل مع تفسير المدونات التي خطها، لأنه لم يضع تاريخاً لأي منها. وعكس مدونات هارقي، فهي تتألف من عدد لا يحصى من المقتطفات التي لا يمكن إقرانها مع أي شيء آخر يحدث في عالم السياسة.

في محاولته الإجابة على هذا الاعتراض، يجمع شارب بعض الأدلة التي سبق ورفضها عند انطلاق نقاشه حول الأسلوب. ولكنه في النهاية يسمح بها بناءً لنظرية أدبية، وكأنه يمكن إنجاز العمل إذا انقطع أثر الأوراق من الأرشيف. ويجلب تكريس شارب هذا للنظرية، المزيد من الاهتمام له إذا لم يعلنها على الملأ. وهو يخطب في القراء محتجاً على دريدا ومهدداً فوكو. ولا شك أنها ستبدو للذين قاموا بقراءتها كلها مريبةً كجَلد الكتاب المقدس.

على هذا، فإن الآتي أعظم، لأنه في قلب الكتاب يُظهر شارب وجود أسلوب مكيافيللي للقراءة يلوّن الثقافة السياسية في مطلع إنكلترا الحديثة. ولكنه لا يبرهن أنها كانت فلسفة، رغم توضيحه أنها كانت طريقة لتفسير هذا العالم. ويبدو أن هذه المكيافيللية العنيدة والتلقائية والمتذاكية التي تعززها في بعض الأماكن سياسة هوبس الداعرة، قد انتشرت من القصور الإيطالية في القرن الخامس عشر نحو الملكيات المركزية في فرنسا وبريطانيا خلال القرنين السادس والسابع عشر. ومع حلول عصر دريك، كان الرجال الإنكليز قد تعلّموا العمل في الكتب بالطريقة نفسها التي كانوا يفاوضون فيها أنظمة السلطة، حيث كوّنت قراءاتهم تتمة لسياساتهم، رغم أنها لم تكن الشيء نفسه.

تستحق هذه النقطة التفكير فيها، لأن تاريخ القراءة قد تحوّل إلى أحد أكثر الحقول حيوية للأبحاث في الإنسانيات، رغم أنه يتألف بمعظمه من دراسة حالات لا تمتُّ إلى النمط العام. وبدل المشاركة بنظرة مشتركة إلى الاتجاهات طويلة الأمد، يعمد مؤرخو القراءة إلى معاملة مواضيعهم كأهداف متحركة بفعل التفاعل بين المتضادات الرقمية: القراءة عبر تقليب صفحات كتاب ورقي، في مقابل القراءة من لفائف مخطوطة، القراءة الصامتة مقابل القراءة بصوت مرتفع، القراءة المنفردة مقابل القراءة في مجموعات، القراءة على نطاق واسع عن طريق القفز عبر أصناف مختلفة من المواد، مقابل قراءة عدة كتب عدة مرات بشكل مكثف. والآن وقد تحوّلت الأبحاث نحو كراريس الخواطر، يمكننا إضافة القراءة المجزأة إلى هذه القائمة مقابل القراءة المتتابعة.

والأهم، يمكن لنا إلقاء نظرة متمعنة على القراءة كعنصر في ما كان يدعى تاريخ التوجهات الذهنية - أي، أفكار العالم وطريقته في التفكير. وجميع أصحاب كراريس الخواطر من دريك إلى مادان، قرأوا طريقهم عبر الحياة، ملتقطين شذرات من تجاربهم ليوائموها في أنساق محددة. وتمثّل التشابهات التي تجمع هذه الأنساق محاولة للتعرف إلى الحياة بشكل أكبر، وتكوين معنىً لها، ليس عبر التوسع في النظريات ولكن عبر فرض الشكل على المضمون، فكراريس الخواطر كانت تشبه الحياكة: فنتج عنها صور، بعضها أجمل من الآخر، ولكن كل منها ملفت بشخصيته الخاصة. وهي تُظهر أنساقاً ثقافية: عبر المقاطع التي أُدخلت إليها، والقُطَب التي جمعتها، والخيوط التي حبكتها، والنسيج الذي شكّلها.

الفصل الحادي عشر

ما هو تاريخ الكتاب؟

هـــذه المقالـــة هي محاولة، تمت قبل ثلاثين عاماً، للتعريف بتاريخ الكـــتاب كحقـــل دراســـي جديد، ولاقتراح كيف يمكن جمع نواحيه المختلفة معاً، للعمل على مجموعة مشتركة من المشاكل. ولأنه أطلق كماً من الحوارات وتمت إضافته إلى البرامج التعليمية، فلقد طُلب مني إعادة تقيـــيمه في ملحق: "ما هو تاريخ الكتاب؟ تقييم آخر"، والذي ظهر في مجلة ***تاريخ الثقافة الحديثة*** *(2007)، مجلد 4، صفحة 495-508، حيث يـــضع الملحـــق المقالة الأساسية في إطارها الصحيح ويصف الأعمال اللاحقة، وهنا أُعيد نشر المقالة السابقة فقط(*).*

"Histoire du Livre" - "Geschichte des Buchwesens" - "History of Book"

تعددت التسميات، ولكن تمَّ الاعتراف رسمياً بأن "تاريخ الكتاب" هـــو تخـــصص جديد وهام. ويمكن تسميته أيضاً "التاريخ الاجتماعي والـــثقافي للتواصل عبر المطبوعات" لو لم تكن هذه العبارة طويلة، ذلك أن الهـــدف مـــنه فهم كيف تنتقل الأفكار عبر طباعتها، وكيف أثّرت الكلمـــة المطبوعة في فكر وتصرفات الجنس البشري خلال الخمسمائة

(*) لتجنُّب الإزعاج الذي تشكّله لوازم النشر العلمي، قمت بإلغاء جميع الهوامش. ويمكن العودة إليها في نصوص المقالة الأصلية، "ما هو تاريخ الكتاب؟" في مجلة Daedalus (صيف 1982)، ص 65-83.

سنة الماضية. ويتابع بعض مؤرخي الكتاب أثره بعيداً في الماضي، إلى الفترة ما قبل اختراع الحروف المتحركة. ويركّز بعض طلاب الطباعة الاهتمام على الصحف واللوحات ونماذج أخرى إلى جانب الكتب. ويمكن توسيع وبسط الموضوع بعدة طرق، ولكنه يدور في أغلبه حول الكتاب منذ عهد غيتنبرغ، وهي مساحةٌ بحثية تطورت بسرعة كبيرة خلال السنوات القليلة الماضية مما يؤهلها لتأخذ مكانها إلى جانب حقول أخرى مثل تاريخ العلوم والفنون في مقررات التخصصات الأكاديمية.

إذا أردنا معرفة إلى أي مدى سيؤول تاريخ الكتاب في المستقبل، فإن ماضيه يرينا كيف يمكن لحقل معرفي اتخاذ هوية أكاديمية مميزة. وهي نشأت نتيجة تقاطع عدة اختصاصات على مجموعة مشتركة من المشاكل، يتعلق كل منها بأساليب الاتصال والتواصل. ولقد اتخذت هذه المشاكل أساساً شكلاً واضحاً من الأسئلة في العديد من فروع المعرفة المتباعدة: ماذا كانت نصوص شكسبير الأصلية؟ ما أسباب اندلاع الثورة الفرنسية؟ ما هي صلة الوصل بين الثقافة والطبقية الاجتماعية؟ وفي محاولتهم لتقصّي هذه الأسئلة، وجد الأكاديميون أنفسهم يطرقون دروباً في مناطق غريبة لا تمت إلى أي اختصاص حيث تتقاطع العديد من حقول العلوم. لذلك قرروا إنشاء حقل خاص بهم ودعوة المؤرخين وأكاديميي الآداب، وعلماء الاجتماع، والمكتبيين، وأي شخص آخر يهمه فهم الكتاب كقوة في التاريخ. وهكذا بدأ تاريخ الكتاب يستحوذ الاهتمام عبر صدور مجلات خاصة به، وافتتاح مراكز الأبحاث، وانعقاد المؤتمرات والمحاضرات. ولقد استقطب الموضوع مخضرمين إلى جانب شباب ناشئين. ورغم أنه لم يطوّر حتى الآن كلمات مرور أو مصافحات سرية خاصة بأتباعه من أصحاب

الـــشهادات العلـــيا، فإن مؤيديه يمكنهم تمييز بعضهم من الوميض في عيونهم. فهم ينضوون تحت لواء هدف مشترك، هدف فريد من العلوم الإنسانية يتيح للذهن السفر بعيداً وإطلاق زوبعة من الأفكار الخلاقة.

وللتأكد، فإن تأريخ تاريخ الكتاب لم يبدأ بالأمس. فهو يمتد إلى معـــارف عـــصر النهضة، إن لم يكن أبعد من ذلك، وهو انطلق رسمياً خـــلال القـــرن التاســـع عشر عندما أُطلقت دراسات حول الكتب، كموضـــوع "مادية الببليوغرافيا التحليلية" في إنكلترا. ولكن الأعمال الحالـــية تمثّل ابتعاداً عن الجهود العلمية القائمة، والتي يمكن تقصّيها إلى نـــشأتها في القـــرن التاســـع عـــشر عبر أعداد سابقة من مجلتي المكتبة Börsenblatt für den Deutschen Buchhandel و أو الأطروحات في Ecole des Chartes. ولقد تطورت هذه المدرسة الجديدة خلال الستينيات (1960) في فرنسا، حيث تجذّرت في مؤسسات مثل Ecole Pratique des Hautes Etudes وانتشرت عبر كتاب مثل L'Apparition du Livre في العام 1958 من تأليف لوسيان فابفر وهنري - جان مارتان، ومجلـــدين صدرا في العامين 1965 و1970 من مجموعة متصلة بقسم V في Ecole Pratique des Hautes Etudes تحـــت عنوان Livre et société dans la France du XVIII siècle.

لقـــد استحـــضر مؤرخو الكتاب الجدد الموضوع ضمن مجموعة المواضيع التي تدرّسها مدرسة Annales [السجلات والحوليات] للكتابات التاريخية، حول التاريخ الاجتماعي الاقتصادي. وعوضاً عن الخوض في مواضـــيع ببليوغرافية واضحة، فإنهم يحاولون الكشف على النسق العام لإنـــتاج الكتب واقتنائها عبر فترات زمنية طويلة. حيث قاموا بمراكمة إحـــصائيات مستخلـــصة من طلبات حقوق النشر، وبتحليل محتويات المكتبات الخاصة، وبتقصّي التيارات الإيديولوجية عبر الأصناف المهملة

منها مثل bibliothèque bleue (روايات جيب بدائية). و لم تكن لديهم رغبة بالكتب النادرة أو الطبعات المميزة، حيث انصبَّ تركيزهم على الكتب العادية لأن هدفهم كان اكتشاف التجربة الأدبية لدى القراء العاديين. ولقد وضعوا ظواهر معروفة مثل "حركة الإصلاح الكاثوليكي" و"التنوير" في أُطر مختلفة عبر الإضاءة على مدى تفوّق الثقافة التقليدية على الطليعية في البيئة الاجتماعية الثقافية كلها. ورغم أنهم لم يتوصلوا إلى مجموعة ثابتة من الاستنتاجات، فإنهم أظهروا أهمية طرح أسئلة جديدة باستخدام أساليب جديدة والبحث عن مصادر جديدة.

ولقد انتشر أسلوبهم عبر أوروبا والولايات المتحدة مُعززاً التقاليد المحلّية، مثل دراسات الاستيعاب في ألمانيا وتاريخ الطباعة في بريطانيا. وحيث يجمعهم التزامهم بمشروع مشترك، وتُحفّزهم حماسة للأفكار الجديدة، راح مؤرخو الكتب يلتقون في المقاهي بدايةً، ثم في المؤتمرات. وأصدروا مجلات جديدة - تاريخ النشر، نشرة الببليوغرافيا، أخبار الكتب القديمة، المجلة الفرنسية لتأريخ الكتب و Wolfenbütteler Notizen zur Buchgeschichte، وBu chhandekgeschichte. كما قاموا بتأسيس مراكز جديدة - مؤسسة دراسات الكتاب، مركز الكتاب في مكتبة الكونغرس، و Arbeitskreis für Geschichte des Buchwesens in Wolfenbüttel. إضافة إلى عقد مؤتمرات علمية - في جنيف وباريس وبوسطن وورستر، وولفنبوتل، وأثينا، لتسمية بعضها الذي تمَّ في أواخر العام 1970 - مما أتاح لأبحاثهم الانتشار على مستوى عالمي، فتحوّل تاريخ الكتاب خلال فترة قصيرة من عقدين إلى حقلٍ دراسي غني ومتنوع.

أثبت هذا الحقل ثراءه إلى درجة تحوّل إلى ما يشبه غابةً مطرية مدارية يصعب على المستكشف اجتيازها بسهولة. فعبر كل خطوة

تعترضه شبكة من المقالات الرائعة وتربكه مجموعة من الاجتهادات المتشابكة - الببليوغرافية التحليلية توجهه في هذا الاتجاه، والمعرفة الاجتماعية إلى ذاك الاتجاه، بينما يبقى التاريخ، واللغة، والأدب المقارن تحت المراقبة من تداخلات قطاعية. في حين تحاصره ادعاءات الحداثة - "التاريخ الأدبي الحديث" - وتربكه منهجيات متنافسة، تدفعه إلى تنظيم الإصدارات، وجمع الإحصائيات، وفك رموز قانون حقوق النشر، والخوض عبر دفق من المخططات، وتحريك ذراع آلة طباعة قديمة أُعيد تجديدها، وتحليل آلية عمل ذهنية القراء بأسلوب نفسي. وهكذا أصبح تاريخ الكتاب مكتظاً بمجالات مساندة لا يستطيع المرء تلمُّس حدودها العامة. وكيف لمؤرّخ الكتاب إهمال تاريخ المكتبات، والنشر، والورق، والحروف، والقراءة؟ وكيف له أن يتمكن من تقنياتها، خاصة عندما تصدر بمفهوم غريب فارض، مثل Geschichte der Appellstruktur، و Bibliométrie bibliologique؟ فهي كلها كافية لدفع الإنسان للجوء إلى قاعة الكتب النادرة لتعداد العلامات المائية.

للابتعاد قليلاً عن مجالات الاختصاصات غير المنضبطة، ولتكوين صورة كاملة للموضوع، قد يكون مفيداً اقتراح نموذج عام لتحليل طريقة إنتاج الكتب وانتشارها في المجتمعات. وللتأكد، فإن الظروف تختلف بين مكان وآخر، وزمان وآخر، فمنذ اختراع الحروف المتحركة، أصبح من العبث توقُّع تطابق بيوغرافيا كل كتاب مع نسق عام موحّد. غير أن جميع الكتب المطبوعة، بشكل عام، تمر بدورة الحياة نفسها تقريباً. ويمكن وصفها على أنها دورة تواصل تنطلق من المؤلف إلى الناشر (إذا لم يتولَّ بائعٌ هذه المهمة)، فالمطبعة، فالشاحن، فبائع الكتب والقارئ. ويتمم القارئ هذه

الـــدورة لأنـــه يؤثـــر في المؤلف قبل وبعد عملية تنضيد الكتاب، والمؤلفون هم قراءٌ أصلاً. وعبر القراءة والتواصل مع قراء وكتّاب، فـــإنهم يكوّنـــون أفكـــاراً حول المواضيع والأساليب وتصوراً عاماً للموضوع الأدبي الذي سيؤثر في كتاباتهم، إذا كانوا في صدد كتابة أبيات شعر شكسبيرية أو تعليمات لاستخدام كمبيوتر محمول. وقد يـــردُّ المؤلـــف علـــى نقد لعمله الأخير، أو يتوقع ردات فعل تبرز كـــتاباته. وهـــو يتوجه إلى القراء الأصليين ويستمع إلى المراجعات الصريحة. وهكذا تلتفُّ دورة التواصل في استدارة كاملة. وهي تبعث بالرســـائل، وتحـــوّلها في طريقها، أثناء انتقالها من طور الفكرة إلى الكتابة فالطباعة وعودة إلى الفكرة ثانية. ويختص تاريخ الكتاب بكلٍّ مـــن مراحل هذه الآلية، إضافة إلى الآلية بكاملها بجميع اختلافاتها الـــزمنية والمكانـــية وعلاقاتها بأنظمة أخرى، اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية في البيئة المحيطة.

إنهـــا مـــسؤولية كبيرة. وللمحافظة على أعمالهم ضمن نسب سهلة الإدارة، يعمد مؤرخو الكتب عامة إلى تقسيم دورة التواصل إلى شـــرائح محـــددة لتحليلها تبعاً لأنظمة مجالات محددة - الطباعة مثلاً، والتي يدرسونها عبر ببليوغرافيا تحليلية. ولكن هذه الشرائح لا تأخذ أهميتها الكاملة دون ربطها بالمجموع، وتبرز هنا ضرورة وجود نظـــرة شموليـــة للكتاب كوسيلة تواصل، إذا أُريدَ تجنيب الكتاب التفـــتُّتَ إلى اختـــصاصات غريبة تفصلها تقنيات سرية وتفاهمات متـــبادلة. ويقدم الشكل رقم 1 وسيلة لتصوّر آلية التواصل كاملة. وعـــبر بعـــض الضبط، يمكن تطبيقها على جميع المراحل في تاريخ الكتاب المطبوع (الكتب المخطوطة وكتب الرسوم يجب تقييمها في مكان آخر). ولكنني أود بحث العلاقة مع العصر الذي أعرفه أكثر،

القرن الثامن عشر، ولأخذ مرحلة إثر أخرى، مبيناً علاقة كل مرحلة مع (1) أنشطة أخرى يتولاها شخص محدد في موضوع معين من الدورة، (2) أشخاص آخرين في نفس الموضع في دورات تواصل أخرى، (3) أشخاص آخرين في مواضع أخرى من الدورة نفسها، و(4) عناصر أخرى في المجتمع. تؤثر الاعتبارات الثلاثة الأولى على حركة النصوص، بينما يتعلق الأخير بالتأثيرات الخارجية، والتي يمكنها التغيُّر إلى ما لا نهاية. وللتبسيط، فقد اختصرتُ البند الأخير إلى المستويات العامة الثلاثة في وسط الرسم.

للنماذج أسلوبها في إصابة البشر بالشلل وإخراجهم من التاريخ: ولإعادة الحياة إلى النموذج التالي، وإظهار كيف له أن يحوّل حالة محددة إلى منطقية، سوف أعطي مثلاً تطبيقياً على تاريخ نشر كتاب فولتير Questions sur l'Encyclopédie وهو عمل هام من عصر التنوير، كان له أثره في حياة الكثيرين من قراء الكتب في القرن الثامن عشر. يمكن للمرء دراسة دورة تواصله في أي مرحلة – عند التنضيد، على سبيل المثال، عندما كوّن فولتير نصوصه ونظّم توزيعه لتنشيط حملته ضد التعصب الديني، كما بيّن كُتّاب سيرته؛ أو عند طباعته، مرحلة يساعدنا فيها التحليل الببليوغرافي لإثبات تكاثر طبعاته؛ أو في مرحلة استيعابه في المكتبات، حيث، وبناء لدراسة إحصائيات مؤرخي الآداب، احتلت أعمال فولتير حيزاً مؤثراً من رفوفها. ولكني أود الاستشهاد بأقل رابط معروف في عملية التوزيع، دور بائع الكتب، ومتخذاً من إسحق – بيار ريغو من مدينة مونبلييه الفرنسية نموذجاً، سأخوض في الاعتبارات الأربعة المذكورة أعلاه.

المؤلف
الناشر
الطباعة:
المنضدون
الطابعون،
أمناء المستودعات
المورِّد:
ورق،
أحبار،
حروف،
عمال
الموزع:
وكيل،
مهرب،
منطقة حرة،
سائقو عربات
بائعو الكتب:
بالجملة،
بالمفرق،
متجولون
القراء:
يشترون،
يستعيرون،
نوادي،
مكتبات
المجلّد
التأثير
الثقافي
والاعلاني
أزمة
اجتماعية
واقتصادية
عقوبات
سياسية
وقانونية

I

في 16 آب/أغسطس، 1770، طلب ريغو ثلاثين نسخة من كتاب "أسئلة" Questions بطبعة المقاس العادي المكونة من تسعة مجلدات، والتي بدأت المؤسسة التيبوغرافية في نويشاتل (STN) بطباعتها في إمارة نويشاتل البروسية على الجانب السويسري من الحدود الفرنسية السويسرية. وبشكل عام، كان ريغو عادة يفضّل قراءة عدة صفحات على الأقل من أي كتاب جديد قبل شراء كميات منه، ولكنه اعتبر أن كتاب "أسئلة" خيار جيد مخاطراً بطلب كمية كبيرة نوعاً ما منه، دون تفحّصه. وهو لم يكن متعاطفاً شخصياً مع ڤولتير. بل على العكس، فإنه كان يستهجن ميول الفيلسوف للتصرف بكتبه، عبر إضافة وتعديل مقاطع منها، بينما يشارك في إصدار طبعات مقرصنة في خفية عن الناشرين الشرعيين. أدت ممارساته هذه إلى تذمر الزبائن الذين عارضوا استلام نسخ غير كاملة (أو غير موثوقة تماماً). وفي شكوى إلى الناشر الشرعي STN تذمَّر ريغو قائلاً: "من المدهش أن السيد ڤولتير، وفي نهاية مهنته، ما زال لا يتورع عن خداع بائعي الكتب. ولن يؤخذ هذا الموضوع بأهمية، إذا كانت هذه الحيل والخدع والغش تُلصق بالمؤلف. ولكن، ومع الأسف، فإن الملامة تقع على كاهل المطبعة، وتلصق المسؤولية على بائعي المفرّق". كان ڤولتير يضع بائعي الكتب في مآزق صعبة، ولكن كتبه كانت تبيع جيداً.

لم يكن هناك كتابٌ آخرٌ تقريباً في مخزن ريغو له علاقة بڤولتير. ويشير سجل مبيعاته أنه اختصّ تقريباً بالكتب الطبية، التي كانت مرغوبة دائماً في مونبيليه، بسبب وجود كلية الطب الشهيرة في الجامعة. كما أن ريغو حافظ على مجموعة من الأعمال البروتستانتية الرصينة، حيث إن مونبيلييه تقع في مقاطعة هيغينو. وعندما كانت

السلطات منشغلة عنه، كان يأتي ببضع شحنات من الكتب الممنوعة. ولكنه بشكل عام كان يزوّد زبائنه بشتى أنواع الكتب، التي كان يبيعها من مخزون تبلغ قيمته خمساً وأربعين ألف ليرة فرنسية على الأقل، وهو الأكبر في مونبيليه في ذلك العصر، وربما عبر لانغيدوك، بناءً لتقرير رفعه نائب الوكيل.

تُظهر طريقة ريغو في طلب الكتب من دار STN للنشر طبيعة عمله. وخلافاً لباقي الموزعين المناطقيين الكبار، الذين كانوا يطلبون مائة نسخة أو أكثر من أي كتاب قد يشعرون بأنه سيدخل قائمة "الأكثر مبيعاً"، فإنه نادراً ما كان يطلب أكثر من عشر نسخ. فهو كان يقرأ بشراهة، مستشيراً زبائنه، ومصغياً لأخبار الكتب التي يتناقلها مراسلوه التجاريون، ومنقباً في لوائح الكتب التي كانت ترسلها دار STN وغيرها من الناشرين (كانت لائحة STN في العام 1785 تضم سبعمائة وخمسين عنواناً). بعد هذا كله كان ينتقي حوالى عشرة عناوين طالباً عدداً محدداً من الكتب يكفي لوضعه في صندوق زنة خمسين باوندا، الحد الأعلى لشحنة تستفيد من أسعار الشاحنين المخفضة. فإذا بيعت الكتب جيداً، كان يعيد طلبها؛ ولكنه كان في العادة يحافظ على الكميات المطلوبة منخفضة، محققاً أربع أو خمس منها سنوياً. وبهذه الطريقة كان يحافظ على رأسماله، ويخفض من الأخطار، ويحفظ مخزوناً كبيراً ومتنوعاً، مما حوّل مخزنه إلى مركز لتبادل المعلومات حول الطلبات الأدبية من جميع الأنواع في المنطقة.

يظهر نسق ريغو في طلب الكتب، والواضح في سجلات STN المحاسبية، بأنه كان يقدّم لزبائنه القليل من كل شيء - كتب الرحلات، التاريخ، الروايات، الدين، وأحياناً بعض الأطروحات العلمية والفلسفية. وبدلاً من اتباع حدسه، يبدو أنه كان يتبع أسلوباً دقيقاً في

طلب كتبه، والعمل بناءً لحكمة تجارة الكتب المعروفة، والتي لخصها أحد زبائن STN بالتالي: "إن أفضل الكتب لبائع الكتب، هي الكتب التي تباع". انطلاقاً من سياسة ريغو التجارية الحذرة هذه، فإن قراره طلب ثلاثين مجموعة من تسعة أجزاء من كتاب "أسئلة"، يبدو ملفتاً بشكل خاص. فهو لم يكن ليضع هذا المبلغ من المال لشراء عمل واحد، لو لم يكن على ثقة بحجم الطلب التجاري المنتظر عليه – وتشير طلباته اللاحقة بأن حساباته كانت صحيحة. ففي 19 حزيران/يونيو 1772، وبعد قليل من استلام الشحنة الأخيرة من الجزء الأخير، قام ريغو بطلب دزينة إضافية، كما أنه طلب دزينتين أخريين بعد سنتين، رغم أن دار STN كانت قد استهلكت مخزونها من الكتاب. فقد كانت طبعت كمية هائلة منه، ألفيْن وخمسمائة نسخة، أي تقريباً ضعف كمياتها المعتادة، وتهافت باعة الكتب للحصول على كميات منها. وهكذا لم تكن عملية ريغو انحرافاً تجارياً، بل هي أثبتت وجود تيار ڤولتيري منتشر عميقاً بين القراء.

II

كيف يبدو شراء ريغو لهذا الكم من نسخ كتاب "أسئلة"، عندما يُنظر إليه من زاوية علاقته ببائعي الكتب الآخرين في مونبيلييه؟ لقد أدرج سجل تجارة الكتب تسعة منهم في العام 1777.

أصحاب مطابع وبائعو كتب

أوغست روشار

جان مارتل

بائعو كتب

إسحق – بيار ريغو

ج. فوري
ألبير بون
ترونل
باسكون
سيزاري
فونتانل

ولكن بناءً على تقرير رفعه أحد باعة دار STN المتنقلين، كان هناك سبعة منهم فقط، حيث إن ريغو وبون تشاركا معاً ليسيطرا على السوق الداخلي، أما سيزاري وفوري فقد تشبَّثا بمركز الوسط، في حين كان البقية يكافحون للبقاء وتجنب الإفلاس مع مخزونات غير ثابتة. ولقد طَرَحَ بعض المجلّدين الطارئين وتجار المفرّق الذين يعملون خفية كتباً إضافية، هي ممنوعة بمعظمها، وموجهة إلى القراء المغامرين في المدينة. وعلى سبيل المثال، فإن مدموزيل برينغان المعروفة باسم "أُم الطلاب"، كانت تخزّن بعض الإصدارات الممنوعة "تحت السرير في الغرفة التي إلى اليمين في الطابق الثاني"، بناءً على التقرير عن المداهمة التي أعدَّ لها باعة الكتب. ولقد انتظمت التجارة في معظم المناطق تحت نسق واحد تقريباً، والتي يمكن تخيّلها كمجموعة من الدوائر ذات المركز المشترك: في المركز، مؤسسة أو اثنتان تحاولان السيطرة على الأسواق، وعلى الهامش بعض الموزعين الصغار يكافحون عبر الاختصاص في الروايات الشعبية والإصدارات القديمة، وعبر إنشاء نواد للقراء ومشاغل للتجليد، أو عبر البيع المتجول في الأرياف، بينما بعيداً عن الممارسات القانونية، كان المغامرون يدخلون ويخرجون من السوق متاجرين بإصدارات ممنوعة.

عندما طلب ريغو شحنته من كتاب "أسئلة"، كان يُحكِمُ موقعه في مركز التجارة المحلية. ولقد أمَّنت له مشاركته بائع الكتب بون في

العام 1770 رأسمالاً وموجودات كافية تمكّنه من تخطّي أي أحداث مؤسفة - شحنات متأخرة، ومُدينين حانثين، وأزمات سيولة - والتي كانت تشكّل قلقاً دائماً في العمل التجاري. كذلك فإنه كان قاسياً، فعندما لم يتمكن سيزاري، أحد التجار المتوسطين من تسديد مستحقاته المالية في العام 1781، قام ريغو بإخراجه من تجارة الكتب عبر تدبير مؤامرة مع دائنيه، حيث رفضوا إعادة برمجة مستحقاته، فأُدخل السجن، واضطروه إلى بيع مخزونه من الكتب في المزاد العلني، حيث قاموا بتخفيض أسعارها ليبتلعوها بأسعار متدنية. وعبر نشر رعايته، تمكن ريغو من السيطرة على معظم مشاغل التجليد في مونبلييه، ليتحكّم بمواعيدْ صدور الكتب المنتجة ونوعيتها لصالح بائعي الكتب الآخرين. ومع حلول العام 1789 لم يبقَ معه في الساحة سوى أبراهام فونتانل، الذي بقي عائماً نتيجة محافظته على نادٍ للقراء، "إن النادي يستفز نوبات غيرة لدى السيد ريغو، الذي يحاول باستمرار السيطرة على السوق بمفرده، مُظهراً لي مدى كراهيته كل يوم"، كما أسرَّ فونتانل لدار STN.

لم يلغِ ريغو منافسيه ببساطة عبر المنافسة التجارية الرأسمالية الشرسة في فرنسا الحديثة وحسب. وتُظهر مراسلاتهم ومراسلاته إضافة إلى العديد من مراسلات باعة الكتب الآخرين بأن تجارة الكتب تقلّصت بين العامين 1770 و1780. وفي الأيام الصعبة تسبَّب باعة الكتب الكبار بمضايقات للأصغر حجماً منهم، حيث بقي الأقوياء فقط وسقط الضعفاء منهم. ومنذ بداياته كان ريغو زبوناً عنيداً في علاقاته مع دار STN. وكان يطلب نسخه من كتاب "أسئلة" من نويشاتل، حيث كانت الدار تطبع نسخة مقرصنة، بدل الطلب من جنيف، حيث توجد مطبعة ڤولتير المعتمدة، غبريال

كرايمـــر، الذي كان يطبع النسخة الأصلية، لأنه حصل على شروط أفضل. كما أن ريغو كان يطلب خدمات أفضل دائماً، خاصة عندما كـــان بائعـــو الكتب الآخرون في مونبلييه الذين سبق وتعاملوا مع كرايمـــر، يستلمون نسخهم قبله. أثار هذا التأخير سيلاً من الرسائل مـــن ريغو إلى دار STN. لماذا لا تستطيع الدار العمل بوتيرة أسرع؟ ألا تعرف أنها تتسبب له بخسارة زبائنه لمصلحة منافسيه؟ وسيضطر في المـــستقبل إلى طلب نسخه من كرايمر إذا لم تتمكن STN من تأمين شـــحنات أكثر وبأسعار أرخص. وعندما وصلت الأجزاء من واحد إلى ثلاثـــة أخـــيراً من نويشاتل، كانت الأجزاء من أربعة إلى ستة قد وصـــلت مـــن جنيف وأصبحت معروضة للبيع لدى منافسيه. ثم قام ريغـــو بمقارنة نصوص الطبعتين كلمة كلمة، ليكتشف أن طبعة دار STN لم تـــضم أي مـــادة إضـــافية جديـــدة، كانت قد ادعت أنها اســـتلمتها من فولتير الماكر. إذاً كيف له أن يثير موضوع "الإضافات والتنقـــيحات" في ديباجات البيع؟ مما كثّف التقاذف بالتهم والسباب عبر البريد بين مونبلييه ونويشاتل، وقد أظهرت الرسائل إصرار ريغو علـــى تكـــريس كل جزء من قدراته للتفوق على منافسيه. كما أنها كشفت أن كتاب "أسئلة" كان يباع في كل مكان في مونبلييه، رغم أنه، من ناحية المبدأ، كان ممنوعاً من التداول قانوناً في فرنسا. وبعيداً عـــن حصرها بالتجارة السرية عبر تجار هامشيين مثل "أُم الطلاب"، فـــإن أعمـــال فولتير تحولت إلى هدف في السباق لتحقيق الأرباح في قلـــب تجـــارة الكتب. وعندما كان موزعون مثل ريغو يصارعون ويقاتلـــون للحصول على شحناتهم منها، كان فولتير أكيداً أنه كان ينتـــصر في محاولاته دفع أفكاره عبر خطوط نظام التواصل الأساسية في فرنسا.

III

يـــثير دور ڤولتير وكرايمر في عملية التوزيع، مشكلة معرفة كيف تتلاءم أعمال ريغو مع المراحل الأخرى في دورة حياة كتاب "أسئلة". كـــان ريغو يعرف أنه لا يستلم الطبعة الأصلية، وكانت دار STN قد أرســـلت إليه وإلى جميع زبائنها الآخرين تعميماً تشرح فيه أنها ستعيد إنـــتاج نـــصوص كرايمر، ولكن مع تعديلات وإضافات قدمها المؤلف نفسه، بحيث تصبح طبعتها متفوقة على النسخة الأصلية. كما أن أحد مدراء دار STN قام بزيارة ڤولتير في فرني في نيسان/أبريل 1770 وعاد بـــوعد منه بتعديل الأوراق المطبوعة التي سيستلمها من كرايمر ليرسلها بعدئذ إلى نويشاتل لتحضير نسخة مقرصنة. هذه الخدع كانت طبيعية في علاقـــات ڤولـــتير. وهي وفّرت وسيلة لتحسين نوعية كتبه وزيادة كمـــياتها، لـــذلك كانت تخدم هدفه الأساسي - والذي لم يكن جمع المال، لأنه لم يبع أعماله للمطابع سوى لتحقيقٍ هدفه في نشر التنوير.

لقد أبقى دافع الربح بقية النظام عاملاً. وهكذا عندما علِمَ كرايمر عـــن طريق الصدفة بأن دار STN تستعد لغزو الأسواق، اعترض لدى ڤولـــتير، الـــذي أسرع بالتراجع عن وعده لدار STN، التي اضطرت للإذعـــان بإصـــدارٍ متأخر للنصوص التي استلمتها من فرني، ولكن مع إضافات وتصويبات قليلة. ولكن في الواقع، فإن هذه النكسة لم تضعف مـــن مبيعاتها، لأن السوق كان يتمتع بطاقة كبيرة لاستيعاب الطبعات الجديـــدة، ليـــست تلـــك من دار STN وحسب ولكن حتى واحدة أصـــدرها مـــارك ميشال راي من أمستردام، إضافة إلى المزيد غيرها. وكانت لدى باعة الكتب حرية اختيار مصادرهم، وكانوا يختارونها بناءً لأي فوائد هامشية يمكنهم الحصول عليها من ناحية الأسعار، والنوعية، وسرعة التسليم ومصداقيته. وكان ريغو على تواصل مستمر مع ناشرين

في باريس وليون وروان وأڤينيون وجنيف، يتلاعب بهم حسب مصالحه، صادماً بعضهم بالآخر، أو حتى طالباً نُسخاً من كتاب محدد من اثنين أو ثلاث منهم في الوقت نفسه ليتأكد من استلام نسخه قبل منافسيه. ومن خلال العمل عبر عدة دوائر تمكّن من توسيع حيز مناوراته. ولكن في حالة كتاب "أسئلة" فقد تغلّب الآخرون عليه وكان عليه استلام كتبه عبر حلقة ڤولتير - كرايمر - ڤولتير - STN.

هذه الحلقة قضت بأخذ المخطوطة من المؤلف إلى المطبعة. ولتصل الأوراق المطبوعة إلى ريغو في مونبلييه من مشغل STN في نويشاتل، كان عليها أن تشق طريقها عبر أحد أكثر مراحل دورة حياة الكتاب تعقيداً. وكان عليها اتباع أحد طريقين أساسيين. أحدهما ينطلق من نويشاتل إلى جنيف، فتورين، فنيس (التي لم تكن فرنسية بعد) ثم مرسيليا. وكان من مميزاتها تجنُّب الحدود الفرنسية - وخطر المصادرة - ولكنها تضمنت انعطافات ومصاريف كبيرة. وكان يتوجب نقل الكتب عبر جبال الألب بمساعدة جيش من الوسطاء ووكلاء الشحن، والملاحين، وسائقي العربات، وعمال السوق الحرة، والربابنة، وعمال الموانئ - قبل أن تصل إلى مخازن ريغو. وكان نخبة الشاحنين السويسريين يدّعون مقدرتهم على إيصال مركبة إلى نيس في خلال شهر لقاء ثلاثين ليرة فرنسية، أي حوالى 50 سنتيماً للحمولة الواحدة، ولكن تقديراتهم هذه أثبتت أنها منخفضة جداً. أما الخط المباشر من نويشاتل إلى ليون عبر نهر الرون فكان سريعاً ورخيصاً وسهلاً - ولكنه كان خطراً. كان يجب إغلاق الصناديق عند نقطة دخولها إلى فرنسا ليتم تفحُّصها من قبل بائع الكتب والنقابة ومفتش الكتب الملكي في ليون، ليعاد شحنها وتفتيشها ثانية في مونبلييه.

مـــن باب حرصه الدائم، طلب ريغو من دار STN شحن الجزء الأول من كتاب "أسئلة" عبر الطريق الالتفافية الطويلة، لأنه كان يعرف أن باســـتطاعته الاعـــتماد على وكيله في مرسيليا، جوزف كولومب لإدخـــال الكتب إلى فرنسا دون تعقيدات تذكر. ولكنها شُحنت إليه بـــتاريخ 9 كانـــون الـــثاني/يناير 1771، ولم تصله سوى بعد شهر آذار/مارس، عندما كانت الأجزاء الثلاثة الأولى من الطبعة التي أصدرها كرايمر قد بدأ بيعها لدى منافسيه قبل ذلك بمدة من الزمن. أما الجزءان الثاني والثالث فوصلا إلى مخزن ريغو في تموز/يوليو، ولكن مثقلين بأجور الشحن ومتضررين من خشونة الطريق وشظفه. نتيجة هذا، تذمَّر ريغو بالقـــول "يـــبدو أننا بعيدون بحوالى ستة آلاف 'ليغ' (حوالى 17,000 مـــيل)"، معبراً عن أسفه لأنه لم يشترِ نسخه من كرايمر، الذي كان قد سلّم الجزء السادس من الكتاب إلى بائعي الكتب. عند هذا، بدأت دار STN تقلق من خسارة زبائنها في جنوب فرنسا إلى درجة إنشاء شبكة تهريب في ليون. وكان وكيلهم هناك جوزف - لويس برثود، قد تمكن مـــن إدخـــال الجزءين الرابع والخامس خفية عن أعين مفتشي النقابة، ولكن أعماله انهارت وأعلن إفلاسه. ولتزداد الأمور سوءاً، فإن الحكومة الفرنسية فرضت ضريبة جديدة قدرها ستون ليرة فرنسية على كل حمل مـــن الكـــتب المستوردة، مما جعل دار STN تتحول نحو طريق جبال الألـــب، عارضـــة على ريغو توصيل الكتب إلى مدينة نيس لقاء خمس عـــشرة ليرة فرنسية لكل حمل، إذا تكفل هو بدفع باقي المصاريف بما فيها ضريبة الاستيراد. ولكن ريغو اعتبر الضريبة ضربة موجعة للتجارة الدولـــية، مما جعله يعلّق طلباته مع التجار الأجانب. كما أن السياسة الـــضريبية الجديدة جعلت من عملية تمويه الكتب غير الشرعية لتهريبها كإصدارات شرعية أمراً باهظ التكلفة.

في كانـــون الأول/ديسمبر سلّم وكيل دار STN في مدينة نيس، جاك داندري، وبطريقة غير معروفة، الجزء السادس من كتاب "أسئلة" لـــريغو عـــبر مرفأ ستّي، المفترض أنه يُمنع شحن الكتب عبره. عندها أدركـــت الـــسلطات الفرنسية أنها قد دمرت تجارة الكتب المستوردة، فخفـــضت من التعرفة إلى ست وعشرين ليرة فرنسية لكل حمل. اقترح ريغـــو مـــشاركة هذه المصاريف مع متعهديه: حيث سيدفع الثلث إذا قامـــوا بدفع الثلثين الآخرين. لقي هذا العرض استحساناً لدى دار STN، ولكـــن في ربـــيع 1772، قرر ريغو أن طريق مدينة نيس كان مرتفع الكلفـــة للاســـتخدام تحـــت أي حالة. إثر سماع دار STN الكثير من الـــشكاوى المماثلـــة مـــن زبائن آخرين وصلت إلى الاستنتاج نفسه، فأرسلت أحد مدرائها إلى مدينة ليون، حيث أقنع أحد الوكلاء الأكثر ثقة فيها، ج. م. باريت، بتخليص الشحنات عبر نقابة محلية ونقلها إلى الـــزبائن في المناطق. وبفضل هذا التدبير وصلت الأجزاء الثلاثة الأخيرة من كتاب "أسئلة" بأمان إلى ريغو خلال فصل الصيف.

تطلَّب توصيل كامل الشحنة إلى مدينة مونبلييه جهوداً متواصلة ومـــصاريف مرتفعة، وما انفك ريغو ودار STN عن العمل على إعادة تنظيم مستمرة لطريق تموينهم مع كل شحنة جديدة. ذلك أن الضغوط الاقتصادية والسياسية استمرت في التغيُّر، وكان عليهما أن يعيدا النظر بترتيباتهما بانتظام داخل عالم الوسطاء المعقّد، الذين كانوا صلة الوصل بـــين المطابع ومخازن الكتب، والمؤثرين، بناء على تحليلات حديثة، عن نوعية الأعمال الأدبية التي كان يقرأها الفرنسيون.

لا يمكـــن معـــرفة طريق استيعاب القراء لكتبهم. ويرينا التحليل الببليوغرافي لجميع النسخ التي يمكن الوصول إليها، نوع المتغيرات النصّية المتوفـــرة. وقد تدلنا دراسة للمحفوظات التوثيقية في مونبلييه إلى عدد

النسخ التي بقيت كموروث، كما أن الإحصائيات المستمدّة من أدلة المزادات قد تجعل تقدير أعداد المكتبات الكبيرة الخاصة ممكناً. ولكن في ضوء وضع التوثيق الحالي، ليس باستطاعتنا معرفة نوعية قراء ڤولتير في ذلك الزمن وكيف كانوا يتجاوبون مع أعماله. وتبقى القراءة أصعب مرحلة للدراسة في دورة حياة الكتاب.

IV

تأثرت جميع المراحل بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية التي سادت في تلك الفترة، ولكن بالنسبة إلى ريغو، فإن هذه التأثيرات أثبتت وجودها عبر سياق محلي. فهو كان يبيع الكتب في مدينة يبلغ عدد سكانها واحداً وثلاثين ألفاً. ورغم وجود صناعة نسيج مهمة فيها، فإن مدينة مونبلييه كانت في الأساس مركزاً دينياً وإدارياً تقليدياً، تضم مؤسسات ثقافية، بما فيها جامعة، وأكاديمية للعلوم، واثنا عشر محفلاً ماسونياً، وستة عشر تجمع رهباني. وبما أنها كانت مركزاً للدوائر العقارية لمنطقة لانغدوك ولإدارتها المحلية، وضمّت مجموعة من المحاكم، فقد سكن المدينة مجموعة كبيرة من المحامين والرسميين الملكيين. وإذا شابهوا نظراءهم في مراكز محافظات أخرى، فإنهم لا شك وفّروا لريغو كماً كبيراً من الزبائن الذين تمتعوا بذائقة أدبية تنويرية. وهو لم يذكر خلفيتهم الاجتماعية في مراسلاته، ولكنه لاحظ أنهم كانوا يطالبون بأعمال ڤولتير وروسّو ورينال. ولقد إقتنوا كتاب Encyclopédie، كما طلبوا أطروحات إلحادية مثل Système de la nature وPhilosophie de la nature. فمونبلييه لم تكن مدينة منعزلة عن الثقافة، بل قطاعاً مزدهراً للكتاب. "إن تجارة الكتاب واسعة النطاق في هذه المدينة"، علّق مراقب في العام 1768، "لقد حافظ باعة الكتب

علـــى مخـــازنهم مليـــئة استناداً إلى ذائقة السكان التي تطورت لإنشاء مكتبات".

ســـادت هذه الأحوال المناسبة عندما طلب ريغو كتاب "أسئلة". ولكن أحوالاً سيئة سيطرت على ريغو في مطلع العامين 1770 و1780، الـــذي تذمّر، كباقي بائعي الكتب من الانحدار الحاد في تجارته، بسبب تقلّص الاقتصاد الفرنسي بكامله خلال هاتين السنتين. وبالتأكيد، فإن الوضع المالي في البلاد كان قد انهار: ومن هنا نشأت تعرفة الكتاب في العـــام 1771، والتي تعود إلى محاولة المراقب المالي العام القس جوزف مـــاري تـــيري الفاشلة تخفيض العجز المالي المتراكم خلال سني الحرب السبع. كما أن الحكومة حاولت أن تقمع الكتب المقرصنة والممنوعة، بدايـــة عـــبر نشاط مكثف للشرطة بين العامين 1771 و1774، ثم عبر إصـــلاح عام لتجارة الكتب في العام 1777. هذه التدابير دمّرت تجارة ريغـــو مـــع دار STN ومع دور النشر الأخرى التي نمت حول الحدود الفرنـــسية خلال سنوات أواسط القرن المزدهرة. ولقد أنتج الناشرون الأجانـــب نسخاً أصلية من الكتب التي لا تسمح بها الرقابة في باريس والنـــسخ المقرصنة التي ينتجها الناشرون الباريسيون. وبسبب حصول الباريـــسيين علـــى احـــتكار افتراضـــي لصناعة النشر القانونية، أنشأ منافسوهم في المناطق تحالفات مع دور النشر الأجنبية مشيحين بنظرهم بعـــيداً عـــندما كانـــت شحنات من خارج الحدود تخضع للتفتيش في قاعات نقابة المنطقة (الغرفة النقابية). وتحت حكم لويس الرابع عشر، اســـتخدمت الحكـــومة الـــنقابة الباريسية كوسيلة لقمع التجارة غير الشرعية: ولكن تحت حكم لويس الخامس عشر تراخى هذا التدبير، إلى حـــين بـــروز عهـــد جديد من الشدة مع سقوط وزارة دوق شوازيل (كانـــون الثاني/يناير 1770). وهكذا فإن علاقات ريغو مع دار STN

تتطابق تماماً مع نمط اقتصادي وسياسي ساد تجارة الكتب منذ مطلع القرن الثامن عشر والذي بدأ بالانهيار مع انتقال صناديق كتاب "أسئلة" الأولى بين مدينتي نويشاتيل ومونبلييه.

قد تَظهرُ أنماط أخرى في أبحاث أخرى، حيث إن النموذج ليس بحاجة للتطبيق بهذه الطريقة بتاتاً. ولا أناقش هنا أن تاريخ الكتاب يجب كتابته استناداً إلى صيغة ثابتة، ولكن مع محاولة تبيان كيف يمكن دمج عناصره المتباينة ضمن تصور واضح واحد. وقد يفضّل مؤرخو كتب مختلفون مخططات مختلفة. وقد يركزون على تجارة الكتب في لانغدوك، كما فعلت مادلين فنتر؛ أو على بليوغرافية ڤولتير العامة، كما يتابع جيل باربر وجيروم فيركروس وغيرهم؛ أو على أسلوب إنتاج الكتاب العام في القرن الثامن عشر في فرنسا، على طريقة فرانسوا فيري وروبير استيڤال. ولكن كيفما عرّفوا مواضيعهم، فلن يتمكنوا من الحصول على كامل محتواها دون ربطها إلى جميع العناصر التي عملت سوياً كدورة لنشر الكلمة. ولتوضيح هذه النقطة بشكل أكبر، سوف أراجع نموذج الدورة مرة أخرى، آخذاً بعين الاعتبار المواضيع التي تمّ بحثها بنجاح، أو التي تبدو جاهزة للمزيد من الأبحاث.

I المؤلفون

رغم انتشار السير الذاتية لكبار المؤلفين، إلاّ أن أوضاع التأليف الأساسية لا تزال غامضة في معظم مراحل التاريخ: متى تحرَّر الكتّاب من رعاية النبلاء والأغنياء والدولة ليعيشوا من عرق أقلامهم؟ كيف كانت طبيعة المهن الأدبية وكيف تمت ممارستها؟ كيف تعامل الكتّاب مع دور النشر والمطابع ومخازن الكتب والنقاد وفي ما بينهم؟ إلى أن نحصل على إجابات على هذه الأسئلة، لن نتمكن من تكوين فكرة

كاملة عن طريقة انتقال النصوص. كان فولتير قادراً على تنسيق أحلاف سرية مع ناشري كتب مقرصنة لأنه لم يعتمد على كتاباته في معيشته. بعد قرن من هذا، أعلن إميل زولا أن استقلال المؤلف يأتي من بيع أعماله إلى من يدفع أكثر. كيف كان هذا التحول يتم؟ إن أعمال جون لو بدأت بتوفير الجواب، ولكن بحثاً منهجياً حول جمهورية الرسائل في فرنسا يمكن تحقيقه عبر سجلات الشرطة، والأدلة الأدبية، والببليوغرافيا (تعرض مجلة La France littéraire أسماء وإصدارات 1187 كاتباً من العام 1757 و3089 من العام 1784). أما الوضع في ألمانيا فهو أكثر غموضاً بسبب تشتت الولايات الألمانية قبل العام 1871. أما الأكاديميون الألمان فبدأوا البحث عن مصادر مثل Das gelehrte Teutschland، والتي عرضت لأربعة آلاف كاتب في العام 1779، وتقصّت الروابط بين المؤلفين والناشرين والقراء في دراسات مفصلة ومناطقية. كما أن ماريـنو برينغو أظهر مدى ما يمكن اكتشافه حول العلاقة بين المؤلفين والناشرين في إيطاليا. ولا تزال أعمال أ. س. كولينز تقدم وصفاً ممتازاً للتأليف في إنكلترا، رغم أنها بحاجة إلى التحديث والتوسع أبعد من القرن الثامن عشر.

II الناشرون

لقد أصبح دور الناشرين اليوم أكثر وضوحاً، والفضل يعود إلى مقالات تصدر في **مجلة تاريخ النشر** ودراسات محددة مثل **عالم ألدُس مانيوتوس** من مارتن لوري، و**تشارلز ديكنز وناشروه** من روبرت باتن، و**قادة الإيديولوجيا: الناشرون أنصار المحافظين في ألمانيا 1890–1933**، من غاري ستارك. ولكن تطور الناشر كشخصية مميزة مقابل بائع الكتب المخضرم وصاحب المطبعة ما يزال بحاجة إلى دراسة

منهجية. ولقد شرع المؤرخون لتوهّم في تقصي أوراق الناشرين، رغم أنهـــا أغنى المصادر لتأريخ الكتاب. وتضم سجلات داركوتّا في مارباخ علـــى ســـبيل المثال أكثر من مائة وخمسين ألف وثيقة، ورغم هذا لم يـــستخرج مـــنها سوى بعض المراجع عن غوته وشيلر وبعض مشاهير الكـــتّاب: ومن المؤكد أن المزيد من الاستقصاءات في ألمانيا ستكشف كمـــاً كبيراً من المعلومات حول الكتاب كقوة في القرن التاسع عشر: كيف ناقش الناشرون اتفاقاتهم مع المؤلفين، وكيف أسسوا تحالفاتهم مع بائعـــي الكـــتب، وكيف واجهوا السلطات السياسية، وكيف أداروا الأمور المالية والتموينية واللوجستية والإعلانية؟ إن الإجابات عن هذه الأســـئلة ستحمل تاريخ الكتاب إلى عمق التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لمصلحة الجميع.

إن مشروع الببليوغرافيا التاريخية في نيوكاسل أبون تاين و Institut de Littérature et de Techniques Artistiques de Masse في بوردو يوضّحان الاتجاهات التي اتخذتها تخصصات كهذه. ولقد حاولت مجموعة بوردو تقصّي الكتب عبر أنظمة توزيع مختلفة لكشف التجربة الأدبية لدى مجموعات مختلفة في فرنسا المعاصرة. ولقد درس الباحثون في نيوكاسل عملية الانتشار عبر تحليل كميّ لقوائم الاشتراكات، التي كانـــت تُـــستخدم علـــى نطـــاق واسع في حملات مبيعات الناشرين البريطانيين منذ مطلع القرن السابع عشر حتى مطلع القرن التاسع عشر. ومـــن الممكن القيام بعمل مماثل على أدلة الناشرين ونشراتهم، والتي تمّ جمعها في مراكز بحثية مثل مكتبة نيوبري. ويحتاج موضوع الإعلان عن الكـــتاب إلى المـــزيد من الأبحاث. كما يمكن للمرء معرفة الكثير حول التصرفات تجاه الكتاب ومضمون استخدامه عبر دراسة طريقة التعريف بـــه – استراتيجية تحليل رغبات القراء، والقيم التي تستحضرها صياغة

العبارات - عبر جميع وسائل الإعلان، من تعاميم الصحافة إلى ملصقات الجدران. ولقد استفاد المؤرخون الأميركيون من إعلانات الصحافة لرسم خارطة انتشار الكلمة المطبوعة بين شرائح المجتمع. وعبر العودة إلى وثائق الناشرين فإنهم تمكنوا من التوغل عميقاً في القرنين التاسع عشر والعشرين. وللأسف مع ذلك، فإن الناشرين يعاملون سجلاتهم عادة مثل النفايات. ورغم محافظتهم من حين إلى آخر على رسالة من مؤلف مشهور، فإنهم يرمون دفاتر حساباتهم ومراسلاتهم التجارية، والتي تشكل عادة مصدراً رئيسياً للمعلومات لمؤرخي الكتب. ويقوم مركز الكتاب في مكتبة الكونغرس اليوم بمراكمة دليل لسجلات الناشرين. وإذا أمكن المحافظة عليه ودراسته، من الممكن أن يوفر منظوراً مختلفاً لكامل مجرى التاريخ الأميركي.

III المطابع

تُعتبر أنشطة ورش الطباعة الأكثر وضوحاً بين مراحل إنتاج وتوزيع الكتاب الأخرى، لأنها كانت دائماً موضوعاً مفضلاً للدراسة في ميدان الببليوغرافيا التحليلية، والتي يعرّف دورها ر. ب. ماكّرو وفيليب غاسكل قائلين: "لتوضيح انتقال النصوص عبر شرح آليات إنتاج الكتاب". ولقد وفّر الببليوغرافيون تقديمات هامة لنقد النصوص، وخاصة في الدراسات الشكسبيرية، عبر تركيب استنتاجاتهم بطريقة عكسية ابتدأ من نسخة الكتاب الجاهزة إلى عملية طباعته وبالتالي إلى نصوصه الأصلية، مثل مخطوطات شكسبير المفقودة. ولكن خط المنطق هذا تقوّض مؤخراً عبر د. ف. ماكنزي. ورغم أنهم قد لا يتمكنون يوماً من إعادة بناء صورة كاملة حقيقية لأعمال شكسبير، فباستطاعة الببليوغرافيين إثبات وجود طبعات مختلفة من

النصوص وبأشكال مختلفة من الإصدارات، وهي مهارة ضرورية لانتشار الدراسات. كما أن تقنياتهم تسهّل من عملية حل شيفرة سجلات المطابع لإطلاق مرحلة سجلات جديدة في تاريخ الطباعة. وبفضل أعمال ماكنزي وليون قويت ورايموند دوروقر، وجاك ريشز، حصلنا على صورة واضحة لطريقة عمل وُرش الطباعة انطلاقاً من عصر آلة الطباعة اليدوية (بين العامين 1500–1800 تقريباً). والمطلوب المزيد من العمل لاستكشاف العصور اللاحقة، لتُطرح أسئلة جديدة: كيف كان أصحاب المطابع يقومون بحساب أكلافهم وينظّمون أعمالهم، خاصة بعد انتشار الطباعة التجارية والصحافة؟ كيف تغيّرت ميزانيات إنتاج الكتب بعد استخدام الورق المصنّع ميكانيكياً في العقد الأول من القرن التاسع عشر، وآلة لينوتيب للتنضيد في العام 1880؟ كيف أثّرت التغيرات التقنية في إدارة العمال؟ وما هو الدور الذي لعبه عمال الطباعة المهرة، وهم مجموعة فريدة واعية ومنظمة من القوى العاملة، في تاريخ الحركة العمالية؟ وقد تبدو الببليوغرافيا التحليلية غامضة على الغرباء، ولكنها قادرة على تقديم مساهمة قيّمة للتاريخين الاجتماعي والأدبي، خاصة إذا تمّ تطعيمها بدراسات لأدلة المطابع وسيرها الذاتية، ابتداءً من توماس پلاتر وتوماس غنت ون. رستيف دولابريتون وبنجامين فرانكلين وتشارلز مانبي سميث.

IV وكالات الشحن

هناك القليل الذي نعرفه حول طريقة وصول الإصدارات إلى مخازن الكتب من المطابع. وقد تكون العربات والعبّارات النهرية، والقوارب، ومكاتب البريد، وسكك الحديد قد أثّرت في تاريخ

الآداب أكثر مما نعتقد. ورغم أن تأثير وسائل النقل على صناعة الكتاب في مراكز النشر الأساسية كلندن وباريس كان متواضعاً، فإنها كانت مؤثرة في تدفق وانحسار وصول الكتاب إلى المناطق النائية. وقبل القرن التاسع عشر كانت الكتب تُرسل بشكل أوراق مفردة، ليتمكن الزبون من تجليدها بالطريقة التي يريدها استناداً إلى ذائقته و/أو قدراته المالية. وكانت الأوراق تأتي بشكل حُزمٍ كبيرة تمّ صرّها بأغلفة من الورق المقوى الذي كان يتضرر بتأثير المطر واحتكاك حبال الربط. ومقارنة مع سلع أخرى مثل الأقمشة، فإن قيمة أوراق الكتب المالية كانت منخفضة، رغم ارتفاع تكاليف شحنها بسبب حجم ووزن أوراقها. لذلك، فإن أجور الشحن كانت تستنزف نسبة كبيرة من مجموع تكلفة إنتاج الكتاب وحيزاً واسعاً من استراتيجيات تسويق الناشرين. وفي مناطق عدة من أوروبا، لم تستطع المطابع الاعتماد على سائقي العربات بين شهري آب/أغسطس وأيلول/سبتمبر لإيصال إصداراتها إلى بائعي الكتب لانشغالهم بنقل المحاصيل الزراعية. كما أن التجارة عبر بحر البلطيق كانت تتوقف باستمرار خلال شهر تشرين الأول/أكتوبر بسبب إغلاق المرافئ نتيجة الجليد. وكانت الطرق تُفتح وتُغلق في كل مكان بناءً لضغوط الحروب والسياسة وحتى بسبب أجور التأمين. ومنذ القرن السادس عشر حتى اليوم، تستمر الإصدارات غير التقليدية في الانتقال خفية وبكميات كبيرة، لذلك، فإن تأثيرها كان يختلف تبعاً لفعالية المهربين. أما الأنواع الأخرى من الكتب، كالروايات الرخيصة والبوليسية فإنها كانت توزّع عبر أنظمة توزيع خاصة تحتاج إلى المزيد من الدراسات، رغم أن مؤرخيّ الكتب بدأوا في كشف بعض خفاياها.

V مخازن الكتب

بفضل بعض الدراسات التقليدية - هـ. و. بينيت حول إنكلترا الحديثة، ول. س. روث حول أميركا المستعمرة، وهـ. ج. مارتن حول فرنسا في القرن السابع عشر، ويوهان غولدفريدريتش حول ألمانيا - أصبح بإمكاننا تكوين صورة عامة حول تطور تجارة الكتاب. ولكن هناك المزيد من الدراسات الواجب القيام بها حول دور بائع الكتب كوسيط ثقافي، الوسيط المباشر بين العرض والطلب. ولا نزال نفتقر إلى المعلومات الكافية حول المناخ الاجتماعي والثقافي المحيط بأشخاص مثل ريغو، حول قيمهم وذائقتهم والطريقة التي كانوا يتفاعلون فيها مع مجتمعاتهم. إذ إنهم عملوا ضمن شبكات تجارية كانت تتوسع وتتقلص كما التحالفات في عالم الدبلوماسية. فما هي القواعد التي حكمت صعود وانهيار إمبراطوريات تجارة الكتاب؟ يمكن لمقارنة تاريخ بلدان متعددة إماطة اللثام عن ميول عامة، مثل تأثير السلطة المركزية لمدن رئيسية مثل لندن وباريس وفرانكفورت ولايبزيغ، والتي وضعت دور النشر المناطقية ضمن مداراتها، وتأثير التوجهات غير المتكافئة للتنسيق بين الموزعين المناطقيين والمزوّدين في جيوب مستقلة مثل ليبج وبولون ونويشاتل وجنيف وأڤينيون. ولكن المقارنات تصعب بسبب العمل التجاري عبر مؤسسات مختلفة في بلدان مختلفة، مما ولّدَ أنواعاً مختلفة من السجلات. حيث تُبرز سجلات شركة قرطاسيي لندن، وتجمّع مخازن الكتب والمطابع في باريس، ومعارض الكتب في لايبزيغ وفرانكفورت الكثير من الاتجاهات المختلفة لتاريخ الكتاب في إنكلترا وفرنسا وألمانيا.

رغم هذا، فإن الكتب كانت تباع كسلعٍ في كل مكان، وبإمكان دراسة اقتصادية شفافة لها، أن تقدّم صورة للتاريخ الأدبي. ولقد

أظهر جيمس بارنز وجون تبّل وفريدريك باربير أهمية العامل الاقتصادي في تجارة الكتاب في إنكلترا وأميركا وفرنسا خلال القرن التاسع عشر. ولكن، يمكن القيام بالمزيد من العمل - حول الديون وآليات العمل على سبيل المثال، وطرق التفاوض حول الكمبيالات، والمناقشات لتأجيل الدفعات المستحقة، واستبدال الأوراق المطبوعة لقاء دفعات عينية. كانت تجارة الكتب مثل غيرها خلال عصر النهضة ومطلع العصر الحديث لعبة ثقة، ولكننا لا نزال نجهل الكثير حول طريقة ممارستها.

VI القرّاء

رغم الكتابات الكثيرة حول سيكولوجيتها وظواهرها وعلم نصوصها واجتماعها، فإن القراءة تبقى غامضة. كيف يتقبّل القراء الرموز على الصفحات المطبوعة؟ ما هي التأثيرات الاجتماعية جرّاء هذه التجربة؟ وكيف تغيّرت؟ لقد حوّل أدباء أكاديميون مثل واين بووث وستانلي فيش وولفغانغ إيزر وولتر أونغ وجوناثان كالار موضوع القراءة إلى اهتمام مركزي ضمن النقد النصّي، لأنهم يعتبرون المطبوعات كنشاط، تأويلاً للمعنى ضمن نظام اتصال، بدل نظام من النصوص، ويمكن لمؤرخ الكتب الاستفادة من أفكارها حول جمهور متخيّل، وقراء أصيلين، ومجتمعات مُأَوِّلة. ولكنه قد يجد أن ملاحظاتهم هي نوعاً ما مرتبطة بالزمن. ورغم أن النقّاد يعرفون سبيلهم عبر تاريخ المطبوعات (وهم يبرزون خاصة في تاريخ إنكلترا في القرن السابع عشر)، يبدو أنهم يفترضون أن النصوص كانت دائماً تلعب على وتر عواطف القراء بنفس الأسلوب، ولكن ذهنية سكّان لندن في ذلك الوقت كانت مختلفة جداً عن ذهنية أستاذ جامعي في نيويورك في القرن

العشرين. ولقد تغيّرت القراءة عبر الزمن. فهي كانت في الكثير من الأحيان تتم بصوت مرتفع أو في مجموعات، أو بسريّة وزخم لا يمكننا تصورها اليوم. ويرينا كارلو غينزبيرغ في كتاباته مدى التأثير الذي أوقعه طحّان من القرن السادس عشر في النصوص، كما تُظهر لنا مارغريت سبافورد أن العمال البسطاء كافحوا ليتعلموا القراءة في عصر خطاب آريوباغيتيكا Areopagitica، الذي ألقاه جون ميلتون في البرلمان البريطاني. وفي كل مكان في مطلع عصر أوروبا الحديثة، وانطلاقاً من طبقة المفكرين أمثال مونتاين ووصولاً إلى الطحان منوكيو، تلقف القراء جوهر الكتب، ولم يحاولوا تفسيرها فقط. ولقد شكلت القراءة شغفاً قبل وقت طويل من عصري الهوس بالقراءة Lesewut والوردزية(*) في العصر الرومانسي في ألمانيا، وهناك أيضاً حركة Strum und Drang الأدبية رغم رواج القراءة السريعة والنظرة الآلية للمنشورات كمشفّرة للرسائل.

ولكن النصوص هي التي تشكل مستوى استجابة القراء إليها ومستوى الدينامية التي تتمتع بها. وكما يلاحظ وولتر أونغ حول **حكايات كانتربري ووداعاً للسلاح** فإن صفحاتهما الأولى تشكل إطاراً تضع القارئ فيه لتسند إليه دوراً لا يمكنه تجنبه مهما كانت أفكاره حول الحج والحروب الأهلية. وفي الواقع، فإن تنسيق الصفحات والأسلوب واللغة تقرر الطريقة التي توصل عبرها النصوص معانيها. ولقد أظهر ماكنزي أن الكاتب المسرحي الجامح كونغريف والبذيء صاحب أوائل نسخ الجيب، تحوّل إلى الكتابة الكلاسيكية الرزينة في العام 1709، نتيجة لتغيير في تصميم الكتب وليس بسبب إعادة النظر في مضامينها. وعلى تاريخ القراءة أن يأخذ بعين الاعتبار الطرق التي

(*) نسبة إلى كتاب غوته.

تقـيّد بها النصوص القراء، وكذلك الطرق التي يتصرف بها القراء مع النـصوص. ولقد ساد التوتر بين هذين الاعتبارين طالما واجه الإنسان كتباً، مما أنتج نتائجَ مدهشة، كما في قراءات لوثر للمزامير، وقراءة روسّو لمـسرحية موليير عدو الإنسان Le Misanthrope، وقراءة كيركيغارد لتضحية إسحق.

وإذا كـان من الممكن استعادة القراءات الخالدة من الماضي، فإن التجـربة الداخلية للقراء العاديين قد تخوننا دائماً. ولكن علينا في مطلق الأحـوال إعادة بناء كم كبير من البيئة الاجتماعية للقراءة. ولقد أنتج النقاش حول القراءة الصامتة خلال القرون الوسطى بعض الأدلة المثيرة حـول عـادات القراءة، كما أن الدراسات حول مجتمعات القراءة في ألمانـيا، حـيث انتشرت القراءة بشكل مدهش في القرنين الثامن عشر والتاسـع عـشر، قـد أظهـرت أهمية القراءة في تطور نموذج ثقافي بورجوازي مميز. كما أن الأكاديميين الألمان قد ساهموا بشكل كبير في تـاريخ المكتبات وفي دراسات الاستيعاب من جميع المشارب. واستناداً إلى فكرة رولف إنغلزينغ، فإنهم يؤكدون باستمرار بأن عادات القراءة قـد تغـيرت منذ نهاية القرن الثامن عشر. فقبل ظاهرة **اقتناء الكتب** Leserevolution، نحا القراء إلى قراءات مرهقة، عبر نصوص محدودة مثل الكتاب المقدس، مرة إثر أخرى. بعد هذا، تسابقوا للحصول على مخـتلف أنواع النصوص، باحثين أساساً عن التسلية عوضاً عن التنوير. ولقد تزامن التحول عن تركيز القراءة نحو شمولها، مع نزع صفة القداسة عـن الكلمة المطبوعة. وأصبح العالم مزدحماً بمختلف ضروب القراءة، وتحـول استخدام النصوص إلى سلع يمكن التخلص منها مثل صحيفة الأمـس. هذا التفسير عارضه مؤخراً راينهارت تسيغرت ومارتين قلك وبعض الأكاديميين الشباب الذين اكتشفوا قراءات "مركزة" في أعمال

اللاجئين كالأدلة والصحف، وبشكل خاص Noth-und Hülfsbüchlein من رودولف زكرياس بكر، وهو من أكثر الكتب مبيعاً في عصر غوته. ولكن، وبغضّ النظر إذا كان مبدأ ثورة القراءة سيصمد أم لا، فإنه لا شك قد ساهم في تنظيم الأبحاث حول القراءة مع الأسئلة العامة حول التاريخ الثقافي والاجتماعي. والشيء نفسه يمكن قوله حول الأبحاث عن محو الأميّة، والتي أتاحت للأكاديميين فرصة تقصّي الأشكال الغامضة لجماهير القراءة المختلفة قبل قرنين أو ثلاثة، ومزاوجة الكتب مع قرائها في مختلف المستويات الاجتماعية. وكلما انخفض المستوى تعاظمت الدراسة. وكان الأدب الشعبي موضوعاً مفضلاً للبحث خلال العقد الماضي، رغم توجّه متصاعد للتحقق من فكرة أن الكتيبات الرخيصة مثل **المكتبة الزرقاء** تمثل ثقافة خاصة بأفراد الشعب العاديين أو يمكن للمرء أن يميز بوضوح بين الشرائح الثقافية "النخبوية" و"الشعبية". ويبدو الآن من غير المناسب النظر إلى التغيير الثقافي كحركة تأثيرات خطية أو تنقيطية، فلقد تدفقت التيارات صعوداً ونزولاً ملتحمة ومندمجة خلال حركتها هذه. ولقد انتقلت شخصيات خرافية مثل العملاق وسندريلا والدجال ذهاباً وإياباً عبر الحكايات الشفهية والروايات الشعبية والآداب الرفيعة، مغيّرة جنسياتها ومضمونها. كما يمكن للمرء تقصّي تحولات أرقام البورصة في التقاويم. ماذا يكشف تقمّص ريتشارد الفقير لشخصية ريتشارد الطيب حول الثقافة الأدبية في أميركا وفرنسا؟ وماذا يمكننا أن نعرف حول العلاقات الألمانية – الفرنسية عبر متابعة الساعي الأعرج في حركة التقاويم عبر نهر الراين؟

تربط الأسئلة حول من يقرأ ماذا، وفي أية ظروف، وفي أي وقت، وتحت أي تأثيرات، الدراسات حول علاقة القراءة بعلم الاجتماع.

ويمكن لمؤرخ الكتب التعلُّم كيف يتابع هكذا أسئلة من أعمال دوغلاس ويلز وبيرنارد بيرلسون وبيار لزارفلد وبيار بورديو. ويمكنه مقاربة الأبحاث حول القراءة التي انتعشت في مكتبة كلية العلوم المكتبية العليا في جامعة شيكاغو من العام 1930 حتى العام 1950، والتي لا تزال تظهر في تقارير غالوب العرَضية. وكمثال عن الشرائح الاجتماعية في الكتابات التاريخية، يمكن للمؤرخ العودة إلى الدراسات حول القراءة (وعدم القراءة) بين طبقة العمال في إنكلترا خلال القرنين الأخيرين من ريتشارد ألتيل وروبرت ويب وريتشارد هوغارت. جميع هذه الدراسات تؤدي إلى المشكلة الأكبر: كيف يمكن للتواصل مع الكلمة المطبوعة التأثير على طريقة تفكير الإنسان؟ هل غيّر اختراع الحروف المتحركة من العالم الفكري للإنسان؟ قد لا يكون هناك من جواب مناسب لهذا السؤال، لأنه يحمل جوانب مختلفة عديدة للحياة في مطلع العصر الحديث في أوروبا، كما أظهرت إليزابيث آيزنشتاين. ولكن يجب الوصول إلى فهم أمتن لما تعنيه الكتب للناس. إذ يقدّم استخدامها لأخذ القَسَم، وتبادلها كهدايا، وتقديمها كجوائز، ومنحها كإرث، أفكاراً حول أهميتها داخل المجتمعات المختلفة. ويمكن لأيقنة الكتب الدلالة على حجم سلطتها، حتى للعمال الأميين الذين يجلسون في الكنائس مقابل ألواح موسى. وتُظهر مرتبة الكتب في الحكايات الشعبية والمفهوم الشعبي في الكتب بأن التأثيرات تحركت بالاتجاهين عندما احتكت التقاليد الشفهية بالنصوص المطبوعة، وأنه يجب دراسة علاقة الكتب بوسائط أخرى. وقد تؤدي خطوط الأبحاث إلى اتجاهات مختلفة، ولكنها ستلتقي كلها في النهاية على فهمٍ أكبر لطريقة تجسيد الطباعة لمحاولات الإنسان الوصول إلى تفسير لأحوال البشرية.

يمكن للمرء أن يفقد رؤية أبعاد التأثيرات الأرحب، لأن مؤرخي الكتب ينحرفون غالباً نحو دهاليز جانبية خاصة بهم، واهتمامات لا تمت إلى أبحاثهم الأصلية. ويمكن لعملهم أن يتشتت بشكل كبير، حتى ضمن حدود إصدارات دولة محددة، حيث يمكن أن يبدو إدراك تاريخ الكتاب كموضوع واحد غير ممكن الدراسة من منظور مقارن عبر مجموعة كاملة من المجالات التاريخية. ولكن الكتب بحد ذاتها لا تحترم الحدود اللغوية أو الجغرافية. وهي قد كُتبت غالباً عبر مؤلفين انتموا إلى جمهورية الرسائل، وتمَّ تنضيدها عبر عمال مطابع لا يفقهون لغة الكتب، وبيعت عبر مخازن كتب تعمل خارج الحدود الوطنية، ليقرأها أشخاص بلغة لا يتحدثونها. كما أن الكتب ترفض الاحتواء ضمن حدود اختصاص محدد عندما تُعامل كمواضيع للدراسة. وليس بمقدور التاريخ أو الآداب أو الاقتصاد أو علم الاجتماع أو البليوغرافيا أن تكون عادلة مع جميع نواحي حياة الكتاب. لذلك فإن الطبيعة الحقيقية لتاريخ الكتاب يجب أن تكون على مستوىً عالمي وعبر أسلوب ضمن الاختصاص. ولكن يجب ألاّ تشكو نقصاً بالتماسك المفاهيمي، لأن الكتب تنتمي إلى دورات اتصال وتواصل تعمل في أنماط ثابتة مهما كانت درجة تعقيدها، وعبر تسليط الضوء على هذه الدورات، يمكن للمؤرخين تأكيد أن الكتب لا تروي التاريخ وحسب، بل تساهم في صناعته.

مراجع

Baker, Nicholson. *Double Fold: Libraries and the Assault on Paper*. New York: Random House, 2001.

Bowers, Fredson. *Principles of Bibliographical Description*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1949.

Gallup-Diaz, Ignacio. *The Door of the Seas and Key to the Universe: Indian Politics and the Imperial Rivalry in the Darien, 1640–1750*. New York: Columbia University Press, 2001.

Gaskell, Philip. *A New Introduction to Bibliography*. Oxford, UK: Clarendon Press, 1972.

Gengenbach, Heidi. *Binding Memories: Women as Makers and Tellers of History in Magude, Mozambique*. West Sussex, NY: Columbia University Press, 2005.

Gere, J. A., and John Sparrow, eds. *Geoffrey Madan's Notebooks*. Oxford, UK, and New York: Oxford University Press, 1981, reprinted in 1985.

Hinman, Charlton. *The Printing and Proof-Reading of the First Folio of Shakespeare*. Oxford, UK: Clarendon Press, 1963.

Lockridge, Kenneth A. *On the Sources of Patriarchal Rage. The Commonplace Books of William Byrd and Thomas Jefferson and the Gendering of Power in the Eighteenth Century*. New York: New York University Press, 1992.

McKenzie, D. F. *Making Meaning. "Printers of the Mind" and Other Essays*, edited by Peter D. McDonald and Michael F. Suarez, S.J. Amherst and Boston: University of Massachusetts Press, 2002.

McKenzie, Donald F. *The Cambridge University Press, 1696–1712*. Cambridge, UK: Cambridge University Press, 1966.

McKerrow, R. B. *An Introduction to Bibliography for Literary Students*. Oxford, UK: Clarendon Press, 1928.

Norton, Mary Beth, and Pamela Gerardi, eds. *The American Historical Association's Guide to Historical Literature.* 2 vols. New York: Oxford University Press, 1995.

Orgel, Stephen, and A. R. Braunmuller, eds. *The Complete Pelican Shakespeare.* London and New York: Penguin, 2002.

Sharpe, Kevin. *Reading Revolutions. The Politics of Reading in Early Modern England.* New Haven, CT: Yale University Press, 2000.

Thomson, John, ed. *Books & Bibliography: Essays in Commemoration of Don McKenzie.* Wellington, New Zealand: Victoria University Press, 2002.

Wells, Stanley, and Gary Taylor, eds. *The Complete Oxford Shakespeare.* Oxford, UK: Oxford University Press, 1987.

Wilson, Douglas L. *Jefferson's Literary Commonplace Book.* Princeton, NJ: Princeton University Press, 1989.

Wilson, F. P. *Shakespeare and the New Bibliography.* Helen Gardner, ed. Oxford, UK: Clarendon Press, 1970.